وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الزيتونة

المنتدى الجامعي

للدراسات الإنسانية والتطبيقية

مجلة علمية فصلية محكمة تصدرها كلية الآداب بني وليد

العدد الحادي عشر - الخريف 2014

في هذا العدد:

الانتقال إلى إنتاج الطعام وتطوّر التعقد الثقافي

الأوضاع السياسية في عصر الإمارة الأموية بالأندلس (١٣٨-٣٠٠ هـ / ٧٥٥-٩١٢ م)

البيئة الاجتماعية والمرض

مفهوم الإخراج الصحفي وأسسه الفنية

الإشمام عند اللغويين والقراء

المسئولية الموضوعية

La description de la ville égyptienne, une façon de dénoncer la tyrannie orientale: l'Alexandrie

مجلة المنتدى الجامعي
العدد الحادي عشر الخريف 2014

مجلة علمية فصلية
محكمة تصدرها كلية الآداب
بني وليد

المنتدى الجامعي

للدراسات الإنسانية والتطبيقية

العدد الحادي عشر
الخريف 2014

رئيس التحرير
د. عويدات حسين بالحاج

مستشار التحرير
د. علي عبد الكاظم الفتلاوي

التوثيق
الدار الوطنية للكتاب – بنغازي
446

المواد المنشورة تعبر عن آراء كتابها
ولا تعبر عن رأي المجلة

المراسلات
مجلة المنتدى الجامعي
كلية الآداب - بني وليد – طريق الظهرة
almuntada2012@yahoo.com
Facebook.com/almuntada2012

قواعد النشر بمجلة المنتدى الجامعي العلمية الفصلية المحكمة للعلوم الإنسانية والتطبيقية

المنتدى الجامعي، مجلة علمية فصلية محكمة، تهتم بنشر البحوث والدراسات العلمية الأصيلة والمبتكرة في العلوم الإنسانية والاجتماعية والأساسية والتطبيقية.

وإذ ترحب المجلة بإسهامات الباحثين والكتاب في المجالات المعرفية المشار إليها؛ تحيطهم علماً بقواعد وشروط النشر فيها وفق الآتي:

1- تُقبل البحوث باللغتين العربية والإنجليزية على ان تعالج القضايا والموضوعات بأسلوب علمي موثق؛ يعتمد الاجرائية المعتمدة في الأبحاث العلمية؛ بعرض موضوع الدراسة وأهدافها ومنهجها وتقنياتها وصولاً إلى نتائجها وتوصياتها ومقترحاتها.

2- يكون التوثيق بذكر المصادر والمراجع بأسلوب أكاديمي، يتضمن:

- في الكتب: اسم المؤلف، عنوان الكتاب، مكان وتاريخ النشر، اسم الناشر.
- في المجلات: اسم كاتب المقال، عنوان المقال، رقم العدد وتاريخه، رقم الصفحة.

3- معيار النشر هو المستوى العلمي، والموضوعية والأمانة العلمية ودرجة التوثيق، وخلوه من الأخطاء التحريرية والنحوية والاملائية والطباعية.

4- أن يكون النص مطبوعا على برنامج (Microsoft Word) ويكون حجم الصفحة (A4) مع مراعاة الحواشي حسب الآلية المصممة من البرنامج السابق، ويكون خط الطباعة هو (Simplified Arabic) بحجم (14) للمتون و(16) للعناوين و(12) للحواشي.

5- أن لا يزيد حجم الدراسة أو البحث على (30) صفحة (A4) كحد أقصى، وأن يرفق بخلاصة للبحث أو المقال لا تتجاوز (60 كلمة) تنشر معه عند نشره.

6- ترحب المجلة بتغطية المؤتمرات والندوات عبر تقارير لا تتعدى (10) صفحات (A4) كحد أقصى، يذكر فيها مكان الندوة / المؤتمر وزمانها وأبرز المشاركين فيها، مع رصد أبرز ما جاء في الأوراق والتعقيبات والتوصيات.

7- ترحب المجلة بنشر مراجعات الكتب بحدود (10) صفحات (A4) كحد أقصى، على أن لا يكون قد مضى على صدور الكتاب أكثر من عامين.

8- عنوان الكتاب وأسم المؤلف ومكان النشر وتاريخه وعدد الصفحات. وتتألف المراجعة من عرض وتحليل ونقد، وان تتضمن المراجعة خلاصة مركزة لمحتويات الكتاب، مع الاهتمام بمناقشة طروحات المؤلف ومصداقية مصادره وصحة استنتاجاته.

9- يرفق مع كل دراسة أو بحث تعريف بالسيرة الاكاديمية والدرجة العلمية والعمل الحالي للباحث.

10- لا تدفع المجلة آية مكافآت مالية عما تقبله للنشر فيها.

11- لا تكون المواد المرسلة للنشر في المجلة قد نشرت أو أرسلت للنشر في مجلات أخرى.

12- تخضع المواد الواردة للتقويم من قبل محكمين تختارهم هيئة التحرير (سرياً)، ولا تعاد المواد المعتذر عن نشرها إلى أصحابها.

13- يجري إعلام الباحث أو الكاتب بقرار اللجنة التحكيمية وهيئة تحرير المجلة خلال شهرين من تاريخ الإشعار باستلام النص؛ وللمجلة الحق في الطلب من الباحث أن يحذف أي جزء أو يعيد الصياغة، بما يتوافق وقواعدها.

14- تحتفظ المجلة بحقها في نشر المادة وفق خطة التحرير؛ وتؤول حقوق الطبع للمجلة عند إخطار الباحث بقبول بحثه للنشر.

15- يكون ترتيب البحوث والدراسات المنشورة وفقاً لتراتب الحروف الأبجدية لأسماء الباحثين والكتاب.

16- ترسل إلى صاحب البحث أو المقال عدد نسختين، و(5) مستلات من العدد الذي نشر فيه البحث مع غلاف المجلة.

17- ترسل البحوث والدراسات والمقالات باسم رئيس التحرير: د. عويدات حسين بلحاج، على عنوان البريد الالكتروني الآتي:

Almuntada2012@yahoo.com

أما بخصوص البحوث والمقالات التي تسلم إلى مقر المجلة؛ فإن البحث يُسلم على قرص مدمج (CD) مرفقاً بعدد أربع نسخ ورقية. وللمزيد من المعلومات والاستفسار يمكن مراجعة صفحة المجلة على مواقع التواصل الاجتماعي الآتية:

http://www.facebook.com/almuntada.bw

مقر المجلة: كلية الآداب – بني وليد – طريق الظهرة

محتويات العدد

كلمة التحرير	8–7
الانتقال إلى إنتاج الطعام وتطوّر التعقد الثقافي بين جماعات الهولوسين في تادرارت أكاكوس أحمد سالم الضبع جامعة بني وليد – كلية الآداب – قسم التاريخ	40–9
الأوضاع السياسية في عصر الإمارة الأموية بالأندلس (138 – 300 هـ / 755 – 912 م) وفاء عوض سليم جامعة طرابلس – كلية الآداب – قسم التاريخ	70–41
البيئة الاجتماعية والمرض د. خليفة على بعيج جامعة طرابلس – كلية الآداب – قسم علم الاجتماع	90–71
مفهوم الإخراج الصحفي وأسسه الفنية د. عمران الهاشمي المجدوب كلية الفنون والإعلام – جامعة طرابلس	114–91
الإشمام عند اللغويين والقراء د. عبد الرحمن احسين عبد الرحمن الهمالي كلية التربية بنى وليد – قسم اللغة العربية	130–115
المسئولية الموضوعية د. على رمضان المخزوم	152–131
La description de la ville égyptienne, une façon de dénoncer la tyrannie orientale: l'Alexandrie Dr. Soliman Shagaf Faculté des lettres, Bani Walid	5–22

كلمة العدد

أخذت البحوث العلمية المحكمة تمثل رصيداً ومؤشراً على مستويات الجودة لأي مؤسسة أكاديمية، فضلاً عن كونها معياراً تعتمده تقارير التنمية الإنسانية والمعرفية لتحديد تراتبية الدولة على سُلّمْ التقدم وخلافه، وقوة مجتمعها، سيما بعد أن وُصفت الجامعات ومراكزها الاكاديمية والبحثية بيوتاً للخبرة والانتاجية المعرفية والإبداعية، وهو ما كان حاضراً لدى هيئة تحرير (المنتدى الجامعي) منذ انطلاقتها في سياقات ظرفية صعبة يشهدها وطننا؛ لتكون أول مجلة علمية محكمة تصدر في مدينة بني وليد عن كلياتها وبرعاية كلية الآداب فيها، أملاً في تحقيق أهداف إنشائها من رعاية لدراسات وأبحاث أعضاء هيئة التدريس ونشرها، وربما تحقق بعضاً من ذلك، ولا زالت تجتهدُ من أجله، وما ذلك إلا بعون من الله، وثقة من توجه إليها بهدف النشر، ومؤازرة الأفاضل من مستشاريها ومحكميها؛ لتواصل صدورها، وتضع بين أيدي متابعيها عددها الحادي عشر في سنتها الثالثة، يحدوها أمل المساهمة في بناء وطننا ورفعته، ورصانة مؤسساتنا الأكاديمية وجودتها.

وفق الله الجميع لما فيه خير البلاد والعباد

الانتقال إلى إنتاج الطعام وتطوّر التعقد الثقافي بين جماعات الهولوسين في تادرارت أكاكوس

إعداد: أحمد سالم الضبع
كلية الآداب بني وليد – قسم التاريخ

الانتقال إلى إنتاج الطعام وتطوّر التعقد الثقافي[1] بين جماعات الهولوسين في تادرارت أكاكوس

أحمد سالم الضبع
كلية الآداب بني وليد – قسم التاريخ

مثلت تادرارت أكاكوس (Tadrart Acacus)[2] واحدة من أهم المواقع التي تأصل فيها إنتاج الطعام في العالم القديم، حيث وفر المحتوى الاستراتيجرافي للبليستوسين المتأخر، والهولوسين المبكر والأوسط بيئة ثقافية متميزة للتكيف الإنساني مع ظروف البيئة المتغيرة. هذه البيئة تم اختزالها ضمن مسميات مختلفة: الايبي باليوليثي الفخاري، والثقافات الحجرية المائية، وما قبل الرعاوة، والاقتصاد الرعوي، والنيوليثي الصحراوي، وهي مسميات أفصحت عن استمرارية ثقافية ذات مضمون اقتصادي واجتماعي وتقني، وتواتر تطوري، وعناصر كرونولوجية / زمنية مختلفة.

---

[1] يستخدم مصطلح التعقد الثقافي في هذا العمل للإشارة إلى تراكم التغيرات الارتقائية المتواصلة في محتويات الهولوسين الأوسط واقتصادياته الإنتاجية المعتمدة على نظام الرعاوة.

[2] تقع تادرارت أكاكوس في الصحراء الوسطى، في جنوب غرب ليبيا، في حدود الإحداثيات 24° 00´ شمال – 10° 20´ شرق – 26° 00´ شمال – 11° 20´ شرق، وتتكون من سلسلة جبلية من الحجر الرملي. تخترقها العديد من الوديان التي تجري من الغرب إلى الشرق، ويحدها منحدر حاد من الغرب، وتوجد بها العديد من الكهوف والسقائف الصخرية، والتي شكلت في مجملها مستويات إقامة نموذجية بالنسبة للإنسان من بداية البليستوسين المتأخر، وهي تحتوي على تراكمات كثيفة من الترسبات العضوية النباتية والحيوانية، والأدوات الصنعية. انظر:

Mori, Fabrizio, The Great Civilisations of the Ancient Sahara, L'ERMA di Bretschneider, Roma, 1998, pp. 9 - 10 ; Gallinaro; Marina and Savino Di Lernia. "Working in a UNESCO WH Site. Problems and Practices on the Rock Art of Tadrart Akakus (SW Libya, Central Sahara)". In Journal of African Archaeology, vol. 9, no. 2, 2011, p. 160; Cremasch, Mauro and Andrea Zerboni; Christoph Spötl; Fabrizio Felletti. " The calcareous tufa in the Tadrart Acacus Mt. (SW Fezzan, Libya) An early Holocene palaeoclimate archive in the central Sahara ". In Palaeogeography, Palaeoclimatology, Palaeoecology, no. 287, 2010. P.p. 81 – 83.

الملخص:
توفر تادرارت أكاكوس (Tadrart Acacus) واحداً من أكثر التواترات شمولاً لمرحلة إنتاج الطعام وعمليات ما قبل التكيف السابقة له في العالم القديم، فلقد أعطتنا أعمال المسح الأثري حول بينات الهولوسين المبكر والأوسط تواترات راديوكاربونية واستراتيجرافية جيدة حول طريقة التحول من الاقتصاد الإستحواذي إلى الاقتصاد الانتاجي أي تدجين الحيوانات، ففي الوديان كما هو الحال في السقائف الصخرية ظهرت أنظمة إعاشة نيوليثية تعتمد على رعي الأبقار والماعز والخراف، مع إستغلال مكثف لطيف واسع من النباتات البرية.
تضيف كهوف تين طرة ووان موهجاج، ووان أفودا وغيرها من المواقع، بينات هامة لمعرفتنا بحياة الرعاة ومنتجي الطعام في الأكاكوس، لقد تعرفنا على مسارات مختلفة ومميزة من التعقد الثقافي المتنامي الذي نتج من عملية إنتاج الطعام. لقد شكل إنتاج الطعام قوة دافعة في التطور البشري، ويمكن رؤية تجليات هذا التحول والتعقد الثقافي من خلال التبدل في مفاهيم العملية الغذائية، والحصة البيئية، وظهور ضروب جديدة من التقنيات الحجرية، وأنظمة اقتصادية إعاشية قائمة على إعادة تنظيم وتدوير الموارد الغذائية، هذا فضلاً عن التطور في السلوك الرمزي، وفي القدرات الذهنية والعقلية.

ينحصر اهتمامي في هذه الورقة على تتبع مرحلة التحول إلى إنتاج الطعام وسط جماعات الهولوسين الأوسط في الأكاكوس، والتي أعلنت عن بدء مرحلة جديدة من مراحل تطوّر التعقد الثقافي في المنطقة، كما تسعى هذه الورقة أيضا إلى الإجابة على السؤال الأكثر شمولية: لماذا أخذت جماعات الأكاكوس في تدجين الحيونات أصلا؟. وتناقش، وتقارن كذلك البينات الخاصة بمواقع الإقامة في الأكاكوس المبكر والمتأخر والتغيرات التي طرأت عليها، كما نبحث عن ذلك الميكانيزم الذي أدى إلى ذلك التغيير.

بداية نقول: إن إنتاج الطعام ارتبط في الأساس بالتغيرات البيئية التي شهدتها الفترة الانتقالية من البليستوسين إلى الهولوسين في حوالي 10.000 سنة مضت[1]، لقد شهدت ليبيا في الهولوسين تغيرات بيئية هائلة لا تقل في عنفها، ومداها، وتأثيرها عن تلك التي شهدتها باقي المناطق في شمال إفريقيا، وجنوب غرب أسيا، وأوروبا[2]، وكانت هذه التغيرات المناخية قد أدت إلى ظهور تبدلات في نظام واستراتيجيات الإعاشة بين الصيادين – الجامعين للطعام، فظهور نمط / أسلوب الرعاوة كان نتيجة حتمية

[1] Cohen, Mark. The Food Crisis in Prehistory, Yale University, New Havan .1977. p. 3; Reed, C.A. Origins of Agriculture, Mouton, The Hague, 1977. P. 914; Harris, M. Cultural Materialism, Random House, New York, 1979, pp. 92 - 96; Fekri, Hassan. "Holocene Environmental Change and Origins and Spread of Food Production in the Middle East". In Adumatu, January. 2000, 1. pp. 8-9; Marshall, Fiona and Elisabeth Hildebrand. “Cattle Before Crops: The Beginnings of food Production in Africa “. In Journal of World Prehistory, Vol. 16, No. 2, June 2002. Pp. 109 – 110.

[2] Gupta, Anil." Origin of agriculture and domestication of plants and animals linked to early Holocene climate amelioration ". In Current Science, 10 July 2004, vol. 87. No. 1. pp. 56 – 57; Barnosky, Anthony .D; Paul L. Koch and Others. "Assessing the

للتغير في المناخ، ارتبط ديناميكياً مع ظهور تحولات ثقافية لدى البشر، والمتمثلة في ظهور أنماط اقتصادية جديدة.

هنا، لا بد من التنويه بضرورة الانتباه إلى ذلك الاختلاف القائم بين عمليات الانتقال إلى إنتاج الطعام في منطقة الأكاكوس وشمال أفريقيا، وبين تلك التي قامت في الشرق الأدنى والقارة الأوروبية، لقد ارتبط إنتاج الطعام في الشرق الأدنى والقارة الأوروبية بثلاثة أبعاد رئيسة وهي: الزراعة وتدجين الحيوانات، وظهور المستوطنات الدائمة، فضلا على ظهور تقنيات جديدة ولكن، في حال شمال أفريقيا فالمسألة مختلفة تماماً، وأحد تلك الاختلافات الأساسية التي يمكن ملاحظتها هو أن الزراعة لم تك قط هي الشكل الرئيس لإنتاج الطعام، فالبينة الدالة على قيام الناس بالزراعة غير موثقة بشكل جيد في السجل الأثري وغير حاسمة، حتى أنها غير قابلة للتشخيص أيضاً، بل، ويمكن

الاعتقاد بأنها لم تمارس مطلقاً في معظم مناطق شمال أفريقيا خلال الهولوسين المبكر والأوسط. بينما كان الرعي هو الشكل السائد، والأكثر توثيقاً ضمن التواتر الأستراتيجرافي للعديد من المواقع في الأكاكوس.

وكثيراً، ما تم ربط التواترات الثقافية النيوليثية لشمال إفريقيا بشكل عام، مع نظيراتها الأسيوية والأوروبية، وتم تفسير الآفاق الثقافية للهولوسين في شمال أفريقيا طبقاً للمصطلحات الكلاسيكية التي ظهرت في السجلات الأثرية التقليدية لمواقع الإقامة في أوروبا والشرق الأدنى مثل: الايبي باليوليتي؛ والميزوليتي؛ والنيوليتي. ففي حال النيوليثي، فقد عُدت المصنوعات الفخارية بأشكالها وأنواعها المختلفة، والأدوات الصنعية المصقولة مؤشرات حقيقية على هذا العصر، وبالتالي أعتبر كل موقع يحتوي على هذه الأدوات هو موقع نيوليثي، وفي حال غابت الفخاريات يتم تصنيف الموقع على كونه ضمن التواتر الإيبي باليوليثي أو الميزوليثي[1].

بصورة عامة، لم يفض هذا الارتباط إلى تقديم نماذج تفسيرية نموذجية شمولية للثقافات الصحراوية في الهولوسين، وبالتالي، لا يمكن تفسير المحتوى الثقافي لشمال أفريقيا من واقع تلك المعطيات التي توفرت في الهلال الخصيب على سبيل المثال، وذلك بسبب وجود جملة من الاختلافات خاصة فيما يتعلق بالبيئة الطبيعية، فبيئة شمال إفريقيا جافة وفقيرة نسبيا بالنسبة

Causes of Late Pleistocene Extinctions on the Continents " . In Science magazine, 1 October 2004, Vol. 306. p. 71 – 72; Surovell, Todd; Nicole, Waguespack. "Global archaeological evidence for proboscidean overkill". In PNAS, 14 December, 26 April 2005, vol. 102, no. 17, pp. 6231 – 6236.

[1] Garcea, Elena. “An Alternative Way Towards Food Production: The Perspective from the Libyan Sahara “. In Journal of World Prehistory, vol. 18, Issue 2, June 2004, p. 108.

للإنتاج الزراعي[1]، لذلك، وتحت الضغط الذي مارسته البيئة على سكان الصحراء الليبية اقتنت جماعات الأكاكوس نمطا اقتصاديا لإنتاج الطعام، يقوم على بداوة رعوية مع جمع مكثف للنباتات البرية، وهذا النمط اعتبر أكثر ملاءمة مع ظروف البيئة السائدة في ذلك الوقت[2].

عليه، ولتفادي الارتباط مع الأفق الثقافي لحوض البحر الأبيض المتوسط، تم استخدام مصطلحات: الأكاكوس المبكر / والأكاكوس المتأخر، والطور الرعوي، للتعبير عن الأفق الثقافي للهولوسين في المنطقة، وهي المصطلحات نفسها التي استخدمت في هذه الدراسة. وفقاً لهذا، أعتبر الأكاكوس المبكر هو عصر الصيادين الجامعين للطعام، والأكاكوس المتأخر هو عصر الرعاة[3]. وفي سياق الدور الرعوي يوجد ثلاثة مسارات ثقافية وهي: الرعوي المبكر والأوسط والمتأخر.

بعد هذا التقديم والعرض الموّجز الذي سعيت من خلاله إلى توضيح بعض المصطلحات والنقاط المنهجية التي شكلت القاعدة العلمية لدراسة وتفسير الأفق الثقافي لمنطقة الأكاكوس في الهولوسين، نبدأ الآن في معاينة موضوع الانتقال إلى الاقتصادي الإنتاجي وتطوّر التعقد الثقافي بين جماعات الأكاكاوس وفق المحاور التالية: مواقع الإقامة في البليستوسين المتأخر/ الأكاكوس المبكر، والانتقال إلى جمع الطعام، والنتائج المصاحبة لتطوّر التعقد الثقافي.

– مواقع الإقامة في البليستوسين المتأخر / الأكاكوس المبكر:

بداية من ستينيات القرن الماضي تم جمع وتصنيف المعطيات والمعلومات التي توصلت إليها الأبحاث الميدانية في ليبيا، في سلسلة من الدراسات التركيبية حول الشروط الطبيعية وتأثيرها على حياة الإنسان، ومواقع الإقامة، وأنظمة الإعاشة. هذه المعطيات كانت متنوعة للغاية شملت تواترات البيئة القديمة التي ظلت في حالة حفظ جيدة، وبعيداً عن النشاط البكتيري،

---

[1] Ibid. p. 107.

[2] Dunne, Julie with Richard Evershed, Lucy Cramp, Silvia Bruni , Stefano Biagetti, Savino di Lernia. “The beginnings of dairying as practised by pastoralists in ‘green’ Saharan Africa in the 5th millennium BC “. In Documenta Praehistorica. XL, 2013. p. 123; Augustin, Holl. “Social Issues in Saharan Prehistory “. In Journal of Anthropological Archeology, no. 8, 1989. P. 343.

[3] Di Lernia, Savino. " Dismantling Dung: Delayed Use of Food Resources among Early Holocene Foragers of the Libyan Sahara " . In Journal of Anthropological Archaeology, no. 20, 2001,. pp. 415 . (2) Cremaschi, Mauro and Zerboni; Anna Maria Mercuri; Linda Olmi; Stefano Biagetti; Savino di Lernia. “ Takarkori rock shelter (SW Libya): an archive of Holocene climate andenvironmental changes in the central Sahara “. In Quaternary Science Reviews, no. 101, 2014, p.p. 37 – 38 ; Cremasch, Mauro. ” The calcareous tufa in the Tadrart Acacus Mt “. Op. Cit. p. 88.

وضمت تواترات للترسبات، وأطياف اللقاحات، والرخويات، وبقايا النباتات، وبقايا الحيوانات الثديية الكبيرة، وبقايا الحيوانات الصغيرة.. وغيرها.

أشارت تلك المعطيات (التي تعود إلى البليستوسين المتأخر)[1]، إلى أن الوضع الهيدروليكي الحراري والمائي كانا قد وفرا بيئات محلية مفتوحة، مع رطوبة عالية وامدادات مائية ملائمة، أدت إلى تمركز مواد نباتية، وحيوانية في العديد من المواقع التي شكلت مواقع جاذبة، ومناسبة للإقامة البشرية.

وجه بعضهم اهتمامه إلى عملية تكون الموقع الأثري (وهو أمر مرتبط بالتغير في البيئة القديمة)، ومحتوياته الطبقية. وهنا، ينبغي التشديد على الدور الذي يؤديه تقلب الموارد الطبيعية، في الزيادة أو التنوع في أنظمة الإعاشة، أو حتى في تقليص حجمها، هذا الموضوع يرتبط عادة بسلسلة من التغيرات ذات الصلة التكييفية مثل: الموقع والحجم ومراحل وخصائص الصناعات الحجرية والوزن والتحليل الوظيفي واستخدام المواد الخام[2].

تم تجميع الكثير من التقنيات الحجرية المميزة للباليويتي الأوسط، والباليويتي الأعلى من عدة مناطق في ليبيا، في هوافطيح (Haua Fteah)[3]، ووادي الآجال، وفزان[4]، وبئر الحرش في قورينائية، وكذا في عدد من المواقع في منطقة الجبل الغربي[5]، ومن الصحراء الشرقية في بئر صحراء (Bir Sahara)، وبئر طرفاوي (Bir Terfowi)[6]. العينات كانت متنوعة للغاية بحيث ضمت شطفات وفؤوس يدوية، وكذا نوى قرصية الشكل، وتقنيات أشولية ضمت أسلحة ومقالع وسكاكين، وتقنيات عاترية.

مواقع الإقامة في الأكاكوس المبكر صنفت تحت إطار طور الحيوانات الكبيرة المتوحشة، أو طور " دور البابولوس "، وهو شكل / نوع من الفن الصخري، يحتوي على مناظر

---

[1] Cremaschi, Mauro and Zerboni; Anna Maria Mercuri; Linda Olmi; Stefano Biagetti; Savino di Lernia. “ Takarkori rock shelter (SW Libya): an archive of Holocene climate andenvironmental changes in the central Sahara “. In Quaternary Science Reviews, no. 101, 2014, p.p. 37 – 38 ; Cremasch, Mauro. ” The calcareous tufa in the Tadrart Acacus Mt “. Op. Cit. p. 88.

[2] Fekri . Op.Cit . p. 10 .

[3] Alimen , H . The Prehistory of Africa . Scientific and Technical , London , 1955. pp.73-74 ; Barich, Barbara with Elena Garcea, Carlo Giraudi. “Between the Mediterranean and the Sahara: geoarchaeological reconnaissance in the Jebel Gharbi, Libya “. In Quaternary International , vol. 320, January 2014. P. 575.

[4] Alimen, H. Ibid. p. 74.

[5] Barich, Barbar “Between the Mediterranean..”. Ibid. pp. 567 – 574.

[6] Wendorf , F ; Romuald Schild . Prehistory of the Eastern Sahara , Academic Press , New York , 1980 . p. 18 ; Clark , J. and Brandt , S,A . From Hunters to Farmers : The Causes and Consequences of Food - Production in Africa , London , 1984 . p. 94.

لصيادين وطقوس / تعابير رمزية في غاية من التعقيد. تم الكشف في كل من مساك تسافت ((Messak Settafet، ووان كاسا (Uan Kasa) ووان أفودا (Uan Afuda)على أطقم حجرية عاترية[1]، من ضمنها رؤوس مذببة ومكاشط جانبية، وشفرات، ومناقش، ورؤوس السهام، وكذلك تقنيات ليفالوزية موستيرية[2]، وأخرى ميكروليثية، فضلا عن الأدوات الخشبية والأدوات العظمية المسننة، وكذلك الحرز من بيض النعام. ارتبط النشاط الاستيطاني في كل تلك المواقع، بالاعتماد على الصيد؛ والجمع وصيد الأسماك.

يمكن في ضوء البينة المكتشفة، تحديد مجموعتان بشريتان مارستا نمط حياة مختلف في المنطقة، المجموعة الأولى في عمومها عبارة عن تجمعات بشرية مارست أنشطة وأنماط متعددة للحياة، فنراها على شاكلة معسكرات / مخيمات تقوم على اقتصاد استحواذي متخصص على مدى ضيق من الموارد النباتية والحيوانية [3]، مارس أصحابه نمط إقامة لوجستي ضمن تحركات ضيقة ما بين الجبل، والعروق، وأحواض البحيرات.

أما المجموعة الثانية فاعتمدت على اقتصاد استحواذي متنوع، مع تنظيم مكاني شبه مستقر في البيئة الجبلية، مع بروز انتقائية عالية في اختيار أنواع معينة من النباتات البرية، والحيوانات[4]. تم الكشف عن بينة تقنية تضم الفخاريات ذات الزخارف المضغوطة، والسلال، كما تُظهر أحجار الطحن حضوراً قويا ضمن التواتر التقني، وهو ما يشير إلى زيادة في نشاط جمع الحبوب البرية[5].

إن الحراك في مواقع الإقامة البشرية كان مقترناً بالتبدل في المناخ، فالمناطق التي كانت تشهد مناخاً رطباً، وتكثيفا متزايدا، شهدت تمركز مجموعات بشرية، تعتمد في معاشها على الموارد التي تتوافر بفضل هذا المناخ. وعند دراسة طبيعة / سلوك أي كائن حي فانه يجب الالتزام بالقاعدتين التاليتين: مدى تأقلم وتكيف الكائن الحي مع البيئة الفيزيائية المحيطة به،

---

[1] Cremaschi , Mauro; Savino Di Lernia . "Some Insights on the Aterian in the Libyan Sahara: Chronology, Environment, and Archaeology". In African Archaeological Review, 1998, Vol. 15, No. 4. pp. 251 – 283.

[2] Bouzouggar, Abdeljalil; Nick Barton, "82,000-year-old shell beads from North Africa and implications for the origins of modern human behavior ". In PNAS. 12 June 2007. vol. 104. no. 24 . pp. 9964 – 9969.

[3]) Dietzel, Martin with Hans Kolmer; Peter Poelt, Sanja Simic. “Desert varnish and petroglyphs on sandstone – Geochemical composition and climate changes from Pleistocene to Holocene (Libya) “. In Chemie Der Erde – Geochemistry, no. 68 (2008). P. 38.

[4] Di Lernia, Savino. “ Taming Barbary sheep: wild animal management by Early Holocene hunter- gatherers at Uan Afuda (Libyan Sahara) ”. In NYAME AKUMA, No. 46 , December 1996. P. 43 ; Dunne, Julie. Op. Cit. p. 120.

[5] Augustin, Holl. Op. Cit. p. 345 ; Clark, J and Brandt. Op. Cit. p. 87.

وتتبع عملية الاصطفاء الطبيعي التي أسهمت في جعل هذا الكائن متفاعلاً مع بيئته من جانب، وبني جنسه من جانب ثان ؛ ومعرفة مدى علاقته مع الأفراد المكونين لمجتمعه الحيوي.

فعلى سبيل المثال كانت خيارات سكان بعض المناطق في صحراء في الهولوسين المبكر لازالت عديدة، بفضل تزايد سقوط الأمطار، التي وفرت بيئة ملائمة لازدهار الحياة النباتية والحيوانية، حيث اعتمد الناس في معاشهم على صيد الأسماك، وصيد الحيوانات الثديية الكبيرة مثل الكركدن والزراف، مع تزايد الاعتماد على الأطعمة النباتية[1] .

لقد أشار تحليل الرواسب العضوية التي تم جمعها من هضبة مساك ستافت إلى مدى ثراء المواد العضوية، والتي تراكمت خلال الأطوار الأكثر رطوبة، واستغلت فيما بعد من جانب العالمين النباتي والحيواني، وبدرجة أكبر، لصالح الصيادين – الجامعين للطعام[2].

ومن جانب ثان، تم التعرف في فزان على بينات دالة على انتشار مجموعات بشرية في حوالي 9000 ± 100 و7000 سنة مضت، نجحوا في الجمع بين أنشطة الصيد، والاعتماد على الموارد النباتية، واستقرار الجماعات في مواقع ثابتة، مع اعتماد تحركات لوجستية داخل الإقليم بين الفصل والآخر، وبتطور المقدرة على ابتداع تقنيات قادرة على انتزاع الأطعمة النباتية، والحيوانية[3]. وبخلاف ذلك، شهدت الفترة ما بين 7000– 6300 سنة مضت، ظهور جماعات بشرية، اعتمدوا في معاشهم على رعي المواشي سيما الخراف والماعز.

كما أبانت الأبحاث الجيواركيولوجية لعرق وان كاسا، وأدهان مرزق، على أن الوضع الهيدرولوجي خلق مناخات ملائمة لازدهار النباتات، والحيوانات. وفي حدود 8000 سنة مضت كانت المنطقة قد شهدت ظهور بحيرات، وبرك[4]، مع استقرار مجموعات بشرية في شكل معسكرات، اعتمدوا في معاشهم على صيد الحيوانات الثديية الصغيرة، وصيد الأسماك، إلى جانب جمع النباتات البرية والدرنات. كما تشهد المعطيات الترسبية، والبالينولوجية، والميكرومورفولوجية التي تم جمعها من وادي تانيزوفت (Wadi Tanezzuft) على وجود فترة رطبة مع بيئة مفتوحة في بداية الهولوسين تشمل نباتات متنوعة مع حضور لبعض الأنواع

---

[1] Wendorf and Schild. Op. Cit. p. 326; Di Lernia, Savino. " Dismantling Dung: Op. Cit. p. 413.

[2] Anag, Giuma with Mauro Cremaschi; Savino di Lernia; Mario Liverani. “Environment Archaeology,, and Oil: The Messak Settafet Rescue Operation (Libyan Sahara) “. In African Archaeological Review, vol. 19, no. 2, June 2002. Pp. 68 – 69 ; Cremaschi, M ; S. Di Lernia. " Holocene Climatic Changes and Cultural Dynamics in the Libyan Sahara ". In African Archaeological Review, 1999 , Vol. 16, No. 4. p. 225.

[3] Clark, J and Brandt. Op. Cit. p. 87.

[4] Dietzel, Martin. Op. Cit. p. 39 ; Cremaschi, M. " Holocene Climatic Changes …". Op.Cit. p. 216 – 218 ; Di Lernia, Savino. " Dismantling Dung: Delayed…”. Op. Cit. 414.

الاستوائية، تزامنت مع استقرار لمجموعات بشرية اعتمدت على قاعدة إعاشة متنوعة: استغلال طيف عريض من الحيوانات، وعمليات جمع مكثفة للحبوب، والنباتات البرية[1].

وتشير الدراسات المورفولوجية إلى أن هناك فاصل من المناخ الجاف ظهر في الفترة ما بين 8500 و8200 سنة مضت، وكذلك ما بين 7900 و7700 سنة مضت تزامن مع نشاط للتعرية سببتها البيئة الجافة[2]، نتج عنه جفاف للبحيرات، واختفاء العديد من النباتات والشجيرات، وأصبحت مصادر الغذاء مبعثرة بشكل رقع صغيرة، وغير كافية لتلبية احتياجات الإنسان من المواد الغذائية النباتية والحيوانية. ومع تقلص حجم البيئات الملائمة للإقامة البشرية، بدأ الناس في إدخال تعديلات على سلوكهم الاستيطاني، وعملوا بكل ما لديهم من إمكانيات معرفية وقدرات تكنولوجيه على تطويع نظام الطبيعة الصارم، والاستعاضة عن الانتخاب الطبيعي بالانتخاب البشري، وذلك بالانتقال من الاعتماد الكلي على الصيد والجمع، إلى مرحلة إنتاج الطعام.

- الانتقال إلى إنتاج الطعام:

شاعت التلميحات في الكثير من الأدبيات التاريخية والأثارية بأن الشكل الأول للزراعة، وتدجين الحيوان قد بدأ أولاً في الشرق الأدنى في حدود 12.000 سنة مضت، ثم امتد نتيجة لانتقال معلومة أو تحرك سكاني غرباً عبر حوض البحر الأبيض المتوسط وعلى ذلك جرت المحاججة بين الباحثين بأن منتجي الطعام من الشرق الأدنى حملوا معهم حيواناتهم المدجنة وفخارياتهم، وأدواتهم النيوليثية[3]، واستقروا في شمال إفريقيا، بما في ذلك منطقة الأكاكوس وقد تبدو هذه الحجة منطقية، ولكن ثمة معطيات تشير إلى أن جماعات الصيادين الجامعين في الأكاكوس قد تعاملوا مع الخراف البربرية (والتي هي النوع الماعزي البري الوحيد في المنطقة)،

---

[1] Biagetti, Stefano. Ethnoarchaeology of the Kel Tadrart Tuareg: Pastoralism and Resilience in Central Sahara. Springer International Publishing, New York, 2014. P. 23.

[2] Mercuri, Anna Mari_ "Human influence, plant landscape evolution and climate inferences from the archaeobotanical records of the Wadi Teshuinat area (Libyan Sahara) ".Journal of Arid Environments, vol. 72, Issue 10, October 2008, pp. 1950 – 1951.

[3] Colledge, Sue. " Archaeobotanical Evidence for the Spread of Farming in the Eastern Mediterranean ". In Current Anthropology, vol. 45. August–October 2004 , pp. 35 – 56 **;** Beja-Pereira, Albano ; David Caramelli and others. " The origin of European cattle: Evidence from modern and ancient DNA ". In PNAS. 23 May 2006 . vol. 103 . no. 21 .pp. 8113 – 8118; Skoglund. Pontus and Malmström; Raghavan; Storå; Hall; Willerslev; Gilbert; Götherström; Jakobsson. " Origins and Genetic Legacy of Neolithic Farmers and Hunter-Gatherers in Europe". In SCIENCE, vol 336, 27 APRIL 2012,. P. 46.

ونجحوا في ترويضها وتدجينها، وبالتالي، يبدو أن هذه الحجة تحتاج إلى المزيد من المراجعة والتقييم، خاصة في ظل البينات التي تم اكتشافها مؤخرا[1].

طبقا للنتائج التي تم التحصل عليها من خلال تحليل الدنا الميتوكوندري (Mitochondrial DNA)؛ والكروموسوم Y (Y chromosome)، والتي تفيد بوجود هجرات بشرية للإنسان القديم من قارة إفريقيا نحو القارات الأخرى قبل حوالي مائتي ألف سنة من تاريخ اليوم (ويحتمل أنها قد تمت في وقت أقدم بكثير من هذا التاريخ)[2]. يمكن التأكيد على أن الانتقال إلى إنتاج الطعام قد ظهر بين جماعات الصيادين الجامعين المحليين الذين سكنوا الأكاكوس خلال فترة البليستوسين المتأخر وما قبله، أكثر من كونه نتاج هجرة نفذتها مجموعات نيوليثية قادمة من الشرق الأدنى أو من أوروبا. لقد كان سكان الأكاكوس في الهولوسين قادرين على

---

[1] على سبيل المثال تمكن علماء الوراثة عن طريق تحليل عينات من الدنا الميتوكندري (لثلاثة عشرة سلالة من الأبقار قادمة من آسيا وأوروبا وأفريقيا)، من التأكيد على أن كل السلالات المعاصرة تعود في أصولها إلى سلالات برية كانت تعيش في القارات الثلاثة في المرحلة التي سبقت الانتقال إلى انتاج الطعام. وبناءً عليه، يمكن القول بأن الأبقار التي قام الإنسان بتدجينها في منطقة الأكاكوس بشكل خاص، ومنطقة الصحراء الكبرى بشكل عام، ما هي الا صنف هجين من نوع بري كان يسرح في البراري في تلك الفترة. للمزيد من الإيضاحات حول هذا الموضوع راجع:

Bradley, Daniel with David Machugh; Patrick Cunningham; Ronan Loftus." Mitochondrial diversity and the origins of African and European cattle ". In PNAS, vol. 93, May 1996, pp. 5134-5135; Marshall, Fiona and Elisabeth Hildebrand. "Cattle Before Crops: The Beginnings of food Production in Africa ". In Journal of World Prehistory, vol. 16, no. 2, June 2002. P. 109.

[2] هذه النتائج شكلت نقطة الانطلاق نحو تبني البعض من علماء الأحافير؛ والباليوأنثربولوجيا؛ والجينات والوراثة لنظرية الخروج من أفريقيا (Out of Africa)، والتي تقول بأن الإنسان العاقل العاقل (Homo sapiens sapiens) كان قد ظهر في جماعة سليفة وحيدة كانت تعيش في أفريقيا، ثم خرج منها وهاجر إلى بقية أنحاء العالم قبل نحو مائتي ألف سنة مضت. هذا، وقد ظهرت عدة تفسيرات واتجاهات علمية معززة أو مضادة لهذه النظرية من أهمها نظرية الإحلال / الاستبدال، ونظرية تعدد الأقاليم، ونظرية الساعة الجزيئية، وحواء الأفريقية وغيرها. للمزيد من المعلومات أنظر:

Hammer, Michael. "Human Hybrids ". In Scientific American, vol. 308, no. 5. May 2013, pp. 70 – 71; Antón, Susan with Carl Swisher. "Early Dispersals of homo from Africa ". In Annual Review of Anthropology, vol. 33. Pp. 271 – 296 ; Underhill, P and G. Passarino; A. Lin; P. Shen; M. Mirazón Lahr; R. Foley; P. Oefner; L. Cavalli –Sforza." The phylogeography of Y chromosome binary haplotypes and the origins of modern human populations ". In Annals of Human Genetics, vol. 65. 2001. Pp. 43 – 62؛ Thorne, Alan with Milford Wolpoff. "The Multiregional Evolution of Humans ". In In Scientific American, vol. 266, no. 4. April 1992, pp. 46 – 53.

تكييف أنفسهم والاستمرار في ظروف البيئة المستجدة، وقد ارتبط ذلك مع ظهور ضروب جديدة من التقانات الملائمة لاستغلال الموارد الطبيعية المتوفرة.

إن مسألة التدجين ارتبطت بعلاقة تكافل بين الإنسان وبين أصناف معينة من العالمين النباتي، والحيواني، وهي في حد ذاتها جزء من عملية التفاعل الحيوي بين الإنسان وهذين العالمين[1]. إننا ننظر إليها بحسبانها نتاج لتراكم التغيرات المتواصلة في البينات الاقتصادية، والأيكولوجية، أكثر من كونها طفرة جينية أو حدثاً مفاجئاً، إنها بمثابة تعديل في السلوك الذي يربط الإنسان ومصادر الغذاء.

والسؤال هنا، لماذا أخذت جماعات الهولوسين في تدجين النباتات والحيوانات ؟. الإجابة هنا تكمن في العامل البيئي، فالبيئة هي الميكانيزم المسؤول عن هذا التغير[2]، نتيجة للتغير في البيئة أضحت جماعات الأكاكوس منتجة للغذاء، ساعية للتكيف مع الظروف البيئة الجديدة، وكذا من أجل إدارة الموارد الغذائية، وهي بالتالي أصبحت ذات ثقافة معقدة، تختلف اختلافاً كلياً عن مجموعات الصيادين – الجامعين للطعام، وهذا الاختلاف يتمثل في التغير في سلوك التقوت (إنتاج الطعام)، حيث اعتمدوا على أغذية متنوعة غنية بالسعرات الحرارية، وهذا التغير في تكنيك الحصول على الطعام أفضى إلى مزيد من التحولات في طريقة الإقامة؛ والتقاليد الخاصة بصناعة الأدوات.

اليوم، لقد صار معروفاً أنه لا يمكن دراسة ثقافة أي من المجموعات البشرية دون الرجوع إلى الخلفية البيئية، فالبيئة الطبيعية تحتل جانباً رئيساً في دراسة الثقافة، سيما وأن الكثير من الايكولوجيين الثقافويين يقولون بأن الإنسان هو وليد البيئة الطبيعية، إنها تؤثر باستمرار في جميع مراحل حياته[3]، ونقصد بالثقافة تحديد المجموعات الثقافية التي تسكن في هذا المجال (الصحراء الليبية)، والتي تعيش في تفاعل دائم مع البيئة الطبيعية، إن البيئة لا تؤثر في حياة الإنسان وحسب، بل إنها تلعب دوراً مهما في توزيع الموارد الطبيعية، والبشرية، الطبيعية وما

---

[1] Van der Veen, Marijke. “The materiality of plants: plant–people entanglements “. In World Archaeology, vol. 46, no. 5, 2014, p. 800 – 801.

[2] Mercuri, Anna Maria with Laura Sadori, Paloma Uzquiano Ollero. “Mediterranean and north- African cultural adaptations to mid-Holocene environmental and climatic changes “. In the Holocene, vol. 21n no. 1, MARCH 2010. Pp. 190- 191; Marshall, Fiona. Op.Cit. p. 101.

[3] Kuper, Rudolph and Stefan Kropelin. “Climate-Controlled Holocene Occupation in the Sahara: Motor of Africa’s Evolution “. In Science, vol. 313, 11 August 2006. P. 803; Mercuri, Anna Maria with Laura Sadori, Carlo Blasi. “Cultural landscapes of the past: Archaeobotany for cultural landscape and human impact reconstructions “. In Plant Biosystems, vol. 144, no. 4, December 2010, pp. 860–864.

تنطوي عليه من نباتات، وحيوانات، وتوزيع الموارد، والبشرية التي تدور حول أماكن الإقامة، وتوزيع السكان (الديموغرافيا)، حتى إن مواقع الإقامة ذاتها يتم تحديدها بواسطة البيئة.

كما أن الجماعات البشرية – التي تكون الثقافة – تعيش في تفاعل مستمر مع بعضها البعض، إن السلوك الناجم عن تفاعل الجماعات يمكن رؤيته من خلال عملية الصيد، وكذلك عملية الترسيب[1]، وديناميات ما بعد الترسيب التي يتعرض لها الموقع الأثري، تمدنا الأدوات والمخلفات بمعلومات مهمة حول سلوك الجماعات، وعلاقتهم بالبيئة المحيطة بهم.

وقد أكد فابيريزو موري (Mori. F) في سفره الأخير الرائع (الحضارات العظيمة للصحراء القديمة) على صحة هذه النتائج، بحيث قدم تحليلاً نموذجياً حول تلك المسائل، وتوصل إلى أن جماعات الأكاكوس قد وصلت إلى درجة كبيرة من الخبرة والوعي ببيئتها المحيطة بها، ومن ثم تمكنوا من تكييف حياتهم لمواجهة تحديات البيئة القاسية، ويحاجج موري بأن إنتاج الطعام جاء كنتيجة لخبرات الإنسان المتراكمة من خلال تفاعله مع البيئة[2]. فضلاً على ذلك، أسهمت أعمال سافينو دي ليرينا (Di Lemia. S)، وإلينا غارسيا (Elena Garcea)، وماريو كريماشي (Mauro Cremasch) في إعطائنا صورة بانورامية مفصلة للكيفية التي تم بها التفاعل بين البيئة والثقافة، والنتائج الأيكولوجية والاقتصادية التي نجمت عنه.

وإلى جانب العامل البيئي، ثمة عامل آخر مهم وحاسم، وهو العامل البيولوجي، فإنتاج الطعام كان نتيجة لانتقاء / انتخاب طبيعي يعمل على زيادة الجودة الغذائية، وكفاءة البحث عن الطعام إلى أقصى حد. لقد وظف الطعام في الأساس لصالح العمليات البيولوجية للإنسان[3]، وكان له نتائجه الإيجابية، خاصة فيما يتعلق بتوفير الطاقة، فدينمية الطاقة (Energy Dynamic) بين الإنسان والبيئة المحيطة به أي معدل التكلفة بين الطاقة المصروفة بالنسبة إلى الطاقة المكتسبة، لها انعكاسات تكيفية على البُقْيا (Survival) من جانب، والتكاثر من

---

[1] Marlowe , Frank . W. "Hunter-Gatherers and Human Evolution ". In Evolutionary Anthropology, no. 14, 2005, pp. 55 – 56.

[2] حقيقة، أن النتائج الأكثر تجلياً في الفضاء الاجتماعي – الاقتصادي تكمن وبحسب رؤية موري لا في التدجين في حد ذاته، بل في الأفكار القابعة في أساسه، في الرؤية الكونية التي أفضت إلى حدوثه، والتي تطور عنها، وفي مجموعة المفاهيم التي كانت منبعاً لطريقة تجربة حياتية مختلفة ومحيطات الفرد الطبيعية. ما حصل هو نتيجة لتفاعل عقل الإنسان مع التقنيات بالتزامن = مع ذلك التأثير الذي مارسته البيئة الطبيعية، فالإنسان / المراقب يسعى دوماً إلى تغيير سلوكه نحو مستويات أعلى، وذلك بإحاطة نفسه بهالة من الأشياء تكون بمثابة حقل طاقوى، وهذه الهالة يمكن تتبعها وقياسها من خلال الفن الصخري في الأكاكوس عبر أدواره وتواتراته الكرنولوجية وموضوعاته المختلفة. أنظر: Mori, F. Op. Cit. pp. 31 – 42

[3] Leonard, William, "Food for Thought". In Scientific American, Vol. 287, no. 6, December 2002, p. 65.

جانب ثان، ثمة انعكاسات مهمة على الطريقة التي توزع بها ميزانية الطاقة لدى الإنسان، الأمر يتعلق بطاقة الصيانة (Maintenance Enregy) التي تُبقي الإنسان حياً على أساس يومي، وطاقة التكاثر (Reproduction Energy) التي تكفل بقاء وامتداد النسل، ومن ثم فإن إنتاج الطعام أسهم في خلق التوازن بين هاتين الطاقتين[1].

وبما أن نمط / طبيعة البيئة المحيطة تؤثر بشكل مباشر في توزيع الطاقة بين هذين المكونين، فإن متطلبات طاقة الصيانة قد ترتفع معدلاتها خاصة في ظل المناخات الجافة، فبيئة الأكاكوس، وبخاصة في الهولوسين الأوسط، قدمت مثالاً واضحاً على ذلك، حيث أنصب اهتمام مجموعات الصيادين الجامعين – وفي ظل ظروف بيئة متغيرة –، إلى التحول نحو أشكال أكثر إنتاجية، وإدارة الموارد الحيوانية والنباتية[2].

في هذا الإطار، أشارت الأدبيات التاريخية، والأثارية والباليوأنثربولوجية إلى ظهور أنظمة إقامة نيوليتية رعوية في الهولوسين الأوسط، استندت على قاعدة إعاشة متنوعة اشتملت على الاستغلال المنظم والمكثف للنباتات، وتربية الماعز والخراف والأبقار، وصيد الأسماك[3]. تم الكشف عن بينة احتوت على مجموعة من التقنيات الميكروليتية، مثل: المثاقب، والمقاشط، والأواني فخارية، ومن التقنيات المميزة التي كشف عنها الفؤوس المسطحة، أو الأسطوانية الشكل[4].

لقد أشارت أعمال المسح الميداني حول المواقع الرعوية في الأكاكوس تواترات راديوكربونية جيدة حول طريقة التكيف مع ظروف البيئة السائدة في تلك الفترة، ففي الوديان كما هو الحال في السقائف الصخرية ظهرت أنظمة إعاشة متنوعة اشتملت على الاستغلال المنظم والمكثف للنباتات، ورعي الأبقار، والماعز والخراف، وصيد الأسماك. لقد تم التعرف على أنشطة للرعي على مدار السنة ما بين الفصل الرطب والجاف، وتعرفنا أيضاً على تحركات موسمية لمجموعات بشرية مسلحة بتقنيات ايبي باليوليتية، وأخرى نيوليثية ذات سمات تقنية ومظاهر ثقافية مختلفة.

البينات الثقافية الأكثر تكاملاً وروعة، والدالة على الانتقال إلى مرحلة إنتاج الطعام والتعقد الثقافي المصاحب له، جاءت من ثلاثة سقائف / مواقع رئيسة في سلسلة الأكاكوس وهي: تين طرة (Ti-n- Torha) ؛ وان موهجاج (Uan Muhuggiag)؛ ووان أفودا.

---

[1] Ibid. pp. 65 – 66.
[2] Dunne, Julie. Op. Cit. P.121.
[3] Van der Veen, Marijke. "Ancient Agriculture in Libya: A Review of the Evidence ". In Acta Palaeobot, vol. 35, no. 1.1995. p. 89; Biagetti, Stefano. Op. Cit. p. 18.
[4] Van der Veen. Ibid. Cit. p. 90.

عملية الانتقال من الاقتصاد الاستحواذي إلى الاقتصاد الإنتاجي تم التعرف عليها بشكل واضح في موقع تين طرة، حيث مثلت سقائفها الأساسية الثلاثة الأفق الأكثر قدماً للصيادين الجامعين الذين فضلوا الاستقرار في المنحدر الشرقي للأكاكوس. والمنحدر الشرقي هذا، هو عبارة عن موقع استراتيجي بالنسبة للوديان التي تحتوي على تمركز كل المياه، والنباتات، والحيوانات.

تم بفضل التقنيات الراديوكاربونية، والراديومترية تثبيت كرنولوجية مطلقة متمايزة ومتباعدة لبداية الإقامة البشرية في السقائف الثلاثة: تم تثبيت موقع تين طرة الكهفان بكرنولوجية راديومترية تعود إلى حوالي 9350±110 سنة مضت، وتين طره شرق بتأريخ يعود إلى 9080±70 سنة مضت، وتين طره شمال في 5970±50 سنة مضت.

من وجهة نظر بيوحيوية، فقد وفر موقع تين طرة على الجانب الشرقي للأكاكوس، شروطاً بيئية ملائمة للجامعيين وصائدي الأسماك، الذين أظهروا مقدرة عالية على التكيف، والانتظام والانتشار في الوسط الطبيعي[1]، مع الاحتفاظ بنمط إقامة ثابت وناجح، انتظم وتطور في نسق مستمر وتصاعدي إلى أن وصل إلى نمط الاقتصاد الإنتاجي والذي تمثل في الشكل الرعوي.

في اعتقادي أن باربار باريش قد كانت محقة عندما وصفت موقع تين طرة بالقرية الصغيرة[2]، فقد احتوت على بيوت أولية صنعت من الكتل الحجرية المحلية. بيد أن تراكم المواد الخام والتقنيات، وترسيب مواد عضوية نباتية وحيوانية داخل السقائف الثلاثة هي مؤشرات جلية على التحول إلى نمط الإقامة المستقرة.

وقد أكد تحليل الرواسب، والمواد العضوية أيضاً إلى أن موقع تين طرة كان قد شهد ازدهارا للحياة النباتية والحيوانية، صاحبة استغلال مكثف من جانب سكان أظهروا حراكاً، وتكيفاً مثالياً مع ظروف البيئة المحيطة بهم، أشارت دراسة أطياف حبوب اللقاح إلى وجود عدة أصناف من النبات ضمن مستويات الإقامة داخل تين طرة، بلغت حوالي خمس عشرة صنفاً، عشرة منها في المستويات السفلي التي تعود إلى نحو 7070 سنة مضت، وخمسة منها في الطبقة الأعلى، مع ملاحظة سيادة لنباتات الصمغ العربي – الحشائش (Acacia-Panicum) أو الطرفاء – السويقة (Tamarix-Stipagrostis)[3]، وهي نباتات، تشير إلى وجود بيئة مفتوحة وخصبة

---

[1] Barker. G.W. " From Classification to Interpretation: Libyan Prehistory, 1969 – 1989 ". In Libyan Studies.1989. Vol. 20. P. 36.

[2] Barich, Barbara. “Hunter-Gatherer-Fishers of the Sahara and the Sahel 12,000 – 4000 years ago“. In the Oxford handbook of African Archaeology, Oxford, Oxford University Press, 2013. Pp. 451 – 452.

[3] Van der Veen, Marijke. “Ancient Agriculture in Libya:..”. Op.Cit. p. 87.

مكنت الصيادين الجامعين من الإقامة، كما وجدت مؤشرات دالة على إقامة رعوية بداية من حوالي 5970 ± 100 سنة مضت، تشمل بقايا أبقار وماعز وخراف.

كما أظهرت الدراسات الأركوزولوجية، أنهم مارسوا صيد الخراف البربرية، والطيور، كما استخدموا فخاراً مزين بخطوط متموجة، ومتعرجة[1]. في حين دلت أحجار الطحن على ظهور طرق متخصصة في معالجة الحبوب، وتحويلها إلى مواد غذائية سهلة الهضم[2]. كما استخدمت أحجار الطحن هذه أيضاً، في سحق المغرة (أكسيد الحديد)، والفواكه، وغيرها من مواد التلوين الأخرى التي استخدمت في الرسوم الصخرية[3].

وبالانتقال إلى موقع وان موهجاج، يلاحظ أن البينات الثقافية القادمة منه تتشابه إلى حد بعيد مع تلك التي كشف عنها في تين طرة[4]، وهذا يدل على وجود امتداد ثقافي وأثني بين الجماعات التي أقامت فيهما، ثمة تقارب في أنواع الأدوات الحجرية، وطرق صناعتها، وكذلك في تقاسم الاستراتيجيات الاقتصادية.

يقع وان موهجاج في وادي تشوينت (Wadi Teshuinat)[5] ، وهو مجرى مياه فصلي رئيس محاذ للسلسة الجبلية، تبدأ مرحلة الاقامة البشرية في هذا الموقع من حوالي 8650 ± 100 سنة مضت، لقد أشار البحث البيدولوجي والنباتي، والحيواني حول ستراتيجرافية وان

---

[1] Di Lernia, Savino. “Why Uan Afuda? The “pre-pastoral” archaeology of the Acacus and surroundings “. In The Uan Afuda cave: hunter-gatherer Societies Central Sahara. Edizioni All’Insegna del Giglio, Firenze, 1999. PP. 4 – 5; Barich, Barbara. Op. Cit. p. 453.

[2] Barker, G. W. Op. Cit. pp. 36 – 37.

[3] Van der Veen, Marijke. “Ancient Agriculture in Libya:..”. Op.Cit. p. 89.

[4] Dunne, Julie. Op. Cit. 123; Dietzel, Martin. Op. Cit. pp. 38 – 39.

[5] يمثل تشوينت وادياً كبيراً محفوفاً بعدد من السقائف الصخرية أو الفجوات الأفقية في صخور من الحجر الرملي، تمتع الوادي بعدد من الخصائص المورفولوجية: مناخات محلية بدرجة رطوبة مناخية أعلى، وهطول أمطار محلية، قاد ذلك إلى تمركز أعلى لمصادر المياه الجوفية، مع نمو كثيف لأصناف كثيرة من النباتات البرية، والتي جعلت منه في أزمان ما قبل التاريخ فضاء طبيعي تتواتر عليه مرة بعد الأخرى مجموعات رعوية أتبعت نمط إقامة قصير أو طويل المدى، وتركت أثار دالة على نشاط بشري متعدد الاختصاصات: أدوات حجرية متنوعة، مواقد، ورسوم صخرية رائعة، ذات مضامين مختلفة، وطبقات سكنية في مستويات صغيرة وغير سميكة. شكل هذا الوادي القاعدة الرئيسة التي انطلقت منها أعمال الاستكشاف التي قامت بها البعثة الليبية – الإيطالية لأبحاث الصحراء في سلسلة الاكاكوس والوديان المحيطة بها بإشراف عالم الأثار فابريزيو موري.

Cremasch, Mauro. “The calcareous tufa in the Tadrart Acacus Mt…”. Op. Cit. pp. 83 – 85; Biagetti, Stefano. Op. Cit. p. 24.

موهجاج إلى تثبيت رعي الحيوانات في حوالي 7400 سنة مضت[1]، كما مارس الأهالي نمطاً ديناميكياً متحركاً للحياة، حيث كانوا يتحركون بحسب المواسم فيما بين الملجأ في الكهف، وفي السهول المحيطة.

كما اعتمدوا في غذائهم على جمع النباتات البرية والحبوب، وهو ما أشار إليه التحليل الكيميائي للترسبات التي تراكمت داخل الكهف. حيث أظهرت البقايا المتفحمة للنباتات وجود حوالي 28 صنف، عشرون منها في الطبقات السفلى من الإقامة، والثمانية الأخرى وجدت في المستويات العليا، وهي عبارة عن خليط من النجيليات ونبات البنيسوتوم، والذرة السكرية مع أنواع من الحنطة[2]. إلى جانب ذلك، ثمة استغلال مكثف لأعشاب البرك (التيفا) والتي استخدمت غالباً كعلف للحيوانات. كما وجدت كذلك كميات وفيرة من فحم الطرفاء، مع نوع آخر من فصيلة الأوزيات، وهذا التراكمات الكثيفة تشير ولا شك إلى التحول من نمط الإقامة الموسمية القصيرة، إلى نمط إقامة لفترات أطول[3].

سادت بقايا روث وعظام الأبقار والماعز والخراف المدجنة في كل العينات الحيوانية التي تم جمعها، وهي تشير إلى ظهور إقامة رعوية تعتمد على هذه الأصناف من الحيوانات في إنتاج الطعام، لقد شكلت الأبقار المصدر الرئيس للبروتين وللدهون التي كان الأهالي يحتاجونها[4]. في حين مثلت قطعان الماعز والخراف أهمية لا يستهان بها بالنسبة للرعاة فقد ضمنوا من خلالها الحصول على إمداد منتظم باللحم؛ والدم والحليب، ومن جانب ثان، تشير بعض عظام الحيوانات البرية التي تراكمت ضمن مستويات الإقامة في هذا الموقع والتي تعود إلى الغزال والأرنب؛ والطيور وكذا الأسماك إلى استمرار نشاط الصيد والقنص ضمن استراتيجيات الإعاشة في وان موهجاج[5].

هذا، وقد تم الكشف عن أدوات حجرية متنوعة صنعت كلها من الحجر الرملي، مثل المسننة؛ ومكاشط جانبية؛ وأحجار الطحن، وأدوات التمليس. ويلاحظ أن الفوؤس اليدوية كانت هي الأكثر شيوعا وتواجدا ضمن الطبقات العليا في وان موهجاج[6]، كما كشف على بعض من

---

[1] Di Lernia, Savino. "A Cover Story for a Nature cover: milking in the prehistoric 'Green Sahara' ".In Journal of Anthropological Sciences, Vol. 91 (2013), pp. 7- 8 ; Mori, Fabrizio. Op. Cit. p. 157.

[2] Van der Veen, Marijke. "Ancient Agriculture in Libya: Op. Cit. p. 89.

[3] Ibid. p. 90.

[4] Dunne, Julie. Op. Cit. 126 – 127.

[5] Van der Veen. . "Ancient Agriculture in Libya:.." Op.Cit. p. 87; Dunne, Julie. Op. Cit. 121.

[6] Garcea, Elena . "New investigations in the Tadrart Acacus, Libyan Sahara ". In NYAME AKUMA. no, 44, December 1995. P. 35.

المواقد الصغيرة ضمن الطبقات السفلى، وكذلك الكثير من السلال التي صنعت من الألياف النباتية[1].

إن وجود السلال والتي يبدو أن استخدامها قد ارتبط بوظائف مختلفة – في جمع النباتات والحبوب، وتخزينها –، يشير بلا ريب إلى ممارسة السكان لبعض الصناعات اليدوية، والتي قدمت لهم الكثير من التسهيلات في القيام بأعمالهم المرتبطة بحياتهم اليومية.

إن صناعة السلال لم تكن مهمة سهلة ، بل كانت مهمة صعبة وشاقة، بحيث تركت آثارها الواضحة على عظام الهياكل والأسنان، لقد أشار التحليل المخبري الذي أجرته البعثة الليبية – الإيطالية المشتركة للبحث في مواقع الإقامة البشرية في ما قبل التاريخ في تادرارت الأكاكوس، لعينات من الأسنان تعود لهيكل عظمي لأحد الذكور البالغين الذي تم الكشف عنه في وان موهجاج يعود تأريخه إلى نحو 7800 سنة مضت[2]، إلى أن ثمة تآكل / احتكاك في تلك الأسنان ناجم عن استعمالها في أعمال متعددة، ويبدو أن الأسنان قد استخدمت في مضغ سوق النباتات ليكونوا منها خيوطا ليفية، والتي كان تصنع منها السلال، أو الحبال، أو ربما لأغراض أخرى تتعلق بالصيد، لقد لوحظ أن سكان أستراليا الأصليين كانوا يستخدمون الشفة العليا والشفة السفلى، مع الأسنان الأمامية لسحب الألياف النباتية، وذلك لغرض صنع الكمائن المخصصة لقنص حيوان الكنغر[3].

يمكن للمرء من خلال المعطيات الأثارية التي تم الكشف عنها في الأفق الثقافي لتين طرة ووان موهجاج، أن يلاحظ الآتي:

إن التقنيات الحجرية والمصنوعات الفخارية تكشف عن تفصيلات تتعلق بالحياة اليومية لسكان الكهفين، وبالتالي لحياة مجتمعات نيوليثية تحول أفرادها من حياة الصيد والجمع والترحال، إلى حياة تعتمد على الرعي. ويكمن لنا ملاحظة أن تواتر التقنيات الحجرية والفخارية في وان موهجاج هو امتداد لتواتر تين طرة، مع ظهور بعض التعديلات البسيطة، خاصة على مستوى صناعة الفخار وتزيينه. كما يلاحظ أيضا أن نسبة عظام الأبقار قد انخفضت في ترسبات الكهفين بداية من الألفية الرابعة ق.م ، وزادت معدلات عظام الخراف والماعز، إلا أنه ومع بداية الألفية الثالثة ق.م كانت عظام الماعز هي الأكثر تمثيلاً في السجل الأثاري[4].

---

[1] Di Lernia, ‘‘African Cattle Complex’’: Animal Burials in the…”. Op. Cit. pp. 8 – 9.

[2] Minozzi, Simona and Giorgio Manzi, Francesca Ricci, Savino di Lernia, Silvana M, Borgognini Tarli. “Nonalimentary Tooth Use in Prehistory: An Example From Early Holocene in Central Sahara (Uan Muhuggiag, Tadrart Acacus, Libya). InAmerican Journal of Physical Anthropology, no. 120, 2003, pp. 228 – 229.

[3] Ibid. p. 228.

[4] Di Lernia , Savino with Mary Anne Tafuri, Marina Gallinaro, Francesca Alhaique, Marie Balasse, Lucia Cavorsi, Paul Fullagar, Anna Maria Mercuri, Andrea Monaco, Alessandro Perego, Andrea Zerboni. “Inside the ‘‘African Cattle

عمليات مشابهة للتكيف الإنساني تم تتبيثها في هضبة مساك تسافنت خلال الدور الرعوي الأوسط[1]، حيث تم الكشف على تقنيات حجرية ضمت الأنصال، وفؤوس حجرية وفخاريات، كما تم العثور على بضعة مواقد لأعداد الطعام[2]. البينة المكتشفة دلت أيضاً على استمرار الجماعات في ممارسة نشاط الصيد سيما صيد الأرنب البري، والغزال.

إلى جانب ذلك، قدم كهف وان أفودا الواقع في وادي كيسان (Wadi Kessan)، سلسلة من المسارات الثقافية المنحنية والمتعاقبة التي تكونت بفعل مجموعات الصيادين ذوي الثقافة العاترية، وأصحاب الإقامة الهولينيسية المبكرة ذات التقاليد الأيبي باليوليتية، وأخيراً أصحاب النمط الاقتصادي المعتمد على الرعاوة[3]. وقد أصبح، في شبه المؤكد، وبناءا على المعلومات المتراكمة من أعمال التنقيب الأثاري، إن كهف وان فودا مثّل حالة فريدة من نوعها، بالنسبة لتنامي ظاهرة التعقد الثقافي عند جماعات الأكاكوس[4].

أشارت البينة الأثارية في وان أفودا إلى ظهور صناعة الأنصال الحجرية، والأنصل المدببة من الأحجار الرملية[5]. وخلال الهولوسين الأوسط اعتمد سكان وان أفودا على استراتيجية غذائية متخصصة في العناية بالخراف البربرية من نوع أموتراجوس ليرفيا (Ammotragus lervia)، والتي نجحوا في ترويضها والاحتفاظ بها في داخل الكهف[6].

وقد أكدت دراسة حديثة أجرتها آنا ماريا للترسبات النباتية وحبوب اللقاح إلى أن سكان وان افودا قد استغلوا طيف واسع من النباتات والأعشاب التي تم جمعها خلال أواخر الشتاء، وبداية الربيع[7]، وقد أستخدمت فيما يبدو في عدة أغراض مختلفة، للطعام وللفرش، والبناء، وصناعة بعض الأدوات الخشبية، والسلال والحبال. تستخدم أطياف حبوب اللقاح عادة، كعلامات أثنو نباتية (Ethnobotanial) يستدل من خلالها على السلوك البشري، وعلى النشاط القائم على حصد النباتات والحبوب وتخزينها، أو استخدامها كعلف لإطعام الحيوانات.

Complex’’: Animal Burials inthe Holocene Central Sahara “. In PLOS ONE, vol. 8, issue 2, February 2013. p. 3.

[1] Anag, Giuma. Op. Cit. p. 69.

[2] Di Lernia, Savino. ‘‘African Cattle Complex’’:..”. Ibid. pp. 8 – 10.

[3] Di Lernia, Savino. “Taming Barbary sheep..”. Op. Cit. p. 45; Mori, F. Op. Cit. p. 71.

[4] Di Lernia, Savino. “Why Uan Afuda?..” Op. Cit. p. pp. 7 – 8.

[5] Di Lernia, Savino. "Dismantling Dung: Delayed”. Op. Cit. p. 408. ; Mori, F. Op. Cit. p. 72.

[6] Di Lernia, Savino. “Taming Barbary sheep:..”. Op. Cit. pp. 49 - 50.; Mori, F. Ibid. p. 72.

[7] Mercuri, Anna Maria. “Plant exploitation and ethnopalynological evidence from the Wadi Teshuinat area (Tadrart Acacus, Libyan Sahara)”. Journal of Archaeological Science, no. 35, (2008), pp. 1619 – 1620.

وفي الوقت الذي أشارت فيه حبوب اللقاح إلى وجود بيئة مفتوحة ومتنوعة، وتواترت / مراحل ثقافية مختلفة، يحاجج البعض من الباحثين بأن مجموعات وان أفودا قد استخدمت النباتات في تنفيذ أغراض أخرى غير إنتاج الطعام. فالنباتات ربما شكلت جزءاً مركزياً في طقوس الرعاة، فقد استخدمت كنذر للقوى الغيبية، لقد لاحظ الناس أن البعض من النباتات تحوي كمية من السموم، تؤثر بشكل سلبي في جسم الإنسان عندما يقتات بها، في حين أظهرت الحيوانات المدجنة مناعة ومقاومة لتلك السموم، وبالتالي أعتقد الناس بوجود قوة سحرية في تلك النباتات، فتعاملوا معها على كونها وسيط بينهم وبين القوى الروحية الخفية التي كان يعتقد بوجودها في ذلك الوقت[1].

كما أن الوجود المكثف لأحجار الطحن ضمن مستويات الإقامة في الكهف، يقودنا إلى الاستنتاج، بأن هناك زيادة كبيرة في معدلات جمع النباتات والحبوب البرية من جانب سكان الكهف، وهي لم تكن مخصصة للاستهلاك البشري وحسب، بل أيضا لإطعام الخراف البربرية التي تم وضعها في حظائر داخل الكهف[2].

تثير درجة استغلال العديد من أصناف النباتات والحبوب أسئلة مهمة حول هل كانت برية أو مدجنة؟، في الواقع، تعطي الدرجة العالية من المعرفة بالمنظر الطبيعي للنباتات المحلية التي توصل إليها سكان كهف وان أفودا مفتاح الحل لهذا السؤال، لقد أشار تحليل حبوب اللقاح إلى وجود نوع من الاصطفاء بين الحشائش والحبوب الصالحة للأكل المتوفرة في المنطقة خاصة أنواع من الفيكوس سالسفوليا (Ficus salicifolia) والبانيكوم، ويظهر أنه قد تم الاعتناء بها أيضاً[3].

كما دل البحث الباليونتولوجي لكهف وان أفودا إلى تراكم العلف والروث الحيواني، وهذا يشير إلى أن الناس قد قاموا بتبني استراتيجية للإعاشة قائمة على إدارة مصادر الغذاء بحيث تمت السيطرة عليها والاستفادة منها لا سيما في وقت الأزمات، وكذلك عندما تتقلص فرص الصيد بسبب الجفاف أو هجرة الحيوانات إلى مناطق أخرى[4]. هذه العمليات وكما يقول سافينو دي ليرنيا قد مكنت الناس من إقامة مشاريع صغيرة أو متوسطة، وبالتالي فإنهم انتقلوا من حالة الاعتماد على البيئة، إلى حالة فعلية لتنظيم الموارد وانتاجها[5].

---

[1] Ibid. p. 1639.
[2] Di Lernia, Savino. "Dismantling Dung: Delayed…". Op. Cit. p 427.
[3] Mercuri, Anna Maria. "Plant exploitation and ethnopalynological …". Op. Cit. p. 1639; Di Lernia, Savino. "Taming Barbary sheep:..". Op. Cit. p. 49.
[4] Di Lernia, Savino. "Dismantling Dung: Delayed". Op. Cit. p. 434.
[5] Ibid. p. 427.

هنا، لابد وأن نظهر اتفاقنا مع ما دلل عليه سافينو دي ليرينا من أن الانتقال إلى جمع الطعام وإدارة المصادر الغذائية، لم يأت هكذا بمحض الصدفة، بل جاء بناءً على نشاط متعمد من جانب سكان وان أفودا، نتيجة نمو حجم المستوطنة، وتزايد عدد أفرادها، الأمر الذي حتم عليهم التفكير في إعادة تنظيم الموارد الاقتصادية المتاحة[1]. وفقا لذلك، يمكن أن نخلص إلى أن إنتاج الطعام بوصفه نتيجة دينامية تكيفية أفرزها استغلال اصطفائي طويل الأمد، مارسه الانسان، نتيجة خبراته المتراكمة على البيئة.

بصورة أكثر عمومية، قاد عدم الاستقرار في وفرة الموارد في بيئة الأكاكوس بخاصة مع بداية الهولوسين المتأخر، بسبب التبدل في الظروف البيئة ما بين فصل جاف وآخر رطب، إلى ظهور نزعة / حافز نحو التفكير في ضمان إشباع الاحتياجات الضرورية من المواد النباتية بشكل أساسي. ويمكن لنا، أن نحدد من بين تلك الاستجابات الحتمية ظهور تقنية تخزين الطعام وإعداده، والتي عبر عنها وجود الكثير من الحاويات الفخارية، والمواقد، بالنسبة للحاويات فربما قد استخدمت في حفظ الحبوب البرية، والاستفادة منها في وقت الحاجة. ويبدو أن هذه الحاويات قد استخدمت أيضا إلى جانب المواقد في طبخ النباتات البرية بقصد طرد السموم منها، وزيادة إنتاجيتها وقابلية هضمها، والاستفادة من محتواها الغذائي. يجادل ب. رانكهام بأن طبخ الطعام قد حسّن كثيراً من جودة الغذاء البشري، فالطبخ لا يجعل الأطعمة النباتية أكثر طراوة وأسهل مضغا فحسب، بل يجعلها تعطي مقداراً أكبر من السعرات الحرارية[2].

علاوة على ذلك، فقد استخدمت الحاويات والأواني الفخارية في إنتاج بعض المواد الغذائية المستخرجة من الحليب الذي تم الحصول عليه من المواشي التي تم تدجينها داخل الكهوف ومواقع الإقامة البشرية في الأكاكوس. فقد أكد التحليل الكيميائي الذي أجرته داني جولي (Dunne Julie) وفريقها، لبعض بقايا الحاويات والأواني على وجود كميات من الأحماض الذهنية الناتجة عن حفظ الحليب[3]. وتوصل الفريق إلى نتيجة مفادها: أن الحليب والمنتجات الثانوية الأخرى المرتبطة به، مثلت دوراً محورياً في النظام الغذائي للمجتمعات الصحراوية بداية من الهولوسين الأوسط. ومن ثم، يمكن التأكيد على أن جماعات الهولوسين قد وصلت إلى مرحلة متقدمة من المعرفة، مكنتها من ابتداع طرق مبتكرة لحفظ الحليب، وإنتاج الدهون وغيرها من مشتقات الألبان[4].

---

[1] Ibid. p. 435.
[2] Leonard, William. Op. Cit. p. 68.
[3] Dunne, Julie. Op. Cit. pp. 124 – 125.
[4] Ibid. pp. 125 – 126.

بالإضافة إلى كل ذلك، تم التعرف على مجموعة من المواقع احتوت على الكثير من النصب الحجرية، والتي استخدمت فيما يبدو للذبح، والسلخ، والدفن[1]. ولا يستبعد أن هذه المواقع قد استخدمت في الأساس كفضاء للقيام ببعض الطقوس الجنائزية المرتبطة بأنشطة الرعي، فالمواشي، والحيوانات ذات الحوافر، وبخاصة الأبقار، قد تجاوزت وظيفتها كمصدر للغذاء، وأضحت ذات قيمة اجتماعية وميتافيزيقة بالنسبة للرعاة ، لقد أشار سافينوا دي ليرينا وزملاؤه إلى أن العديد من عظام الحيوانات، والأدوات الحجرية، والأواني الفخارية (التي تم الكشف عنها في داخل تلك المواقع)، كانت في حالة ارتباط في واقع الحال مع رسوم صخرية تمثل أبقار وخراف[2]، وهذه الرسوم، قد احتوت على تصوير رمزي لمنظر احتفالي طقوسي بالغ التعقيد، شمل القيام بعمليات ذبح وسلخ، وربما تكسير لعظام الحيوانات بغية الحصول على نخاعها[3].

بناءً على ما تم عرضه من معلومات، يمكن لنا القول بأن جماعات كهف وان أفودا قد تطورت على نحو لا يعولون فيه على غذاء واحد في هذه الحقبة، بل صاروا على قدر كبير من المرونة في اختيار طعامهم. ويبدو أن هذا السلوك المتطور قد ارتبط بزيادة عدد السكان في كل مواقع الإقامة البشرية في الأكاكوس، فازدياد عدد السكان يوجه ضغطا أكبر على الموارد الطبيعية المتوفرة في المنطقة، وهذا الأمر قد أجبر السكان على ابتكار طرق تتسم بذكاء أعلى لتأمين الغذاء، وتوفير كل المواد اللازمة لصناعة التجهيزات التقنية[4].

تشير مقارنات تيبولوجية إلى وجود تشابه كلي بين مجاميع الأدوات الحجرية بين كهف وان أفودا، وكهف وان تابو (Uan Tabu)[5]، وتمتد نقاط التشابه وتتسع لتشمل كذلك نمط الإقامة المترابطة التنظيم؛ والحركية العالية في المحيط الجغرافي، والبيئي، ودرجة التشابه هذه تجعلنا ننظر إليهم على اعتبارهم متكافئات / معادلات بيئية (Ecological Equivalent)[6]، ذات هوية ثقافية واحدة.

ومما يسترعي انتباه المرء هو وجود تشابه بين أنظمة الإقامة الآنفة الذكر، مع مثيلاتها التي قامت في الإقليم الساحلي لليبيا سواءً من ناحية تأثرها بالبيئة، أو من خلال محتوياتها

---

[1] Barker. G.W. Op. Cit. p. 37.

[2] Di Lernia , Savino. “Inside the ‘‘African Cattle Complex’’: Animal Burials.. “. Op. Cit. p. 11 – 13.

[3] Di Lernia, Savino. Ibid. pp. 23 – 25.

[4] Wong, Kate. “The Morning of the Modern Mind “. In Scientific American, vol. 16, no. 2. 2006. P. 81.

[5] Mori, Fabrizio. Op. Cit. p.73; Barich, Barbara. Op. Cit. pp. 452 - 453; Garcea, Elena. Op. Cit. p. 36.

[6] متكافئات (معادلات) بيئية: يستخدم هذا المصطلح البيولوجي في إشارة إلى أحد النوعين الذين انبثقا عن النوع نفسه، وتطورا في محيط بيئي مشابه، ويمتلكان الصفات التكيفية نفسها.

الطبقية وترسباتها. فالبينة الآتية من كهف هوا أفطيح مثلاً تعطي مؤشرات مهمة على ظهور تواترات لبينات كانت أكثر تكيفاً مع ظروف الهولوسين المتأخر القاسية، فقد تم الكشف عن بينة دالة على ممارسة رعي حيوانات محلية كالضأن، والماعز[1]. ومثلما هو الشأن بالنسبة لموقع وان أفودا، شكلت ستراتيجرافية هوا أفطيح حالة فريدة من نوعها، إذا مكنت المجسات العميقة من التعرف على تواتر تفصيلي للبينات الممتدة من فترة البالوليثيى الأوسط حتى فترة النيوليثي، وفوق ذلك، كشف في هوا أفطيح عن أكثر تعاقب مكتمل لصناعات البليستوسين الأعلى معروف في أي جزء من شمال أفريقيا[2].

نلاحظ أيضاً، أن أنظمة الإعاشة وتقنياتها في كل من وان موهجاج، وكذا تين طرة، والأمر عينه ينطبق على وان أفودا، كانت تعتمد على تقلبات البيئة القديمة. فقد كان تأثير توزيع الموارد (الماء، والحيوانات، والنباتات) خلال الأطوار الأكثر رطوبة، وتلك المتسمة بالجفاف مهماً، بل وحاسماً، في تحديد قرارات الجماعات الصحراوية تجاه أنفسهم، وتجاه قطعانهم. ورغم أنه قد تم تبنى نظام الرعاة كلياً كنمط للإعاشة عند جماعات الأكاكوس، إلا أنه لم يتم الإقلاع أبداً أو الاستغناء عن الاستغلال المكثف للنباتات البرية. وفيما يبدو، فإن الاهتمام المتزايد برعي الضأن والماعز على حساب الأبقار والجواميس في الألفيتين الرابعة والثالثة ق.م، وجد توثيقاً جيداً في تلك المواقع ومادتها، وهو أمر لا يثير الدهشة، لا سيما إذا علمنا أن الضأن والماعز هي من أكثر الحيوانات المدجنة القادرة على التكيف مع الظروف الصحراوية[3].

فرضية أساسية يمكن طرحها في هذا المقام، تكمن في أن الجفاف الذي بدأ يدب في المنطقة قبل نحو 5000 عام من تاريخ اليوم، وتم ثبيته في حوالي 2000 سنة مضت، كان قد فرض قيود صارمة على خيارات الأفراد وقرارتهم، لقد قام الناس ونتيجة لضغوطات البيئة الناشئة بادخال تعديلات على نمط حياتهم، بحيث أصبح نمط التنقل / الترحال الموسمي من مكان إلى آخر ضرورة من ضروريات الحياة في ذلك الوقت.

اللافت للانتباه أن هذه الفرضية تجد ما يدعمها في السجل الأثاري، فقد دللت ماري آن تافوري (Mary Tafuri) وزملاؤها – على سبيل المثال[4]، على الكيفية التي اتبعتها جماعات الهولوسين في الصحراء الليبية في تحركاتها الموسمية ابتداءً من مرحلة الأكاكوس المبكر حتى

---

[1] Barker. G.W. Op. Cit. p.p. 36 – 37.

[2] McBurney, C.B. The Haua Fteah (Cyrenaica) and the Stone Age of the South East Mediterranean. Cambridge, The University of Cambridge, 1967. Pp. 16 – 45.

[3] Augustin, Holl. Op. Cit. p. 347.

[4] Tafuri, Mary Anne; R. Alexander Bentley and others. "Mobility and kinship in the prehistoric Sahara: Strontium isotope analysis of Holocene human skeletons from the Acacus Mts. (southwestern Libya)". In Journal of Anthropological Archaeology, 2006, 25. p. 392.

عصر الجرامنت. لقد أظهرت الدراسة أن البعض من الصيادين وصيادي الأسماك الأيبي باليوليتيين كانوا قد تنقلوا بشكل مكثف في الأماكن المرتفعة من السلسة الجبلية – التي ربما قد توفرت فيها الشروط الأفضل للإقامة – والمجموعات الأخرى المكونة من رعاة الماشية فضلت التحرك بشكل موسمي في الوديان. لقد أدى قياس نسبة نظائر السترونتيوم (Strontium)، (86 sr – 87 sr) في مينا الأسنان لبعض من الهياكل العظمية، إلى معرفة نظام الغذاء الذي كان متبع عند المجموعات وقتذاك، وكذلك تحركاتهم عبر المواقع المختلفة، والسترونتيوم هو معدن يوجد في الصخور والتربة، تقوم النباتات والحيوانات الثديية بامتصاصه، وينتقل هذا المعدن بدوره إلى جسم الإنسان عبر السلسلة الغذائية، ليتم تخزين كميات قليلة منه داخل مينا الأسنان.

أهمية دراسة تافوري لا تنحصر في كونها قد أكدت على أن قرار التحرك / التنقل الموسمي جاء لتلبية حاجات القطعان من المراعي وحسب، بل أيضاً في جذبها إلى دائرة الضوء لظاهرتين مهمتين تتعلقان بالمحتوى الاجتماعي. الأولى، أن تلك الحركة الموسمية شملت قسم أو الكل من المجموعة، بحيث ضمت الجنسين معا، مع احتمال كبير بوجود حتى الأطفال، ضمن نظام مشابه لتحركات القبائل البدوية المعاصرة التي تعيش في المنطقة اليوم، حيث تنتقل الأسر بأكملها من مكان إلى آخر مع قطعانها[1]. والثانية توحي بوجود علاقة قرابة، وتنظيم اجتماعي واتصال بين المجموعات المختلفة، فالاختلاف في نسبة تراكم السترونتيوم بين الإناث تحديدا، هو مؤشر على وجود تزاوج بين المجموعات. كما قدمت الدراسة مقاربات جيدة حول العلاقة الديناميكية بين الناس والموارد الغذائية؛ واستراتيجية المستوطنات والمواد المستخدمة، والثقافة[2].

في العادة، ومن منظور بنيوي، فإن تطور المقدرة على إنتاج وتحزين المواد الغذائية، يستدعي بشكل أو بآخر، ظهور وحدات اجتماعية معقدة تعيش في بيئة جماعية مشتركة، يعتمد بعضها على بعض وظيفياً. إن السؤال عن العلاقة التي كانت تربط جماعات الأكاكوس مع بعضها خلال هذه الحقبة من الزمن، وكذا الكيفية التي يتم بموجبها اقتسام الموارد، هو سؤال معقد جداً. وحقيقة، إن إعادة التركيب للمحتوى الاجتماعي لجماعات الأكاكوس في تلك الأزمنة الغابرة تشبه أعمال التحري، نظرا لعدم وجود أدلة حاسمة، فالاستدلال على ذلك لابد من أن يعتمد على أدلة متفرقة من العظام، ومجاميع من الأدوات الحجرية، وترسبات عضوية مختلفة، وهي كلها غير كافية لذلك. يصعب فهم المحتوى الاجتماعي من خلال البقايا المادية فقط، بل إن ذلك يرتبط بالعاملين الديمغرافي والبيئي، وكذلك بالبيئة الميتافيزيقية.. وغيرها.

لهذا، يمكن لنا من خلال مطالعة بعض التحاليل الأثنوغرافية المقارنة لبعض الجماعات البشرية المعاصرة التي تحيا حياة تقليدية، أن نلتمس بعض من الضوء حول هذا الموضوع، فعلى

---

[1] Tafuri, Mary Anne. Ibid. p. 399.
[2] Ibid.

سبيل المثال، يقوم الصيادون الجامعون في جنوب إفريقيا بشكل اعتيادي بمطاردة الفرائس الكبيرة، والصغيرة، وجمع النباتات، ويجري تقاسم هذه المواد بين أفراد المجموعة الواحدة، مع وجود إمكانية في أن يتم تقاسمها أيضا مع المجموعات الأخرى[1]. وبالاعتماد على هذه المعلومة، يمكن أن نفترض بأن كل الموارد النباتية والحيوانية التي تراكمت في كهوف الأكاكوس قد تم اقتسامها بين كل أفراد المجموعة الواحدة، أو مبادلتها مع المجموعات الأخرى المجاورة.

في هذا السياق، يمكن لنا أن نتصور كيف كان التنظيم الاجتماعي داخل المجموعات التي عاشت في الأكاكوس وفق السيناريو التالي: يقوم الرجال من أفراد المجموعة بحماية وتأمين ما تم جمعه من مواد نباتية، وكذلك العناية بالحيوانات التي تم وضعها في حظائر داخل الكهوف؛ وتقوم مجموعة أخرى بالقيام بالأعمال الأخرى مثل صناعة الأدوات[2].

وبينما كان الفضاء المنزلي داخل الكهف مخصصاً للنساء، اللواتي كن يقمن بإعداد الطعام، وصناعة السلال، كان الرجال يركزون جهودهم في عمليات الرعي والحماية، وجمع النباتات، والصيد كذلك. ومن الناحية العملية كانت مهمة إعداد الطعام هي النشاط الأكثر إلحاحاً والأشد جهداً، فعملية تقشير الحبوب وطحنها كل يوم، تحتاج لوحدها إلى ساعات طويلة من العمل.

يصعب إدراك ماهية من كان يقوم بعملية طحن الحبوب، هل هم الذكور أم الإناث أم هي عملية قام بها الجنسين معاً؟، يمكننا من خلال بعض المعلومات الموثقة حول جماعات بشرية مشابهة، أن نلخص بأن النساء كن هن المسؤولات على طحن الحبوب وإعداد الطعام لباقي أفراد المجموعة.

إن هذا التقسيم الوظيفي يمكن أن يؤدي إلى تطوير الحرف المتنوعة، يمكن للفرد الذي تحرر من مهمة إعداد الطعام داخل المجموعة، أن يهتم بتطوير أنشطته الحرفية، بحيث يصنع أكثر من كفايته من السلال، والحاويات الفخارية، وغيرها من الأدوات الصنعية لتزويد باقي أفراد المجموعة، أو عرض الفائض منها لمقايضته مع المجموعات الأخرى المجاورة. ورغم أنه يمكن لنا ملاحظة وجود ارتقاء متواصل نحو حياة أفضل بين جماعات الهولوسين في الأكاكوس، إلا أنه لا توجد أيه بينات تدل على وجود ثراء، أو طبقية، وأنماط اجتماعية راسخة خاصة بالنخبة.

– النتائج المصاحبة لتطور التعقد الثقافي:

إن التعقد الثقافي الذي أصاب جماعات الهولوسين كانت نتائجه كثيرة ومعقدة، وترتبط بعدة عومل مثل البيئة؛ والديموغرافيا؛ والبيولوجيا؛ والتبدل في توزيع الموارد الطبيعية؛ وكذلك في

---

[1] Di Lernia, Savino. "Dismantling Dung: Delayed". Op. Cit. p. 434.
[2] Marshall, Fiona. Op.Cit. p. 105.

طرائق صنع التقنيات.. وغيرها. وبما أن المجال هنا، لا يتسع لاستعراض كل تلك التغييرات، فإنني سوف أختزل نتائج تطور التعقد الثقافي التي أحدثها إنتاج الطعام بين جماعات الهولوسين وفق المنظور الغذائي، ومنظور علم الطاقة، والمنظور التقني:

من منظور غذائي، يمكن القول إن انتقال الإنسان من مرحلة الاعتماد الكلي على الطبيعة إلى مرحلة إعادة تنظيم موارد الغذاء كانت له نتائجه الهامة على حياة الإنسان، فهو من جهة بدأ يتحرر بصورة تدريجية وتلقائية من القيود التي فرضتها البيئة الطبيعية التي يعيش فيها ويتفاعل مع مكوناتها، ومن ثم تمكن من إعادة بناء الهرم الغذائي بصورة مختلفة عما كان في السابق. ويمكن التأكيد أيضاً على أن نظام الرعاوة صار تنظيماً ضروريا، لتأمين الموارد الحيوانية، وتلبية المتطلبات الغذائية المتزايدة خاصة في أوقات الجفاف. عليه، يمكن تفسير الاستراتيجية في التفكير الاستيطاني التي أتبعتها جماعات الأكاكوس (خاصة في الفترات الحرجة للتغير البيئي المميز للدور الرعوي المتأخر) باعتبارها نمطاً من الاستقرار يفضي إلى التقليل من حجم المجهودات، والسعرات الحرارية التي تصرفها مجتمعات الصحراء الليبية في سبيل الوصول إلى موارد الغذاء المبعثرة بشكل رقع بسيطة.

ومن منظور علم الطاقة، فقد تمكن الإنسان من السيطرة على الدورة الطبيعية لنمو النباتات والحيوانات، ومن تم تأهيلها لكي تحيل العناصر الموجودة في الطبيعة إلى طاقة يستطيع الاستفادة منها. وقد صاحب ذلك ظهور تغييرات في عملية الاستقلاب – الأيض (Metabolism)[1]، لقد ضمن تناول كميات كافية من النباتات واللحوم إمداد الناس بالكالوريات والمغذيات اللازمة لقيام الدماغ والجسم بأنشطتهما الخلوية، وكان لهذا تأثير في الخط التطوري للبشر، ولعل النتائج الأبرز التي صاحبت التطور الاغتذائي البشري هو تمكن الإنسان من توفير كالوريات كثيرة من متطلبات طاقة الصيانة، وتوجيهها بدلاً من ذلك إلى طاقة التكاثر، وهذه الطاقة، أي طاقة التكاثر، كانت لابد لها من أن تغطي بشكل أو بآخر التكاليف التي تستهلكها الأمهات في أثناء الحمل والإرضاع.

ومن منظور تقني، فإن بقاء الإنسان واستمراره في منطقة الأكاكوس كان يرتبط بتطوّر قدرته على صناعة تقنيات حجرية متطورة، لقد مكنت أحجار الطحن؛ والأدوات الميكروليثية المصقولة الإنسان من أن يمتلك التجهيزات اللازمة لاستغلال الموارد الطبيعية. ومكنته أيضاً من تطوير سلوكه الرمزي، والتعبير عن نفسه من خلال الفن الصخري. وقد استخدمت التقنيات الحجرية كشعارات ورموز، في العمليات التي تنطوي على الطقوس والاحتفالات، سواءً كانت

---

[1] الاستقلاب – الأيض: العمليات الفيزيائية والكيميائية التي تتحول بها المواد الغذائية في الدم إلى طاقة لاستخدامها في النشاطات الخلوية.

متعلقة بذبح الحيوانات ودفن عظامها، أو تلك المرتبطة بموسم الجفاف في الصيف، أو في فصلي الشتاء والربيع عندما تنمو النباتات وتزهر[1].

ويبدو أن هذا السلوك المتطور الذي يدار بالترميز قد ارتبط بزيادة عدد السكان في كل مواقع الإقامة البشرية في الأكاكوس، فازدياد عدد السكان يوجه ضغطا أكبر على الموارد الطبيعية المتوفرة في المنطقة، وهذا الأمر قد أجبر السكان على ابتكار طرق تتسم بذكاء أعلى لتأمين الغذاء، وتوفير كل المواد اللازمة لصناعة الأدوات.

يبدو لي، أنه ثمة فرضية مطروحة لنموذج ننظر فيه لإنتاج الطعام بحسبانه تعديلاً لسلوك الصيادين – الجامعين للطعام، تماشياً مع التطور للمهارات الإدراكية، والإبرازية. هذا الأمر يمكن قياسه من الرسوم الصخرية التي تعود إلى الدور الرعوي في الأكاكوس، لقد أحدث تدجين الحيوانات تغيراً جذرياً في حياة هذه المجتمعات، فالرسوم القديمة التي تعود إلى دور الحيوانات المتوحشة، والتي نراها تجسد أشكالاً أسطورية، وطقوس صيد ومطاردة معقدين، كانت قد تلاشت، لتحل محلها رسوم أكثر وضوحا تظهر واقع الحياة المعتمدة على العناية بالحيوانات كالماعز والضأن، والأبقار. وهي في ذات الوقت، تبرز العلاقة الوثيقة التي تربط بين هؤلاء الناس وهذه الحيوانات، حيث اعتمدوا عليها في الحصول على اللحم، والحليب، والجلود.

هذه الظاهرة نجدها موثقة بشكل جيد في رسوم طور الرؤوس المستديرة، وطور الرعاة وقطعانهم، والتي تحتويها ملاجئ عين عيدي، وتين عينوين، وتين لالان في الأكاكوس[2]، وكذا تلك المكتشفة في تاسيلي – ن – أجار[3]. ففي حين تشير هذه الرسوم إلى صور اجتماعية، وثقافية لأقوام رعوية، نجحوا في إقامة أنظمة إعاشة شملت بلا شك الاستغلال المنظم للنباتات، وصيد الأسماك. إلا أننا لا يمكننا اعتبار هذه الرسوم مجرد كتاب مفتوح، لكنه مجرد رسالة مشفرة يرسلها الفنان إلى عالمه الخارجي، يحاول من خلالها التعبير عن أفكاره، وتجاربه الطويلة الواقعة فيما وراء نطاق الخبرة.

ختاماً، يبدو على الواحد منا أن يعود في أكثر من مرة، ويشدد على الدور الذي قامت به البيئة الطبيعية والثقافة في حياة مجتمعات الأكاكوس في الهولوسين، فإنتاج الطعام مثل استجابة طبيعية لذلك الحافز الذي فرضه التغير في المناخ. وتوضح البينات الثقافية، التي تم ذكرها أنفا، كيف أنه، حصلت تبعات تكيفية على حياة الإنسان، وكذلك على ثقافته المكتسبة في مرحلة

---

[1] Di Lernia, Savino "Inside the ''African Cattle Complex'': Animal Burials.. ". Op. Cit. p. 25.

[2] Jean-Loïc Le Quellec. "La culture matérielle dans l'art rupestre néolithiquedu Sahara central (Messak - Tadrart Akâkûs - Tassili-n-Ajjer)". Préhistoire Art et Sociétés, tome 58, 2003. P. 199; 202; Mori. F. Op. Cit. p. 109.

[3] Morli, A and Thierry. L Art Du Sahara, Seuil, Paris, 1996. pp. 31 – 35.

إنتاج الطعام، والتي أصبحت معقدة، ومختلفة عن ثقافته السابقة في فترة الصيد والجمع، ودرجة التعقد هذه، يمكن استقراؤها من خلال ظهور تقنيات حجرية جديدة وأنظمة اقتصادية إعاشية قائمة على إعادة تنظيم وتدوير الموارد الغذائية، هذا فضلاً عن التطور في السلوك الرمزي وفي القدرات الذهنية والعقلية.

هذا التطور على المستوى الذهني والعقلي والتعقد الثقافي، كان قد مكن الإنسان من أن يشغل مركز الصدارة في العالم الحي. ومكنه أيضاً من أن يمتلك مستوى من الوعي والإدراك بأنه، في وضع ما، هو في موقع أعلى بالنسبة للطبيعية التي ولد، وتطوّر فيها.

على كلٍ، ومهما كان الأمر، فالمعطيات المتوفرة لدينا تشير إلى أن الإقامة البشرية في الفترة الحرجة للتغير البيئي إبان الهولوسين المتأخر كانت من النوع الذي ترك آثاراً سهلة الزوال، فقد أسهم الجفاف في جعل مصادر الطعام موزعة بشكل رقع صغيرة متباعدة، الأمر الذي جعل البشر ينتقلون هم وقطعانهم من مكان لآخر بحثاً عن القوت، وبالتالي فإن الرؤية المتاحة للمراقب / الإنسان كانت تتقلص تبعاً لتقلص مناطق الغذاء، الأمر الذي أدى إلى توقف الإقامة البشرية في تادرارات الأكاكوس في حوالي 2000 ق.م. وبخلاف ذلك، تختلف أنظمة الإقامة البشرية في الجانب الشرقي من البحر الأبيض المتوسط، أو تلك الواقعة في القارة الأوربية عن تلك التي تم تتبعها ضمن هذه الدراسة اختلافاً بيناً ومدهشاً، فقد نشأت أنظمة مستقرة معقدة، قائمة على قاعدة إعاشة متنوعة للغاية، أسستها جماعات واعية، كانت مساحة المراقبة المتاحة أمامها تتسع على الدوام.

المصادر والمراجع:

(1) Alimen , H . The Prehistory of Africa . Scientific and Technical , London , 1955.

(2) Anag, Giuma with Mauro Cremaschi; Savino di Lernia; Mario Liverani. "Environment Archaeology, and Oil: The Messak Settafet Rescue Operation (Libyan Sahara) ". In African Archaeological Review, vol. 19, no. 2, June 2002. Pp. 67 – 73.

(3) Antón, Susan with Carl Swisher. " Early Dispersals of homo from Africa ". In Annual Review of Anthropology, vol. 33. Pp. 271 – 296.

(4) Augustin, Holl. " Social Issues in Saharan Prehistory ". In Journal of Anthropological Archeology, no. 8, 1989. Pp. 313 – 354.

(5) Barker. G.W. " From Classification to Interpretation: Libyan Prehistory, 1969 – 1989 ". In Libyan Studies.1989. Vol. 20. Pp. 31 – 44.

(6) Barnosky, Anthony ; Paul L. Koch and Others . "Assessing the Causes of Late Pleistocene Extinctions on the Continents" . In Science magazine , 1 October 2004 , Vol. 306 . p. 70 – 75.

(7) Barich, Barbara with Elena Garcea, Carlo Giraudi. "Between the Mediterranean and the Sahara: geoarchaeological reconnaissance in the Jebel Gharbi, Libya ". In Quaternary International , vol. 320, January 2014. Pp. 567 - 582.

(8) Barich, Barbara. " Hunter-Gatherer-Fishers of the Sahara and the Sahel 12,000 – 4000 years ago ". In the Oxford handbook of African Archaeology, Oxford, Oxford University Press, 2013.

(9) David, Caramelli and others. " The origin of European cattle: Evidence from modern and ancient DNA ". In PNAS. 23 May 2006 . vol. 103 . no. 21 .pp. 8113 – 8118.

(10) Biagetti, Stefano. Ethnoarchaeology of the Kel Tadrart Tuareg: Pastoralism and Resilience in Central Sahara. Springer International Publishing, New York, 2014.

(11) Bouzouggar, Abdeljalil; Nick Barton , " 82,000-year-old shell beads from North Africa and implications for the origins of modern human behavior ". In PNAS. 12 June 2007 . vol. 104 . no. 24 .pp. 9964 – 9969.

(12) Bradley, Daniel with David Machugh; Patrick Cunningham; Ronan Loftus." Mitochondrial diversity and the origins of African and European cattle ". In PNAS, vol. 93, May 1996, pp. 5131-5135.

(13) Clark , J. and Brandt , S,A . From Hunters to Farmers : The Causes and Consequences of Food - Production in Africa , London , 1984 .

(14) Cohen , Mark . The Food Crisis in Prehistory , Yale University , New Havan .1977.

(15) Colledge, Sue. " Archaeobotanical Evidence for the Spread of Farming in the Eastern Mediterranean ". In Current Anthropology, vol. 45. August–October 2004 , pp. 35 – 58.

(16) Cremasch, Mauro and Andrea Zerboni; Christoph Spötl; Fabrizio Felletti. " The calcareous tufa in the Tadrart Acacus Mt. (SW Fezzan, Libya) An early Holocene palaeoclimate archive in the central Sahara ". In Palaeogeography, Palaeoclimatology, Palaeoecology, no. 287, 2010. P.p. 81–94.

(17) Cremaschi , Mauro; Savino Di Lernia . " Some Insights on the Aterian in the Libyan Sahara: Chronology, Environment, and Archaeology " . In African Archaeological Review, 1998 , Vol. 15, No. 4. pp. 261 - 286 .

(18) Cremaschi, M ; S. Di Lernia. " Holocene Climatic Changes and Cultural Dynamics in the Libyan Sahara ". In African Archaeological Review, 1999 , Vol. 16, No. 4. pp. 211 – 238.

(19) Cremaschi, Mauro and Zerboni; Anna Maria Mercuri; Linda Olmi; Stefano Biagetti; Savino di Lernia. “ Takarkori rock shelter (SW Libya): an archive of Holocene climate andenvironmental changes in the central Sahara “. In Quaternary Science Reviews, no. 101, 2014, p.p. 36 – 60.

(20) Di Lernia , Savino with Mary Anne Tafuri, Marina Gallinaro, Francesca Alhaique, Marie Balasse, Lucia Cavorsi, Paul Fullagar, Anna Maria Mercuri, Andrea Monaco, Alessandro Perego, Andrea Zerboni. “ Inside the ‘‘African Cattle Complex’’: Animal Burials inthe Holocene Central Sahara “. In PLOS ONE, vol. 8, issue 2 , February 2013 . pp. 1 – 28.

(21) Di Lernia, Savino. " Dismantling Dung: Delayed Use of Food Resources among Early Holocene Foragers of the Libyan Sahara " . In Journal of Anthropological Archaeology, no. 20, 2001,. pp. 408 - 441 .

(22) Di Lernia, Savino with Mauro Crernaschi “ Taming Barbary sheep: wild animal management by Early Holocene hunter-gatherers at Uan Afuda (Libyan Sahara) ”. In NYAME AKUMA, No. 46 , December 1996. Pp. 43 – 54.

(23) Di Lernia, Savino. “Why Uan Afuda? The “pre-pastoral” archaeology of the Acacus and surroundings “. In The Uan Afuda cave: hunter-gatherer Societies Central Sahara. Edizioni All’Insegna del Giglio, Firenze, 1999.

(24) Di Lernia, Savino. “A Cover Story for a Nature cover: milking in the prehistoric ‘Green Sahara’ “. In Journal of Anthropological Sciences, Vol. 91 (2013), pp. 7 – 11.

(25) Dietzel, Martin with Hans Kolmer, Peter Poelt, Sanja Simic. “Desert varnish and petroglyphs on sandstone – Geochemical composition and climate changes from Pleistocene to Holocene (Libya) “. In CHEMIE DER ERDE GEOCHEMISTRY, no. 68 (2008). P. 31 - 43.

(26) Dunne, Julie with Richard Evershed, Lucy Cramp, Silvia Bruni , Stefano Biagetti, Savino di Lernia. “The beginnings of dairying as practised by pastoralists in ‘green’ Saharan Africa in the 5th millennium BC “. In Documenta Praehistorica. XL ,2013. p. 119 – 130.

(27) Fekri , Hassan . " Holocene Environmental Change and Origins and Spread of Food Production in the Middle East " . In Adumatu , January . 2000 , 1. pp. 8 – 20.

(28) Gallinaro; Marina and Savino Di Lernia. “Working in a UNESCO WH Site. Problems and Practices on the Rock Art of Tadrart Akakus (SW Libya, Central Sahara)”. In Journal of African Archaeology, vol. 9, no. 2, 2011, Pp. 159 – 175.

(29) Garcea, Elena . “ New investigations in the Tadrart Acacus, Libyan Sahara “. In NYAME AKUMA. no, 44 , December 1995. P. 35 - 37.

(30) ـ. " An Alternative Way Towards Food Production: The Perspective from the Libyan Sahara ". In Journal of World Prehistory, vol. 18, Issue 2, June 2004, p. 107-154.

(31) Gupta, Anil." Origin of agriculture and domestication of plants and animals linked to early Holocene climate amelioration ". In Current Science, 10 July 2004, vol. 87. No. 1. pp. 54 – 59.

(32) Hammer, Michael. "Human Hybrids ". In Scientific American, vol. 308, no. 5. May 2013, pp. 66 – 71.

(33) Harris , M . Cultural Materialism , Random House , New York , 1979.

(34) Jean-Loïc Le Quellec. "La culture matérielle dans l'art rupestre néolithiquedu Sahara central (Messak - Tadrart Akâkûs - Tassili-n-Ajjer)". Préhistoire Art et Sociétés, tome 58, 2003. P. 189 – 203.

(35) Kuper, Rudolph and Stefan Kropelin. "Climate-Controlled Holocene Occupation in the Sahara: Motor of Africa's Evolution ". In Science, vol. 313, 11 August 2006. P. 803 – 807.

(36) Leonard , William , " Food for Thought " . In Scientific American, Vol. 287, no. 6, December 2002, p. 62 - 71.

(37) Marlowe , Frank . W. " Hunter-Gatherers and Human Evolution ". In Evolutionary Anthropology , no. 14, 2005 , pp. 54 – 67 .

(39) Marshall, Fiona and Elisabeth Hildebrand. "Cattle Before Crops: The Beginnings of food Production in Africa ". In Journal of World Prehistory, vol. 16, no. 2, June 2002. Pp. 99 - 143 .

(40) McBurney, C.B. The Haua Fteah (Cyrenaica) and the Stone Age of the South East Mediterranean. Cambridge, The University of Cambridge, 1967. Pp. 16 - 45.

(41) Mercuri, Anna Maria. "Human influence, plant landscape evolution and climate inferences from the archaeobotanical records of the Wadi Teshuinat area (Libyan Sahara) ".Journal of Arid Environments, vol. 72, Issue 10, October 2008, pp. 1950–1967.

(42) Mercuri, Anna Maria with Laura Sadori, Carlo Blasi. "Cultural landscapes of the past: Archaeobotany for cultural landscape and human impact reconstructions ". In Plant Biosystems, vol. 144, no. 4, December 2010, pp. 940 – 951.

(43) Mercuri, Anna Maria with Laura Sadori, Paloma Uzquiano Ollero. "Mediterranean and north-African cultural adaptations to mid-Holocene environmental and climatic changes ". In the Holocene, vol. 21, no. 1, March 2010. Pp. 189- 206.

(44) Mercuri, Anna Maria. "Plant exploitation and ethnopalynological evidence from the Wadi Teshuinat area (Tadrart Acacus, Libyan Sahara)". Journal of Archaeological Science, no. 35, (2008), pp. 1619 – 1642.

(45) Minozzi, Simona and Giorgio Manzi, Francesca Ricci, Savino di Lernia, Silvana M, Borgognini Tarli. "Nonalimentary Tooth Use in Prehistory: An Example From Early Holocene in Central Sahara (Uan Muhuggiag, Tadrart Acacus, Libya).

InAmerican Journal of Physical Anthropology, no. 120, 2003 , pp. 225–232.

(46) Mori, Fabrizio, The Great Civilisations of the Ancient Sahara, L'ERMA di Bretschneider, Roma, 1998.

(47) Morli , A and Thierry . L Art Du Sahara , Seuil , Paris , 1996 .

(48) Reed , C.A. Origins of Agriculture , Mouton , The Hague , 1977.

(49) Skoglund. Pontus and Malmström; Raghavan; Storå; Hall; Willerslev; Gilbert; Götherström; Jakobsson. " Origins and Genetic Legacy of Neolithic Farmers and Hunter-Gatherers in Europe". In SCIENCE, vol 336, 27 APRIL 2012,. P. 466 - 469.

(50) Surovell , Todd ; Nicole, Waguespack . " Global archaeological evidence for proboscidean overkill " . In PNAS , 14 December , 26 April 2005 , vol. 102 , no. 17 , pp. 6231 – 6236 .

(51) Tafuri, Mary Anne ; R. Alexander Bentley and others. " Mobility and kinship in the prehistoric Sahara: Strontium isotope analysis of Holocene human skeletons from the Acacus Mts. (southwestern Libya) " . In Journal of Anthropological Archaeology, 2006, 25. pp. 390 – 402.

(52) Thorne, Alan with Milford Wolpoff. "The Multiregional Evolution of Humans ". In Scientific American, vol. 266, no. 4. April 1992, pp. 46 – 53.

(53) Underhill, P and G. Passarino; A. Lin; P. Shen; M. Mirazón Lahr; R. Foley; P. Oefner; L. Cavalli –Sforza." The phylogeography of Y chromosome binary haplotypes and the origins of modern human populations ". In Annals of Human Genetics, vol. 65. 2001. Pp. 43 – 62.

(54) Van der Veen, Marijke. " Ancient Agriculture in Libya: A Review of the Evidence ". In Acta Palaeobot, vol. 35, no. 1, 1995. pp. 85 – 98.

(55) —. " The materiality of plants: plant–people entanglements ". In World Archaeology, vol. 46, no. 5, 2014, p. 799 – 812.

(56) Wendorf , F ; Romuald Schild . Prehistory of the Eastern Sahara , Academic Press , New York , 1980 .

(57) Wong, Kate. " The Morning of the Modern Mind ". In Scientific American, vol. 16, no. 2. 2006. Pp. 74 – 83.

الأوضاع السياسية في عصر الإمارة الأموية بالأندلس
(138– 300 هـ / 755 – 912 م)

وفاء عوض سليم
جامعة طرابلس – كلية الآداب – قسم التاريخ

الأوضاع السياسية في عصر الإمارة الأموية بالأندلس (138 – 300 هـ / 755 – 912 م)

وفاء عوض سليم
جامعة طرابلس – كلية الآداب – قسم التاريخ

يعد عصر الإمارة في الأندلس من أهم التحديات التي واجهت الأمويين بعد فرارهم من دمشق عاصمة خلافتهم، حيث تمكنوا من الاستقرار داخل الأندلس في محاولة لبناء دولة يستطيعون بها إحياء مجدهم الزائل في المشرق.

وفي هذا السياق سوف نسلط الضوء على أهم أعمال الشخصيات التي استطاعت أن تبني جزءً من الخلافة الأموية المنهارة، فهم على سبيل المثال لا الحصر عبد الرحمن بن معاوية، وابنه هشام ومن بعده الحكم، وعبد الرحمن الأوسط.

ويعتبر عبد الرحمن الداخل الملقب بصقر قريش من الشخصيات التي أثارت جدلاً تاريخياً واسعاً نظراً لدوره وطموحاته المنقطعة النظير، وعلى الرغم من صغر سنه عند توليه الحكم الأموي في الأندلس، إلا أنه حمل إصراراً وتحدياً لمقاومة أعدائه وجيوشهم في سبيل إقامة دولة قوية هناك.

لقد واجه عبد الرحمن الأول العديد من الصراعات داخلياً وخارجياً، وأستطاع القضاء عليها بسبب شجاعته وقوته.

انتقلت الخلافة بعد نجاح الثورة العباسية من الأمويين إلى العباسيين، بعد أن توفيَّ آخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد؛ لينتهى أمرهم بالمشرق سنة (132هـ/750م). وابتدأ العباسيون في أعقاب سقوط الخلافة الأموية باضطهاد أفراد البيت الأموي الحاكم، وتتبعهم بالقتل والتمثيل أينما وجدوا، ونتيجة لهذه المعاملة هرب وجوه بني أمية واختفوا عند القبائل العربية في البادية، ومن هؤلاء عبد الواحد بن سليمان، والغمر بن يزيد وغيرهما، وعندما رأى العباسيون أن سياسة الاضطهاد لم تأت بما يرجونه من استئصال بني أمية سلكوا سبيلاً أخر تميز بالخديعة والغدر، فأصدر الخليفة العباسي الأول أبو العباس عبدالله السفاح بياناً أعترف فيه بإسراف العباسيين في اضطهاد الأمويين وندمهم على ذلك ، وأمّن من بقي منهم على قيد الحياة، وقد أذاع عم الخليفة عبد الله بن علي هذا البيان في بلاد الشام، فأنخدع عدد كبير من بني أمية به، ولبوا دعوة عبد

الله إلى الظهور، فاستطاع بهذه الطريقة أن يقتل نحو سبعين رجلاً أخر منهم في مجزرة نهر أبي فطرس قرب الرملة في فلسطين، وكان يحيى وعبدالرحمن حفيدا الخليفة هشام بن عبد الملك من المحظوظين القلائل الذين نجوا من المذبحة البشعة[1]، ولكن العباسيين استطاعوا بعد هذه المذبحة أن يلقوا القبض على يحيى ويقتلوه، أما عبدالرحمن فقد كتبت له النجاة لأنه كان غائباً في الصيد أثناء غارة الجند على القرية التي كانا يختفيان فيها. وعندما عاد وعلم بمصير أخيه، فأنتهز فرصة الظلام وهرب بعد أن أوصى أختيه أم الأصبغ، وأمة الرحمن أن يتبعانه مع ولده سليمان إلى قرية أخرى عينها لهم[2].

هروب عبد الرحمن بن معاوية إلى المغرب:

كان بيت معاوية بن هشام بن عبد الملك من أكثر البيوت مصيبة، فمعاوية خلف ذرية، يذكر المؤرخون منهم أربعة ذكور وبنتين، وكان أولهم إبان وقد وقع في أيدي العباسيين فقطعوا يده ورجله وقاموا بوضعه على ظهر حمار وطافوا به في قرى الشام ومن خلفه مناد يصيح، واستمر على هذه المحنة حتى هلك، ولقد أعلن أبو العباس أمانه المشهور وهذا الإعلان أحتال به لإيقاع أكثر من سبعين أموياً في دير الجماجم، وكان من ضحايا هذا الأمان ابن آخر لمعاوية وهو يحيى، فقد هرب عبدالرحمن بأعجوبة وأستتر بالليل وهرب إلى قرية كانت تقيم فيها أختيه وابن صغير له، وأخ صبي له في الثالث عشر من عمره، ولم يستقر عبدالرحمن في القرية ولم يشعر بالاطمئنان ورمدت عيناه فأقام في حجرة مظلمة خوفاً من العباسيين وطلباً لشفاء عينيه[3].

فعندما دخل سليمان على أبيه خائفاً خرج عبد الرحمن ليرى ماذا يجري في الخارج، فرأى خيول العباسيين وراياتهم السوداء وأقبلوا يحاصرون القرية فأسرع عبد الرحمن وأخذ بعض المال وودع أختيه وابنه[4].

طلب عبد الرحمن من أختيه أن تبعث إليه مولاه بدر في غابة قريبة من القرية، وانتظر عبد الرحمن وأخوه هشام في مكان بجوار القرية حتى جاء بدر إلى مولاه بشيء من المال فمضوا حتى وصلوا إلى الفرات، فقد قام عبد الرحمن بإعطاء رجلاً يعرفه مالاً ليشتري له طعاماً وخيلاً، ومضى الرجل وبصحبته بدر مولى عبد الرحمن، وقد كان من سوء حظ عبد الرحمن وأخيه أن لهذا الرجل عبداً كان له علم بالخبر فأسرع به إلى العباسيين فأسرعوا إلى الغابة وحاصروها فخاف الأخوان وأسرعا وأختبأ في مزارع على ضفاف الفرات.

وقام العباسيون بمحاصرتهما وضيقوا عليهما، ولم يبق أمام عبد الرحمن وأخيه هشام إلا أن يلقيا بأنفسهما في نهر الفرات ويسبحا إلى أن يصلا إلى الضفة الأخرى، وفعلا ذلك ولكن تعب الصبي في السباحة وسمع نداء العباسيين الذين وعدوه بالأمان، ولكن ما أن وصل إليهم

حتى قتلوه على ضفة النهر أمام عيني أخوه عبد الرحمن، فأشتد عبد الرحمن في السباحة وواصل الهروب من العباسيين حتى وصل إلى الضفة الأخرى من النهر[5].

بعد صعوبات كثيرة مر بها عبدالرحمن أستطاع الوصول إلى فلسطين حيث لحق به مولاه بدر ومولى أخته سالم أبو شجاع، وغادر عبدالرحمن ورفيقاه إلى مصر، ومنها إلى أفريقية (تونس الحالية) حيث كان هناك العديد من اللاجئين من أفراد البيت الأموي قد ذهبوا أيضاً إلى هناك، ولكن هذا المكان لم يكن ملائماً للجوء لأن كان يحكمه عبدالرحمن بن حبيب الفهري الذي لم يعترف بسلطان العباسيين وكان يحاول والتطلع إلى تحويل أفريقية إلى إمارة وراثية لأولاده، وكذلك يحاول الاستقلال بالحكم، ولذلك أصبح قلقاً لوجود العديد من الأمراء الأمويين في بلاده، فقد دبر عبد الرحمن بن حبيب الفهري قتل ابني الخليفة الوليد بن يزيد، كذلك قرر إبادة الآخرين، لهذا قرر عبدالرحمن الهروب غرباً ونجح طلباً للأمان بين قبائل البربر.

تنقل عبد الرحمن من مكان إلى آخر في شمال أفريقيا ما يقارب الخمس سنوات، فأقام في البداية عند قبيلة مكناسة البربرية، ثم غادر غرباً إلى بربر قبيلة نفزة حيث حصل على تأييد هذه القبيلة وهم أخواله، ولقد حصل عبد الرحمن على الحماية من قبائل بربرية أخرى كبيرة في المنطقة مثل زناتة. وعمل أحد زعماء هذه القبيلة على التستر عليه أثناء إقامته الأخيرة في شمال أفريقيا ليقرر بعدها أي طريق يفضي إليه[6].

كان عبدالرحمن بن معاوية حفيد الخليفة هشام بن عبد الملك شاباً مشعاً بالذكاء، وطموحاً بلا حدود، وهذه الصفات تؤهل حاملها لجسام المسؤوليات، وهذا ما حصل لعبد الرحمن الطريد الذي نجا بأعجوبة من القتل، فهو لم يفر من أجل السلامة فقط كأي شخص عادي، وإنما تحركت أحلام السلطة وشهوة الملك، وكانت ولاية المغرب على بعدها عن مركز الحكم العباسي تكفي طموحه الكبير، حتى ولو أراد عبدالرحمن ذلك لم يكن بالأمر البسيط، لأن هذه الولاية نالت حين ذلك بعض الاستقلال، ولم تكن هذه الولاية مؤهلة للقبول بهذا المغامر الطموح، ولم يكن حاكمها الفهري يقبل بوجود منافسين له في مكان ناضل كثيراً من أجل الوصول إليه.[7]

العبور إلى الأندلس:

بدأ عبد الرحمن في التفكير في ولاية الأندلس، وبدأ بهذا التفكير عندما كان مقيماً بالقرب من ساحل طنجة عند قبيلة مغلية البربرية، وبدأت أخبار الأندلس تصل إليه من سالم مولى أخته، وقد حدثت كذلك عند هذا البلد الواسع، والخيرات الكثيرة التي فيه[8].

كانت الأندلس على مقربة منه تمزقها الحرب الأهلية، وكان من الصعب أن يتفق الجميع على زعيم واحد، وإن عبدالرحمن توجه بطموحه الكبير إلى الإقليم حيث كانت أخباره المثيرة تصل إليه باستمرار، ووجد فيه الفرصة الأكثر منالاً من المغرب، فاتصل عبدالرحمن بأنصاره في

الأندلس نهاية سنة (136هـ/754م)، حيث كان مرافقه بدر يشق طريقه عبر المضيق إلى الأندلس في مهمة سرية كلفه بها عبد الرحمن، وذلك للاطلاع علي الأجواء السياسية هناك لدراسة السبل والطرق التي تمهد العبور لسيده عبد الرحمن، بعد أن وصل بدر إلي ساحل ألبيرة، وكانت من أولى مهماته الاتصال بأنصار الأسرة الأموية والتي في أغلبهم من بقايا الفرقة الشامية التي حوصرت في سبتة أثناء ثورة البربر قبل أن تنتقل إلى الأندلس بقيادة بلج بن بشر في أعقاب محاولات مستميتة مع واليها[9]، فأرسل عبد الرحمن مولاه بدر برسالة إلى زعمائهم وأهمهم ثلاث: أبو عثمان عبيد الله بن عثمان، وعبد الله بن خالد، ويوسف بن بخت يرجوهم فيها معاونته علي الوفود إلى الأندلس لاستقرار فيها مع تهيئة ظروف حياة مناسبة لممثله[10].

فقد اجتمع بدر مولى عبد الرحمن باثنين من زعماء في الوقت التي كانت رسالة سيده مكتوبة بعبارات أنيقة تمهد الطريق إلى لقاء ايجابي، وفي الاجتماع المتفق عليه فقد قام بدر في عرض المأساة والكارثة المفجعة التي حلت بالأمويين، كما عرض المطاردة الصعبة التي عناها سيده عبد الرحمن حتى أدرك النجاة بأعجوبة، وقد ركز بدر علي الموضوع الأساسي من المهمة مشيراً صفات عبد الرحمن ومؤهلاته كحفيد لهشام، وكذلك قدرته على رد الاعتبار للأمويين إذا أتيحت له الفرصة والمساعدة.

ولقد كان اللقاء بين بدر والزعيمين ودياً إلى حد كبير، وإن الزعيمين الشاميين لم يترددوا بالعمل فوراً على تنفيذ رغبة الأمير المرواني، فاتصلا الزعيمان بحليف لهما من جند قنسرين وهو يوسف بن بخت، فقد وافق على الفكرة وضم جهوده إلى زعيمي الجند الشامي فأتاح ذلك نجاحاً أولياً لمهمة بدر، حيث أسفرت اتصالاته عن قيام نواة لفريق مؤيد للأمير الذي ينتظر في سبتة، وكانت السلطة الفعلية في الأندلس آنذاك في قبضة الصميل[11].

إن هذا الشاب يطمح إلى ولاية الأندلس، وكان هذا الأمر يوافق أهواء الزعماء الشاميين، وكلموا فيه الصميل بن حاتم لأنهم كانوا علي علم بأن القوة في يده، والغريب أنهم لم يصارحوا به يوسف الفهري، والمفروض أنهم كانوا من مواليه فقد وعدهم الصميل خيراً.

كان يوسف الفهري مشغولاً في ذلك الوقت بأمر ثورة في سرقسطة، وهذه الثورة قام بها اليمنيون، فقد كان الفهري يلح على الصميل وموالي بن أمية في الخروج، وفي آخر الأمر خرج الجيش وفي أثناء الطريق تبين موالي بن أمية إن الصميل يحتال عليهم وأنه لا يضمر لعبدالرحمن هذا خيراً، فأنصرف زعمائهم عن الجيش واتجهوا إلى مراكز الموالي في ألبيرة وجيان، وفي الطريق قرروا أن ينفضوا أيديهم عن الصميل والقبائل المضرية وأن يعتمدوا علي القبائل اليمنية الكلبية، وكانوا موفقين في هذه الخطوة، لأن اليمنية كانت تتطلع بأخذ بثأر هزيمتهم في شقندة، وكانوا متطلعين إلى التخلص من سيادة الصميل بن حاتم عليهم عن طريق يوسف

الفهري. لهذا استجاب اليمنيون في إقليم غرناطة إلى النداء، وتجمعوا لعبد الرحمن على أمل أن يدركوا الرياسة معه، وقرر مع موالي بني أمية قدومه إلى الجزيرة.

وهكذا عبر عبد الرحمن في ربيع سنة (137هـ/754م) إلى الأندلس ونزل في كورة غرناطة ومنها انتقل إلى طرش، وكانت دار يوسف بن بخت شيخ جند قنسرين وأحد كبار موالي بن أمية، فقد توافد عليه الموالي وأتباعهم وذاع الأمر في الأندلس كله.

وقد بلغ هذا الأمر الصميل ويوسف الفهري في سرقسطة وكانت ظروف كلاً منهما سيئة بسبب سوء تصرفهما مع الجند، ولم يكن أحد في حماس حقيقي للنهوض معهما، وأقبل الشتاء وهم في هذا الثغر ومضى الناس يهونون عليهما أمر عبد الرحمن قائلين أنه لا يريد إلا الاستقرار والعيش في سلام، وفي هذه الأثناء كان معسكر عبد الرحمن في طرش يحفل بالناس، وكان أكثر الوافدين عليه اليمنيين المنضمين إليه، وكذلك انضمت إليهم جماعات من البربر، وكان هؤلاء يرجون أن يجدوا الراحة في ظل حاكم جديد[12].

انتصار عبد الرحمن على خصومه:

وأخيراً وبعد عناء عبر عبد الرحمن إلى الأندلس، وجمع حوله أنصار بني أمية ونازل يوسف الفهري والي الأندلس وهزمه[13]. وفي معسكر عبد الرحمن كانت الحركة نشطة من تجمعات للجند إلى وفود مبايعة والحزب اليمني سيد الموقف.

وكانت مبادرة قرطبة التي حملها الوفد القيسي قد لقيت الموقع الحسن لدى عبد الرحمن لرؤيته لها من جانب واحد فقط هو اكتساب الوقت وإعطاء مهمته فرصاً أفضل، فإن الحزب اليمني كان يرى غير هذا الموقف ويستعجل معركة الانتقام بكل ما تعني إليه، ومن الواضح أن شبح الصميل ماثل بمكره وراء هذه المحاولة الاستدراجية، فإن صدقت نوايا الفهري، فمن الغباء عدم التشكيك بطوية الصميل الذي يمتلك قدرة عجيبة على إخفاء ما يريد. وكان لابد أن تتعثر المفاوضات بعد أن فشل الوفد في الوصول إلى الغاية المطلوبة، وقع بين المتحدث باسم الوفد خالد بن زيد وبين أبي عثمان عبيد الله مساعد عبد الرحمن وزعيم طرش أدى إلى هذه النتيجة.

غير أن ذلك لا يعدو أن يكون سبباً جانبياً لا قيمة له في التأثير على مجرى المفاوضات التي كانت محاطة منذ البدء بأسوار الفشل[14]. وبذلك انتهت محاولة الفهري إلى الإخفاق ليكون بديلها الحرب، كانت محاولة الصميل الذي أعتقد أنه بإعطاء الأمير الأموي قطاعين في الجند ينهي الأزمة، ويبدو أن الصميل كان لايزال غير مأخوذ بحجم الخطر الذي بدأ يقتحم جذور سلطته الممتدة لعشر سنوات ولم يشأ أن يتخلى عن ثقته بنفسه التي أصبحت مظهراً في المكابرة[15].

ومع بداية الربيع (138هـ/756م) كانت طلائع الجيش الذي التفت حول عبدالرحمن تغادر معسكره إلى أرشدونة وقد بلغت نحو ألفي فارس، حيث كانت أول مدينه تجهر بتأييدها العلني للأمير الأموي، وخرج منها ليلقى الترحاب في المدن الأخرى، ويستقطب أجنادها حتى أدرك وصل الضفة الجنوبية من نهر الوادي الكبير في حركه سريعة لبلوغ قرطبة بعد أن وصلته معلومات عن خروج الفهري والصميل باتجاه إشبيلية لمقاومة زحفه، وكانت مبادرة ذكية من عبدالرحمن الذي لم يشأ انتظار خصومه في إشبيلية؛ بل غادرها فوراً إلى قرطبة الفارغة تقريباً من قوتها الدفاعية في عملية مداهمة سريعة نفذها تحت ستار الليل، فأضطرب الصميل والفهري لخطة الأمير وقد وفقا علي أسرارها، وتراجعا مضطرين ليكونا طرفا السباق الآخر في الوصول إلى العاصمة.

وهكذا أمتد الجيشان علي ضفة النهر إلى الشمال، حيث عسكر جيش الصميل الفهري في المصارة، وإلى الجنوب أتخذ عبد الرحمن معسكره في بالبش، ومضت أيام يراقب أحداهما الأخر، وقرطبة بدورها تراقب عن كثب من يكون له الحظ في امتلاكها والسيطرة من خلالها على الأندلس، وفي عشية عيد الأضحى التاسع من ذي الحجة سنة (138هـ/الثالث عشر من مايو 756م) دعا عبد الرحمن إلى مجلس حربي قبل أن يحسم الأمر، فإذا بأركانه يجمعون على القتال رافضين لأي حل آخر برغم أن المهمة لم تخل من المخاطرة، فلا يجد غير الجنوح إلى الحرب والاندفاع نحو القتال، ولكن القائد البارع لا يحتاج إلى الشجاعة فقط؛ بل يجب أن يتمتع بذهن وقّاد لاختطاف كل الفرص التي تساعده على تحقيق النصر. وقد أوهم عبد الرحمن خصمه الفهري برغبته في المصالحة كمظهر من مظاهر الخدعة، فإن ذلك جائز في الحرب ولا يتنافى مع أخلاقيات الفروسية كما هي بنظر بعض المؤرخين[16]، وهي لم تكن أكثر من عملية استدراج لخصمه.

وفي صباح اليوم التالي كانت الظروف مؤاتية للهجوم، ولم يكن النهر في هذا الوقت وقد انخفضت مياهه يعيق الهجوم الذي قدّره عبد الرحمن ذلك اليوم، وبسرعة تحولت المعركة إلى المصارة معسكر الفهري ورفيقه الصميل. وبنفس السرعة تمزق جيش الولاية المنهارة وألقى الفهري بقدميه للريح رغم الشيخوخة ولاذ بطليطلة، بينما الصميل وقد سقط كل غروره في المعركة فقد أخذ طريق الهروب إلى جيان إلى الشمال من غرناطة. ودخل عبد الرحمن قرطبة بعد القضاء على أسطورة الصميل الذي طبع البلاد في هذه السنوات بطابعه المزاجي وأغرقها في جحيم الاضطرابات لتطل على الأندلس إشراقة أمل تمدها بحياة هادئة[17].

وإن كانت المصارة قد فتحت أبواب الحظ أمام الأمير الأموي الشاب ليحتل عرش الإمارة في قرطبة، وأن الطريق إلى ذلك كان طويلاً وشاقاً، وأن الرجل الذي سيعرف بالداخل في صفحات التاريخ عبر إلى الأندلس مغامراً لا يمتلك من الأعوان من إلا القليل، ومن السلاح غير

الطموح والجرأة. لذلك كان عليه منذ أن أقتحم قرطبة ظافراً أن يبني لإمارته جهازاً بشرياً مطلق الولاء له على الصعيدين السياسي والعسكري.

كان تركيزه الأساسي علي الجيش كونه الدعامة الأولى لتكريس حكمه ولإعطائه الهيبة المفقودة في عصر الولاة، ونواة هذا الجيش كانت تلك الفئة التي أوصلته إلى قرطبة حيث هو، ولكن في إطار خطة منظمة أصطفى خلالها العناصر المخلصة، وأستبعد الانتهازيين المشكوك بولائهم. وأعلن أن الأندلس مشرّعة الأبواب أمام الملاحقين من الحكم العباسي، فتدفق المئات منهم حيث وجدوا الأمان المنشود، ووجدوا فيهم الصخرة التي يتكئ عليها وسط هذا العباب، وأصر على عدم التعرّض لجماعة المصارة لاسيما عائلة الوالي المهزوم، وهي ممارسة جديدة لم تكن مألوفة في حروب الأندلس الداخلية.

لقد أراد عبد الرحمن إعلان عهد جديد بكل ما تعنيه هذه الكلمة، وذلك لا يتم كما رأى إلا بالقضاء على رواسب التعصب، وانتزاع عوامل البغضاء من المجتمع الأندلسي الذي أراده متلاحماً، وأن يكون هو الحاكم لجميع فئاته وليس لفئة واحدة.

هناك عدة قضايا كان عليه معالجتها، الأولى كانت تنظيمية بحثة تناول إصلاح الأمارة، وتوحيد المجتمع الممزق، وخلق جيش جديد تذوب فيه التناقضات القبلية، وقد أعطى هذا الأخير الأولية الأولى في بناء الدولة، والثانية كانت داخلية أيضاً وهي مطاردة فلول الحكم السابق الذي أعتصم في طليطلة حيث كان يحكمها باسمه أحد الفهريين من أقاربه وهو هشام بن عروة الفهري، ومن هناك أتصل بالصميل الذي لم يعترف بعد بالهزيمة، وكان بدوره يخطط للعودة مجدداً إلى السلطة بمساعدة حزبه القيسي، أما الثالثة فهي خارجية تتمثل بعلاقته مع الخلافة العباسية صاحبة النفوذ المبدئي في الأندلس، وهناك قضية أخيرة وهي العلاقة مع المسيحيين الفرنجة الأسبان، غير أنها لم تكن مطروحة حتى ذلك الحين بإلحاح، فالخطر الحقيقي كان محلياً في المقام الأول، وعباسياً في المقام الثاني[18].

وكانت سيادة عبد الرحمن بعد معركة المصارة لم تكن أبعد من قرطبة، وبعض المدن القليلة الأخرى التي أعلنت تأييدها واعترفت بإمارته، بينما الجزء الأكبر من الأندلس لازال في قبضة القيسيين. وما لبث الفهري الذي كان لازال متعلقاً بأمل العودة إلى الإمارة أن تحرك مع أنصاره القيسيين إلى جيان لموافاة الصميل، حيث كانت جيان ترتبط بولاء خاص نحو الصميل، لذلك أختارها مركزاً لثورته المضادة، وتعزز هذا المركز بوصول الفهري وجماعته، حيث قام الاثنان بهجوم على حامية المدينة، وكان قائدها الحصين بن الدجن أول زعيم قيسي من عرب الأندلس يقف إلى جانب عبد الرحمن يوم كانت دولته مجرد مشروع لم يخرج إلى النور قبل تعيينه في وقت لاحق حاكماً على جيان. وبعد التئام القيسيين فيها من جماعة الصميل والفهري أرغم الحصين على الانسحاب دون أي اشتباك لتصبح السيادة التامة في هذه المدينة إلى

الزعيمين القسيين الصميل والفهري، ولم يعد من مجال الاستهانة بقوة الفهري وحليفه، والتهديد الذي يستهدف عاصمة الإمارة، فبادر عبدالرحمن إلى التحرك نحو معقل الثائرين في ألبيرة قبل أن تضغط عليه عوامل أخرى من الخطر لم تغب عن باله، وقبل أن تتسع دائرة التمرد القيسي كلما ازداد اقتراباً من العاصمة، وأبدا الزعيمين القسيين راهناً على خروجه لاستعادة المدينة، فما كان عبدالرحمن يغادر قرطبة بعد أن عيّن مساعده أبا عثمان قائداً لحاميتها، حتى تحرك من ألبيرة أبوزيد أحد أبناء الفهري نحو قرطبة متحاشياً سلوك الطريق نفسه المتوقع أن يفر منه الأمير الأموي. وكانت الخطة متقنة إلى حد ما، فحامية المدينة ضعيفة وغير قادرة على المقاومة الجدية، وقد دخل أبي زيد إلى دار الإمارة واعتقل قائد الحامية أبي عثمان، ولكن القائد الفهري لم يمكث طويلا هناك لخوفه من مداهمة عبد الرحمن له، وهو لم يكن على مسافة بعيدة كثيراً عن قرطبة، وتناهي إلى ما صنعه الفهري الابن في عاصمته من انتهاك لحرمة القصر وتصفية لمعاونه الأثير، فأستبد به الغضب ولكنه لم يعدل خطته؛ بل تابع سيره إلى ألبيرة حيث الخطر الحقيقي، حتى إذا بلغ قرية صغيرة تسمى أرملة على مقربة من معسكر القيسيين.

غاب فجأة شبح الحرب وحلت مكانه مفاوضات سلمية بعد تقدير الصميل بأن الحظ سيخونه مرة أخرى وذلك لافتقاد التوازن بينه وبين خصمه القوي. وانتهى الأمر إلى الاتفاق بين الطرفين سنة (140هـ/757م)، تعهد فيه الأمير الحاكم بأن يمنح خصومه العفو وعدم التعرّض لأسرهم أو ممتلكاتهم بسوء، مع اشتراط واحد أن يأخذ معه إلى قرطبة اثنين من أبناء يوسف الفهري كرهينتين لضمان حسن النوايا لدى الطرف الأخر، كما عاد معه الزعيمان القيسيان يوسف والصميل ليكونا تحت مراقبته، وكان عبد الرحمن وفياً لما تعهد بتنفيذه، فلم يخرج في تعامله مع خصومه عن الخط العام الذي رسمه لسياسته في تقريب المسافة بين التيارات المختلفة[19].

ودخلت سياسية الوفاق إلى قلوب الناس التي أدمتها مسلسلات الحروب الطويلة، ولكن لوثة الزعامة ظلت تطارد الفهري، ويرفض هذا النمط من الحياة برغم ما يوفر له سبل العيش الكريم، والمقام الذي يليق به كحاكم سابق، وفجأة يفتقده البيت الذي أنزل فيه بعد عام من ثورته الأخيرة سنة (141هـ/ 758م)، ويجري البحث عنه فإذا هو في ماردة مدفوعاً إلى محاولة جديدة تحت تحريض عدد من أنصاره المغامرين، ومن هناك . لأول مرة دون الصميل . يخوض معركة النهاية مع الرجل الذي سحب من تحته كرسي الامارة، وتشير المصادر إلى أن تأييداً كبيراً لقيه في هذه المدينة وجوارها، قبل أن ينتهي إلى محاصرة إشبيلية ويناجز في هناك أمير قرطبة الأموي.

وكانت ردة الفعل لدى هذا الأخير عنيفة جداً، فثار لخبر اختفاء الفهري وخرقه لشروط المعاهدة، وانعكست حالته النفسية على قراراته السريعة بقتل ابني يوسف المرتهنين لديه،

والتضييق على الصميل لاتهامه بأن له طرفاً في حركة الفهري، فألقاه في السجن ليرى ما يشاءه بعد الفراغ من رفيقه الذي كظم له في صدره كل الغيظ. وكان الفهري قد تخلى عن حصار إشبيلية ليمضي مباشرة إلى قرطبة، فهو لم يشأ تبديد الوقت حسب اعتقاده في حصار مدينة ليس في حاميتها إلا القليل من الجند، ولكن هذه المدينة لها أن تمارس دورها الخطير في إحباط عصيان الفهري، حيث أتيح لحاكمها وهو أموي من أسرة عبدالرحمن أن يستقبل قوات جديدة بعد ارتفاع الحصار عنها، وأن يضع الفهري بين فكي خصمه، فسار في أعقابه في وقت كان فيه عبدالرحمن ينتظره في مكان غير بعيد عن العاصمة، فأضطرب يوسف حين رأى الغبار يرتفع وراء فرسان حاكم إشبيلية المرواني، وتثاقلت قدماه ولم يجرؤ على متابعة الطريق إلى قرطبة. ثم ذهب إلى الوراء للتخلص من مطاردة المرواني، وكان واثقاً من النصر لتفوق جيشه، وقبل أن يتفرغ إلى جيش قرطبة الرئيسي، وحتى لا يقع فريسة الجيشين معا، غير أن المعركة انحصرت على مشهد استعراضي قصير من الفروسية انتهى بفرار الجيش الفهري الكثيف العدد، وتبعثره في عدة اتجاهات دون أن تكون مقدمة الجيش الذي قاده عبد الرحمن قد ابتعدت كثيراً عن قرطبة. ولعل افتقاد القيسيين لتلك الفرص العديدة كان من أسبابه الإنهاك الشديد الذي أصاب عناصرهم القتالية خلال الفترة الطويلة مشحونة بالحروب المتواصلة، فكانوا ينجرون إليها طائعين أو كارهين، وكانت مصائرهم معلّقة بين رجلين أحداهما الصميل بمزاجه الغامض، والآخر الفهري المريض بالسلطة لم يملك منها سوى الاسم[20].

وعاد الفهري يبحث عن مأمن يتوارى فيه فلم يجد غير طليطلة التي اعتاد الهروب إليها، دون أن يكتب له بلوغ غايته هذه المرة، وإذا هو على مشارفها وصلت أخباره إلى أحد رجال الأمير الأموي وهو في قرية مجاورة، فطارده مع جماعة مسلحة وتمكن من قتله، وذلك على مسافة أميال قليلة من المدينة، وأرسل رأسه إلى الأمير في قرطبة الذي هو الآخر يقضي على الصميل خنقاً، ويقوم بتصفية من هادنهم من رجال الحكم السابق سنة (142هـ/ 759. 760م)، وتكررت عملية قطع الرؤوس، وأخذت سياسة الحاكم الجديد تصطبغ بلون الدم بعد أن عزف عن خطة السياسي الذي بدأ به مسيرته في الأندلس. فقد أدرك أن إمارته سابحة في محيط من الخصوم والعداوات، وما كاد يلتقط أنفاسه بعد مصرع الفهري والصميل ويقضى على أخطر عدوين في الداخل، حتى وجد أن الانتقال من مرحلة السلطة المحلية في قرطبة إلى السيادة الكاملة على الأندلس مازال يحاط بالألغام، وأن سنوات أخرى شاقة تنتظره قبل أن يبلغ الهدف الذي يريده[21].

تأسيس الإمارة الأموية في الأندلس

ابتدأ عهد الإمارة في الأندلس بانتصار عبد الرحمن بن معاوية في معركة المصارة، ولم تعد الأندلس تتبع الخلافة الإسلامية في المشرق كما كان في عهد الولاة؛ بل أصبحت إمارة مستقلة سياسياً حكمها عبد الرحمن وذريته من بعده. وكان كل واحد من حكامها يسمى أميراً، أما عبد الرحمن فقد لقب بالداخل لأنه أول من دخل الأندلس وحكمها من بني أمية، كما يعرف أيضاً باسم عبد الرحمن الأول تمييزاً له عن أميرين أخرين حكما الأندلس باسم عبد الرحمن هما: عبد الرحمن الثاني أو الأوسط، وعبد الرحمن الثالث الناصر لدين الله.

إما من الناحية الروحية فقد استمر عبد الرحمن الأول لفترة قصيرة من الزمن بالخطبة والدعاء للعباسيين في المشرق، لكنه لم يلبث أن قطع الدعاء لهم بعد أن أشار عليه عبد الملك بن عمر المرواني بذلك، وذكّره بسوء صنيع العباسيين ببني أمية. إلا أن عبد الرحمن تردد أول الأمر، لكنه قطع الدعاء حين هدده المرواني بالانتحار إذا لم يقطع الخطبة للخليفة أبو جعفر المنصور، فقطعها عبد الرحمن بعد أن خطب باسمه عشرة أشهر[22]. ولكن عبد الرحمن وإن كان قد قطع الخطبة للعباسيين إلا أنه لم يلقب نفسه خليفة واكتفى بأن أضاف إلى اسمه لقب (ابن الخلائف).

ويعود السبب في عدم تلقبه بلقب خليفة لأنه وخلفائه كانوا يشعرون بأن الخلافة الإسلامية واحدة لا تتعدد، وأن الخليفة الشرعي للمسلمين الملقب بأمير المؤمنين[23]. ويضيف بعض المؤرخين إلى اسم عبد الرحمن لقب الإمام، وهو أيضاً لقب ديني، لكن يبدو أنه لم يكن لقباً رسمياً يستعمل بالمفهوم الذي يعنيه لقب الخليفة، واستمر خلفاء عبد الرحمن الأول علي هذا الحال حتى مجيء عبد الرحمن الثالث الذي أعلن الخلافة الأموية في الأندلس، وتلقب بلقب أمير المؤمنين سنة (316هـ/929م).

وقد نقل عبد الرحمن الأول صيغة الحكم الوراثي إلى الأندلس، وذلك بنقل السلطة إلى أولاده وأحفاده من بعده، وقد صاحب هذه العملية بعض المشاكل لكنها لم تكن تضاهي ما كان يحصل في المشرق الإسلامي، فقد توفي عبد الرحمن سنة (172هـ/788م) وترك ولاية العهد لأبنه هشام، ولكن ابنه سليمان لم يعترف بهذا الأمر فثار في طليطلة وقامت الحرب بين الأخوين، وانضم الأخ الثالث عبد الله البلنسي إلى سليمان. وقد انتهت الأزمة بهزيمة سليمان وعبد الله ونفيهما إلى المغرب، وقد تجددت المشكلة حين وفاة هشام سنة (180هـ/ 796م) وتولى ابنه الحكم الأول فرجع عماه سليمان وعبد الله وثارا مرة ثانية مطالبين بالإمارة. وانتهت ثورتهما هذه المرة أيضاً بالفشل وبمقتل سليمان سنة (184هـ/ 800م)، أما عبد الله فقد اضطر إلى عقد الصلح مع ابن أخيه الحكم الذي عفا عنه وحدد إقامته في مدينة بلنسية، وقد استمر نظام ولاية

العهد في الأندلس في عهد الإمارة بعد ذلك يسير دون مشاكل، فعهد الحكم بن هشام إلى ابنه عبدالرحمن بولاية العهد، فانتقلت إليه الإمارة دون ضجة أو معارضة، ثم تولى بعد عبدالرحمن الثاني أو الأوسط ابنه الأمير محمد بن عبد الرحمن الذي انتقلت الإمارة إلى اثنين من أبنائه هما: المنذر بن محمد الذي حكم سنتين تقريباً، وعبد الله بن محمد الذي حكم نحو خمسة وعشرين عاماً، وعهد الأمير عبد الله بالحكم من بعده إلى أحد أحفاده وهو عبدالرحمن بن محمد عبدالله الذي حكم نحو نصف قرن، وفي عهده أعلنت الخلافة، وابتدأ عهد جديد في عهود العرب في الأندلس[24].

إحلال سلطة الدولة محل سلطة القبيلة:

كانت السلطة في عهد الولاة قبلية، وعلى الرغم من وجود والي أو أمير للبلاد لكن كل قبيلة كانت تخضع لزعيمها الذي يسعى للحصول على المصالح والامتيازات له ولأفراد قبيلته، وينصرف مع بقية القبائل والعشائر وفقاً لهذه السياسة، وكانت بعض القبائل عندما تنفرد بالسلطة تنكّل بغيرها من القبائل، وأتضح ذلك فيما سبق في موقف الصميل ويوسف من بقية القبائل اليمنية، لاسيما بعد انتصارهما عليهما في معركة شقندة ولذلك فقد كان من أهم أهداف سياسة عبدالرحمن الأول السيطرة القوية على البلاد، والتقليل من نفوذ رجال القبائل، وإحلال سلطة الدولة ممثلة بالأمير محل سلطة القبائل ومنازعاتها، لهذا نرى الأمير عبدالرحمن يقف موقفاً حازماً أمام مؤيديه حينما حاولوا خلق جو من الفوضى والانتقام من المهزومين في معركة المصارة، وذلك بنهب العاصمة قرطبة، وقد ازدادت شكوك عبدالرحمن الأول في جدوى الاعتماد على رجال القبائل وزعمائهم عندما اكتشف مؤامراتهم للتخلص منه في الساعات الأولى بعد انتصاره على يوسف والصميل[25]. ففكر في تأسيس أول جهاز للشرطة للدولة الجديدة وأحاط نفسه بالمؤيدين من موالي الأمويين، كما عهد إلى أقاربه وبعض القادة الموالين من الأجناد بالمناصب الحساسة في البلاد، ونظراً لقلة هؤلاء المؤيدين في أول الأمر، فأضطر عبد الرحمن إلى أن يكيّف نفسه للظروف، ويسترضي قادة القبائل وبشكل خاص اليمنيين، فعيّن زعيمهم أبا الصباح اليحصبي حاكماً على مدينة إشبيلية، ولكن عبد الرحمن كان يخطط للتخلص نهائياً من نفوذ هؤلاء الزعماء ولا يتم هذا الأمر إلا بخلق قوة جديدة في البلاد تحل محل قوة رجال القبائل العرب.

قد اتجه عبد الرحمن إلى تشجيع البربر على الانضمام في جيشه، ودعا الكثير منهم من شمال أفريقيا وعاملهم بكرم زائد، وقد شجع هذا الموقف الذي اتخذه عبد الرحمن من البربر المزيد من إخوانهم الآخرين للعبور إلى الأندلس، والخدمة كقوة أساسية في جيشه، كما أشترى

العديد من العبيد حتى يقال أن عدد جيشه من هذين العنصرين بلغ نحو أربعين ألف رجل، لكنه عمد إلى ازدياد اعتماد النظام الجديد على هذه القوة الفتية [26].

وكان من جملة المماليك الذين اشتراهم عبد الرحمن سودانيون، وقد وضع لهم الأمير عرافة خاصة بهم تسمى بعرافة السود، وهكذا تعددت الأصول التي يتألف منها جيش الأندلس، ولم يعد الأمير يعتمد على العنصر العربي فقط، ومع هذا فقد ظل الجند العربي في الأندلس قوة أساسية، وكان يتألف من فئتين رئيسيتين: الشاميين والبلديين، ولكل منهما نظام دقيق في العطاء، وقد حاول عبدالرحمن أن يستفيد من هذا الجند، إضافة إلى ما استحدثه من عناصر أخرى، ولكنه ألغى ديوان من ثاروا عليه وأسقط لواء جندهم، كما فعل بجند باجة الذي ثار عليه بقيادة العلاء بن مغيث، فقاتله عبدالرحمن وهزمه، ثم أسقط الجند كله من الديوان، أما تنظيم فرق الجيش في عهد عبدالرحمن فكان بسيط يتألف من فرقتين هما: فرقة الفرسان، وفرقة الرجالة[27].

وقد سار الأمير الحكم بن هشام على خطى جده في تثبيت النظام والاستقرار والاستكثار من الجند والمماليك، فيشير بعض المؤرخين إلى الحكم أنه أول من جند الأجناد وأتخذ العدة. ويصفونه بأنه كان أفحل أمراء بني أمية بالأندلس، وأشدهم إقداماً ونجدة، وكان يشبهونه بأبي جعفر المنصور العباسي من شدة الملك وتوطيد الدولة وقمع الأعداء، وقد أكثر من شراء الأسلحة وتوفرها للجند، كما أشترى أعداداً كبيرة من العبيد والمماليك يقدر عددهم بنحو خمسة آلاف مملوك، منهم ثلاثة آلاف فارس وألفا راجل، ولما كان هؤلاء المماليك لا يعرفون اللغة العربية ولا يقدرون على النطق بها فقد سموا بالخرس لعجمتهم[28]، وجعل الأمير الحكم من هؤلاء حرساً له، كما قسمهم إلى سرايا خفيفة حتى تستطيع الحركة السريعة للقضاء على المتمردين على الدولة، ويذكر مؤلف كتاب (أخبار مجموعة): أنه كانت للحكم ألفا فرس مربوطة إزاء قصره المطل على نهر الوادي الكبير، ويحميها داران على كل دار عشرة عرفاء، تحت يد كل عريف مائة فرس. وكان العرفاء يشرفون عليها وعلى علفها حتى تكون مستعدة دوماً لكل ما يطرأ من أمور، فتوجه على الفور بأمر من الأمير للقضاء على أية حركة معادية، أو للقبض على من تسوّل له نفسه القيام على الدولة. وهكذا أستطاع هذا الأمير ومن خلفه من الأمراء أن يثبتوا السلطة والاستقرار في البلاد ويحموها من مخاطر المتمردين والطامعين[29].

محاولة الحفاظ على وحدة الأمة الروحية:

كانت الحياة في الأندلس في الفترة الأولى متأثرة ببلاد الشام، حيث أعتنق أهل الأندلس مذهب الإمام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي إمام الشام(ت157هـ/773م)، وكان هذا الإمام من المجاهدين المرابطين في مدينة بيروت ضد العدو البيزنطي، فقد كان مذهبه يركز على التشريعات الحربية، وأحكام الحرب والجهاد، وكانت هذه الأمور تناسب وضع أهل الأندلس في

الفترة الأولى، حيث كان وضعهم في هذه البلاد قائماً على الحرب والجهاد، ولهذا اعتنقوا مذهب الأوزاعي[30].

ومن العلماء الذين ساروا بالأندلس على نهج الأوزاعي صعصعة بن سلام الشامي(ت202هـ/817م)، حيث كان تلميذاً للأوزاعي، وكان يتولى القضاء بالأندلس أيام الأمير عبد الرحمن بن معاوية، وولي الصلاة بقرطبة، وفي أيامه غرست الشجرة في مسجد قرطبة الجامع، وهذا على مذهب الاوزاعي[31].

ولكن أهل الأندلس بدأوا باعتناق مذهب الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة المدينة المنورة (ت 179هـ/795م)، وذلك منذ أيام الأمير هشام بن عبد الرحمن، وقد انتقلت الفتوى تبعاً لذلك إلى رأي مالك بن أنس، وأنتشر علمه ورأيه في قرطبة والأندلس كلها؛ بل وفي شمال أفريقيا أيضاً. وعندما وضع الإمام مالك كتابه (الموطأ) في الفقه والحديث أي السهل الواضح، ذاع صيت هذا الإمام وأنتشر كتابه في العالم الإسلامي، وأقبل الأندلسيون على اعتناق مذهبه، أما كيفية وصول هذا المذهب إلى الأندلس فترجع إلى جهود بعض الفقهاء ورجال العلم الذين كانوا يرحلون إلى الحجاز في موسم الحج، وهناك يلتقون بالإمام مالك ويأخذون عنه علمه ومذهبه، وعندما رجع هؤلاء إلى بلدهم وصفوا فضل مالك، فأنتشر رأيه وعلمه بالأندلس. وكان رائد هذه الجماعة زياد بن عبد الرحمن بن زياد اللخمي المعروف بـ شبطون (ت204هـ/819م)، وهو الذي كان فقيه الأندلس على مذهب مالك، وهو أول من أدخل موطأ مالك إلى الأندلس، وأخذ عنه تلميذه يحي بن يحي الليثي (ت234هـ/ 848م)، ولُقب بعاقل الأندلس، فقد ارتحل يحيى إلي المدينة ولازم الإمام مالك، ودرس على يديه، وكان الإمام مالك هو الذي لقبه بعاقل الأندلس[32].

إما على الصعيد الرسمي فقد استهوى المذهب المالكي الأمير هشام بن عبد الرحمن الذي نقل إليه بعض الأندلسيين ثناء وإعجاب مالك بن أنس به ومدحه له بقوله: نسأل الله أن يزين موسمنا به، ونسأل الله أن يزين حرمنا بملككم، ولهذا فقد حمل هشام الناس على مذهب الإمام مالك، وترك المذهب الأوزاعي[33]. وبطبيعة الحال لا يمكن لمذهب من المذاهب أن ينتشر في بلد ما لمجرد الإعجاب المتبادل بين إمام المذهب وأمير البلد، ولابد أن تكون هناك عوامل أخرى سياسية واجتماعية ونفسية ساعدت على انتشار مذهب الإمام مالك في الأندلس.

فقد قامت الإمارة الأموية مستقلة عن الشرق، وبشكل خاص عن الدولة العباسية التي كان مذهبها الرسمي هو المذهب الحنفي. ويبدو أن تآلفاً في الموقف إزاء الدولة العباسية جمع بين أنس والأمير هشام بن عبد الرحمن، فقد كان الإمام مالك لا يميل إلى العباسيين حتى أنه أفتى ضدهم لصالح انضمام الناس إلى ثورة محمد ذو النفس الزكية.

وقد أدت فتوته إلي غضب الخليفة أبو جعفر المنصور ووالي المدينة الذي عذب الإمام مالك، ولهذا فاعتناق أهل الأندلس وأميرهم بشكل خاص لمذهب مالك يحمل بعداً سياسياً ويحقق لهم النزعة الاستقلالية عن غيرهم من البلدان، ويؤكد شخصيتهم المتميزة.

ومن ناحية أخرى فقد كان لطبيعة أهل الأندلس والمغرب أثر في تقبلهم لمذهب مالك ونبذ غيره، وذلك أن هذه الطبيعة كانت تتميز بالبساطة والبعد عن التعقيد، وهذه تشبه طبيعة أهل الحجاز الذين تغلب عليهم نزعة أهل الحديث والاعتماد على مذهب الإمام مالك الذي يتقيد بنصوص القرآن والحديث، ولا يلجأ إلى استعمال الرأي والقياس إلا في حدود ضيقة.

وهذا على عكس البيئة العراقية التي تتميز بالتعقيد لأنها تضم أجناس متعددة، وملل مختلفة مما أدى إلى ظهور قضايا ومشاكل جديدة لا تنطبق عليها النصوص، وتحتاج إلى الاجتهاد والاستنتاج العقلي، وعلى هذه الأسس يقوم المذهب الحنفي، ويعرف أتباعه بأهل الرأي والقياس، إما عقلية أهل الأندلس فكانت تغلب عليها نزعة أهل الحديث، ولهذا اعتمدوا أولاً على مذهب الأوزاعي، وهو من أنصار مدرسة الحديث، ثم اعتمدوا بعد ذلك على مذهب مالك الذي يسير في هذا الاتجاه ويعرف أصحابه بأهل الحديث[34].

وهناك عامل آخر ربط أهل الأندلس بأهل الحجاز أكثر مما ربطهم بأهل العراق، ذلك أن معظم العرب الفاتحين للأندلس كانوا من أصل حجازي، وخاصة أولئك الذين جاءوا مع موسى بن نصير، أما البقية فهم من بلاد الشام ومصر، أي الذين دخلوا مع بلج بن بشر. ولم يكن في هذه الجيوش من ينتمي إلى أهل العراق، فقد كان من الطبيعي أن يحاول هؤلاء الحجازيون الاتصال بأهاليهم والعودة لأداء فريضة الحج، وقد ساعد هذا الأمر على اتصالهم بالإمام مالك والتعرف على مذهبه.

ومع هذا فإن انتشار مذهب مالك وتمسك الأمراء الأمويين به بقصد الإعجاب به وتفضيله على غيره من المذاهب، أو لتأكيد شخصيتهم الاستقلالية أدى إلى نوع من الاستقرار في البلاد، لأن سياسة المذهب الواحد هذه جنبت الثغور الإسلامية، ورجال القبائل بشكل عام أضرار الفتن المذهبية، وحفظت لها سلامتها ووحدتها الروحية.

واستمرت الأندلس طيلة عهد الإمارة، بل طيلة العهود الإسلامية الأخرى تعتنق هذا المذهب، وتتمتع بالاستقرار الروحي الذي شمل أيضاً ممالك شمال أفريقيا، ولاتزال بلدان هذه المنطقة تحتفظ باعتناقها لهذا المذهب إلى الوقت الحاضر.

ولقد أثر اتخاذ العرب في الأندلس لسياسة المذهب الواحد على الممالك المسيحية المجاورة التي قامت في إسبانيا، فقد اتبعت هذه الأخرى سياسة المذهب الديني الواحد، واقتصرت على المذهب الكاثوليكي، وتعصبت له فأصبحت أكثر تمسكاً وتعصباً للبابوية الكاثوليكية من البابا نفسه.[35]

القضاء على الثورات والفتن الداخلية:

تعرّض عصر الإمارة الأموية إلى العديد من الثورات والفتن الداخلية التي كانت تقوم بها مختلف العناصر التي تألف منها المجتمع الأندلسي الجديد، وأشترك في هذه الفتن الفاتحون الذين كانوا يتألفون من القبائل العربية والبربر، كما ساهم فيها أيضاً أهل البلاد الأصليون، سواء منهم من دخل الإسلام كالمولدين، أو من بقى على دينه وتثقف بالثقافة العربية كالمستعربين، ولم تندمج هذه الأجناس المختلفة بعضها ببعض، ولهذا فقد كانت الأمور تتوقف على مدى قوة وصلابة الأمراء والحكومة المركزية في قرطبة، فإذا قويت هذه الحكومة أمكن السيطرة على الأجناس، والقضاء على ما تقوم به من تمرد على السلطة، أما إذا ضعفت الحكومة المركزية، وتولى الإمارة أمير غير حازم نشطت هذه الجماعات، وقامت بالتمرد ومحاولة الاستقلال على الإمارة الأموية، وكانت طبيعة البلاد الجغرافية الجبلية تساعد هذه الفئات على ما تريد من التمرد والانشقاق ومحاولة الاستقلال[36]، ومن أهم هذه الثورات هي:

أولاً: ثورة القبائل العربية في عهد عبد الرحمن الأول:

كانت السياسة الرئيسية للأمير عبد الرحمن الأول تهدف إلى السيطرة القوية على البلاد، والحد من نفوذ رجال القبائل العرب، ولهذا حاول التقليل من الاعتماد عليهم وخلق قوة جديدة في شبه الجزيرة تعتمد على المماليك والبربر القادمين من شمال أفريقيا. وعندما أدرك رجال القبائل اليمنيون وحلفاؤهم من البربر ما يرمي إليه عبد الرحمن ازدادت مخاوفهم من النظام الجديد وابتدأوا بالثورة عليه، يضاف إلى هذا أن مجيء عبد الرحمن إلى الحكم لم يحقق لهم مكان يصبون إليه من السلطات والامتيازات، والتسلط على المنهزمين من جماعة يوسف الفهري والصميل. وتبين لهم أن الأمير الجديد عدهم أداة للوصول إلى الحكم، ثم عاملهم معاملة الأتباع الذين عليهم واجب الطاعة فقط، فكره شيوخ اليمنيين ذلك، بل أن بعضهم حاول الانقلاب على الأمير ومواليه. وكان أول من رفع راية العصيان من اليمنيين على عبد الرحمن الأول هو: العلاء بن مغيث الجذامي، رئيس جند مصر في باجة جنوب البرتغال الحالية سنة (146هـ/763م)، وكان وراء هذا العصيان الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، فحرّض العلاء على التمرد واسترداد الأندلس للخلافة العباسية، ووعده بإمارة الأندلس إن هو تمكن من النجاح والانتصار على عبد الرحمن بن معاوية، وقد أرسل له سجل تعينه على البلاد، والرايات السوداء شعار العباسيين لاتخاذها أعلاماً للثورة[37].

وعلى الرغم من هذا فإن بعض الروايات التاريخية تذكر أن الخلافة العباسية لم تكن مستعدة لذلك، وأبو جعفر المنصور بالذات كان مشغولاً في ذلك الوقت بحل المشاكل العديدة التي كانت تواجهه في المشرق العربي، وليس من المعقول أن يفكر بإرسال جند أو بالتأييد

العسكري لمغامرة بعيدة جداً عن مركز دولته في العراق، يضاف إلى ذلك أن العباسيين لم يكونوا مسيطرين حتى ذلك الحين على المغرب، وكانت سلطتهم مهزوزة في أفريقية أي تونس الحالية، فكيف يفكرون بالاستيلاء على الأندلس البعيدة، ولكن هذا لا يعني أن المنصور لم يظهر الرضى عمن يدعو باسمه في الأندلس أو في غيرها. وقد يكون العلاء بن مغيث دعا من تلقاء نفسه إلى الخلافة العباسية لتقوية حركته، وإظهاراً لقدسيتها، ولجمع أكبر عدد ممكن من الناقمين على نظام الحكم والمؤيدين لأحداث التغيير في البلاد.

وقد أنضم إلى الثورة أعداد كبيرة من اليمنيين، وجميع العناصر الساخطة على حكم عبد الرحمن، فتضخم جيش العلاء وسارع عبد الرحمن لمحاربته، لكن العلاء انتصر عليه وحاصره في مدينة قرمونة لمدة شهرين، وأخيراً تشجع الأمير وخرج بجنوده من هذه المدينة، وهو ينوي الانتصار أو الموت، فأنقضوا على جند العلاء وقتلوا منهم عدداً كبيراً من ضمنهم العلاء نفسه.

وتزعم الروايات التاريخية أن عبد الرحمن أمر بحمل رأس العلاء ورؤوس بعض كبار مؤيديه، بعد أن حشيت بالملح والكافور، إلى القيروان حيث طرحت ليلاً في بعض أسواقها، وقد وصل خبر هذا الحادث إلي أبي جعفر المنصور، فأنزعج من هذا الأمر، ولهذا لقّب المنصور علي أثر هذا الحادث الأمير عبد الرحمن بن معاوية بلقب صقر قريش، وذلك اعترافا منه بقوة وعزيمة هذا الأمير الذي استطاع أن يؤسس بمفرده دولة، ويمصّر الأمصار، ويجند الأجناد، ويدّون الدواوين، وينال ملكاً بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمته.[38]

وبعد نحو ثلاث سنوات على فشل حركة العلاء بن المغيث ثار قائد عربي آخر يدعى سعيد اليحصبي المطري في نبلة انتقاماً لدماء الذين قتلوا مع العلاء، وقد أنضم إليه عدد كبير من اليمنيين، فسار إلى إشبيلية وأستولي عليها، ثم نزل بقلعة رعواق الواقعة على نهر الوادي الكبير بالقرب من إشبيلية وتحصن بها، فسار إليه عبد الرحمن وحاصره واضطره إلى الخروج والقتال. وكانت النتيجة مقتل قائد الثورة والعديد من أتباعه، وتفرق الباقين حيث عفي عنهم الأمير عبد الرحمن.

وفي العام نفسه (149هـ/ 766م) ثار أبو الصباح بن يحيى اليحصبي، وكان الأمير قد ولاّه على إشبيلية بعد قيام الإمارة الأموية، ولكنه كان يشك في ولائه منذ دعوته للإطاحة به بعد انتهاء معركة المصارة، ولهذا عزله بعد فشل ثورة المطري، فنقم عليه أبو الصباح، فكاتب الأجناد وألبهم على عبد الرحمن، وعندما تبين للأمير تعاظم نفوذ أبي الصباح وقوته وتأثيره على الأجناد، حاول التفاوض معه واستدراجه بالحيلة إلى قرطبة حيث قتله في العام نفسه، فتفرق جنده[39]. وقد كان لمقتل أبي الصباح أثر بالغ على القبائل اليمنية في غرب الأندلس، لأنه كان سيد العرب في هذه المناطق، وكان أقاربه زعماء لكور متعددة فيها، فازدادت نقمتهم على عبد الرحمن، وتحينوا الفرص للثورة عليه، وقد سنحت لهم الفرصة سنة (156هـ/772م) عندما كان

الأمير مشغولاً بالقضاء على إحدى ثورات البربر في وسط البلاد، فثار اليمنيون في إشبيلية ونبلة وباجة بقيادة حيوة بن ملامس الحضرمي، وعبد الغافر اليحصبي، وأنضم إلى الثورة أيضاً كل من: عمر بن طالوت اليحصبي، وكلثوم بن يحصب، وقصدوا جميعاً قرطبة.

ومما زاد في خطر هذه الثورة انضمام العديد من البربر المؤيدين لليمنيين في المنطقة إليها، وقد سارع عبد الرحمن للقضاء عليها وإخمادها، واستخدم أسلوب التفريق بين البربر واليمنيين مستعيناً بمواليه من البربر، فداخل هؤلاء بني جلدتهم في معسكر الثوار وأقنعوهم بالتخلي عن زعماء الثورة والانضمام إلى عبد الرحمن الذي وعدهم بالعطاء وضمهم إلى الديوان. وفي المعركة التي وقعت فيما بعد بين الطرفين تخلى البربر عن حلفائهم اليمنيين، وانضموا إلى جيش عبد الرحمن، فوقعت الهزيمة على الثوار وقتل معظم قادتهم[40].

ثانياً: ثورات البربر:

بالإضافة إلى مساهمة البربر في معظم الثورات التي قامت بها القبائل العربية في الأندلس، كانت لهم حركاتهم الخاصة بهم ضد السلطة الأموية، ويرجع السبب في هذا إلى عدة عوامل منها: أن الكثير منهم كانوا حلفاء للقبائل العربية وتربطهم مصالح مشتركة فيثورون معهم تبعاً لذلك. وكانوا منذ فترة الفتح وعصر الولاة متبرمين من أوضاعهم ويميلون إلى الشغب والتمرد، ولكن ظهرت عوامل أخرى دفعت جماعات من هؤلاء البربر إلى الثورة ورفع راية العصيان ضد السيادة العربية. فقد استغل أحد رجالهم المدعو شقيا بن عبد الواحد المكناسي طيبة البربر فأدعى أنه من ولد الحسن بن علي، وأنه فاطمي النسب خاصة وأن اسم أمه كان فاطمة، فأتخذ له اسماً عربياً هو عبد الله بن محمد، وأخذ يدعو الناس لنفسه والثورة على حكومة قرطبة.

وقد بدأت دعوة هذا الرجل الذي كان بالأصل معلماً للصبيان في شنتبرية شرق الأندلس، ثم امتدت إلى إقليم عديدة في وسط وشمال إسبانيا وغربها، وتبعه العديد من بربر هذه المناطق الذين آمنوا بدعوته، أو طمعوا بالحصول على امتيازات أو وضع أفضل في حالة الانتصار.

واستمرت هذه الحركة التي قامت في عهد الأمير عبد الرحمن الأول ما يقارب عشر سنوات (151 . 160هـ/768 . 777م)، وكان الأمير خلالها يسير عليه العديد من الحملات، ولم يتمكن الأمير عبد الرحمن من القضاء على هذه الحملة إلا بالتعاون مع أحد زعماء البربر الآخرين وهو هلال المديوني الذي عينه على شنتبرية، وأوكل إليه مهمة القضاء على التمرد. وقد استطاع هذا الأخير أن يدبر مؤامرة لاغتيال زعيم الحركة شقيا سنة (160هـ/777 م) وهكذا انتهت هذه الثورة.[41]

وقد قام البربر ببعض الحركات الأخرى للعصيان على السلطة الأموية، منها تمرد إبراهيم بن شجرة البرنسي في مورو، ومنها تمرد بربر نفزة، لكن الأمير عبد الرحمن الأول استطاع القضاء عليها بسهولة.

استمرت جماعات عديدة من البربر في العصيان والفتنة، ففي عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن قام تمرد في إقليم رندة، وأعلن سكانها من البربر الخلاف على السلطة، وأغاروا على الناس، وهاجموا الإقليم بكامله، وقتلوا العديد من العرب، فأنذرهم الأمير هشام أولاً، وعندما أصروا على العصيان هاجمهم وقتل العديد منهم، وفر الباقون إلى مدن أخرى.

وكانت مدينة ماردة في غرب إسبانيا بؤرة لثورات البربر، فقامت فيها ثورة في عهد الحكم بن هشام دامت نحو سبع سنوات، وقد تزعم هذه الثورة أصبغ بن عبد الله بن وانسوس الذي كان قائداً للأمير، فساءت العلاقة بينه وبين حكومة قرطبة، لكن أصبغ طلب الأمان بعد سبع سنوات، فأمنه الأمير الحكم ودعاه للإقامة في قرطبة.

وقد قام البربر بتحرك خطير آخر في ماردة في عهد عبد الرحمن الثاني وذلك سنة (213هـ/828 م)، وقد أشعل نار الثورة هذه المرة رجل بربري اسمه محمود بن عبد الجبار، وأنضم إليه أحد المولدين واسمه سليمان بن مرتين.

وقد أستقل هذان الزعيمان في المدينة، ولم تفلح محاولات الأمير في استعادتها إلا بعد أن توجه بنفسه إليها وحاصرها ودخلها سنة (219هـ/ 834م)، وفر الثائران من المدينة، ثم أستقل محمود بن عبد الجبار بالحركة تساعده أخته جميلة، وزحف إلى بطليوس وباجة، وعندما ضايقته حملات الأمير اضطر إلى الهرب إلى جليقية، والالتجاء إلى ملكها ألفونسو الثاني، الذي ساعده في حركته الانفصالية ليحقق مكاسب سياسية لمملكته على حساب الإمارة الأموية، فحاول العودة إلى الطاعة لكن ألفونسو أفسد عليه خطته واضطره للقتال فقتل وأُسرت أخته.[42]

ثالثاً: حركة أوهيجة الربض:

تعني كلمة الربض من الناحية اللغوية الحي أو الضاحية، والمقصود بها هنا المنطقة السكنية الجديدة التي استحدثت في قرطبة بعد أن أصلح الأمير هشام بن عبد الرحمن الجسر الذي يصل قرطبة القديمة المسورة بالضفة الأخرى من النهر حيث تقع ضاحية شقندة.

وقد سكن الكثير من الفقهاء هذه الضاحية لقربها من المسجد، كما استقر أيضاً في هذا الحي أو الربض العديد من الحرفيين، وأهل الأسواق، والتجار، ومعظم هؤلاء من المولدين.

وتعود جذور هذه الفتنة التي قادها الفقهاء المالكيون ضد الأمير الحكم بن هشام إلى انتشار قوة وتسلط الفقهاء في عهد أبيه هشام الذي كان يعمل بمشورتهم ويتأثر بنفوذهم. ولكن الحكم كان يختلف عن أبيه فلم يكن ميالاً لقبول وصاية الفقهاء، ولم يستسلم لتأثيرهم؛ بل كان

على العكس يميل إلى اللهو، والصيد وغيرها من الأمور التي لا يستسيغها هؤلاء الفقهاء. وهكذا نشأت هوة عميقة بين هؤلاء وبين الحكم الذي حدّ من نفوذهم. ولقد بدأوا بمحاربته بوسائل شتى أهمها: تأليب العامة عليه، والطعن بسلوكه الديني والأخلاقي. واستجاب العامة من سكان الربض لهذا التحريض، وخاصة أنهم كانوا طبقة اجتماعية كبيرة لها آمالها وتطلعاتها الاجتماعية والسياسية، وكان للحكم أيضاً دوره في تأجيج هذه الفتنة بما وضعه من ضرائب جديدة ومغارم على الشعب. مرت هذه الفتنة بدورين:

الأول: حينما حاول وجوه أهل قرطبة وفقهاؤها القيام بمؤامرة لعزل الحكم سنة (189هـ/804-805م)، واختاروا أحد أقاربه من الأسرة الأموية الحاكمة بدلاً منه. ولكن هذا الأخير واسمه محمد بن القاسم تظاهر بالرضا ثم أفشى بسر المؤامرة، وأسماء المتآمرين إلى الحكم. فقبض عليهم الأمير وصلبهم، وكان عددهم كبيراً من ضمنهم فقهاء كثيرون.[43]

وقد ازداد سخط الفقهاء والعامة بعد هذه الحادثة، وأخذوا يتحينون الفرص للقيام على الأمير الحكم. وأدرك الأمير هذه الحقيقة فقام باتخاذ اجراءات عديدة لحماية نفسه وتحصين مدينة قرطبة ضماناً أمام أية محاولة للثورة، فأتقن بناء سورها ورممه، كما حفر حولها خندقاً وقوى أبواب قصره، ثم أكثر من شراء واستخدام المماليك والعبيد في الجيش.

أما الدور الثاني: الذي مرت به هذه الفتنة فقد وقع بعد نحو أربعة عشر عاماً من مؤامرة الفقهاء الأولى وإعدامهم. وكان السبب المباشر لهذه الفتنة بسيطاً في حد ذاته، لكنه كان كالشرارة التي فجرت هيجان الخلاف بين أهل الربض الجنوبي ومحرضيهم من الفقهاء، فقد نشب خلاف بين حداد وأحد حراس الأمير بشأن إصلاح سيف الحارس وذلك بسبب تباطؤ الحداد في إنجاز العمل، ولم يلبث هذا الخلاف أن تطور إلى نزاع أدى إلى مقتل الحداد، وقد أثار هذا الحادث غضب أهل الربض من المولدين، فقتلوا الجندي وتجمهروا يريدون التوجه إلى قصر الإمارة وقتل الأمير الحكم باعتباره مسئولاً عما حدث، فعبروا الجسر على الرغم من مقاومة حرس الأمير، وأحاطوا بالقصر الذي تحصن فيه الأمير واتباعه. وقد تفتق ذهنه إلى خطة للقضاء على المتمردين، فدعا رئيس حرسه الخاص للدفاع عن القصر، وأرسل اثنان من قواده ليعبروا النهر من مخاضة ضحلة بعيداً عن الجسر الذي يسيطر عليه المتمردون، فتمكنت هذه القوة التي يقودها القائدان عبيد الله بن عبد الله البلنسي، وإسحاق بن المنذر القرشي من العبور وتوجهت إلى منازل أهل الربض وأشعلت فيها النيران، وعندما أحس المتمردون بذلك تفرقت صفوفهم، وتوجه قسم كبير منهم لانقاد أهله وماله، فوقعوا بين جند الأمير من الأمام والخلف، وقتل منهم عدد كبير جداً.[44]

وبعد انتهاء المقاومة ألقي القبض على نحو ثلاثمائة رجل من زعماء الفتنة، وصلبوا صفاً واحداً على نهر الوادي الكبير، ثم أمر الحكم بهدم الربض، وحرث أرضه وزراعتها، ونفى

من بقي من سكانه إلى خارج الأندلس. وقد ظل الربض الذي ما يزال موقعه يعرف لحد الآن باسم Arrabal مهجوراً من السكان لما يقرب من قرنين من الزمن بعد عهد الحكم الذي اقترن اسمه باسم هذا المكان فسمي بالحكم الربضي.[45]

إن الأمر المهم في هذه الفتنة هو نتائجها سواء على الصعيد الداخلي أم على الصعيد الخارجي. فنتائجها الداخلية بالنسبة إلى الأندلس أدى القضاء على هذه الهجمة التي أثارها الفقهاء إلى توطيد الحكم للإمارة الأموية، لأنها أزالت قوة ونفوذ الفقهاء.

إما بالنسبة إلى نتائجها الخارجية فقد كانت على نطاق أوسع وأشمل، ذلك أن أفواج الربضيين المنفيين إلى خارج الأندلس حطت في أماكن عديدة وأثرت على سير الأحداث فيها، فقد استقر فريق منهم في المغرب، فأقاموا بالحي المعروف بحي الأندلسيين، ونقلوا معهم مظاهر الحضارة الأندلسية، وطبعوا المدينة بطابع أندلسي جميل. أما الفريق الآخر من الربضيين فقد واصلوا سيرهم في البحر حتى وصلوا إلى مدينة الإسكندرية وسيطروا عليها مستغلين الفوضى والاضطراب الذي حل بالبلاد جرّاء الفتنة بين ابني الرشيد الأمين والمأمون. وعندما استقرت الأمور للأخير أرسل قائده عبد الله بن طاهر بن الحسين فحاصر الأندلسيين الذين اضطروا إلى مصالحته، واتفقوا معه على مغادرة البلاد وعدم التوجه إلى أية بقعة تابعة للعباسيين، ثم اتجهوا إلى جزيرة كريت فاستولوا عليها بقيادة زعيمهم أبي حفص عمر بن عيسى البلوطي، وأسسوا فيها دولة حكمت نحو مائة وخمسة وثلاثون عاماً، ونشروا فيها الإسلام، وأسسوا المدن، وقد صارت كريت قاعدة بحرية إسلامية مهمة تهدد سواحل الإمبراطورية البيزنطية. ولكن أمر الدولة الإسلامية انتهى بتغلب البيزنطيين عليهم، واسترجاع جزيرة كريت في عهد الإمبراطور رومانوس الثاني سنة (349هـ/960م)، فتفرق أمر الأندلسيين فيها فرجع قسم منهم إلى الأندلس، وقسم آخر إلى مصر وصقلية. وهكذا فإن فتنة الربض لم تؤثر فقط على الأندلس، بل شمل تأثيرها أماكن بعيدة جداً، وحمل الألوف من الأندلسيين هذا التأثير الإيجابي الفعال إلى الأماكن التي هاجروا إليها.

رابعاً: حركات المولدين:

إن المولدين كانوا من سكان أهل البلاد الأسبان والقوط الذين اعتنقوا الدين الإسلامي منذ الفتح، واندمجوا في المجتمع الجديد الذي يضم العرب، والبربر، والمولدين، والمستعربين، أي النصارى الأسبان الذين آثروا الاحتفاظ بدينهم لكنهم تأدبوا بآداب اللغة العربية، وبعادات العرب.

وقد كان المولدون يطمحون إلى وضع اجتماعي وسياسي أفضل، وذلك بمشاركة العرب للحكم والسلطان، ثم تحول موقفهم بالتدريج إلى التمرد ومحاولة الاستقلال عن سلطان بني أمية في قرطبة. ومما شجع المولدين على السير بهذا الاتجاه تركز مجموعات كبيرة في مناطق

تساعد على الانفصال والتمرد في المدن القريبة من خط الحدود ودمج الدول المسيحية في الشمال، وقد دعمت قرطبة بعض القبائل العربية في المناطق التي كثرت فيها حركات المولدين مثال ذلك: أسرة بني نجيب العربية، ونظراً لكثرة حركات المولدين وثوراتهم في عهد الإمارة الأموية فأن أبرزها ثورة المولدون في مدينة طليطلة الذين ثاروا علي الأمير الحكم الأول وابنه عبد الرحمن الثاني.

بالإضافة إلى كثرة عدد المولدين في طليطلة فإن أهلها لم ينسوا عز هذه المدينة ومجدها قبل الفتح، وإنها كانت عاصمة البلاد، وكان أهلها يعتزون أيضاً بثروتهم وحصانة مدينتهم، ولذا نجدهم يساهمون في الكثير من الفتن التي كانت تقوم على حكومة قرطبة ويتحينون الفرص دائماً لشق عصا الطاعة للاستقلال بمدينتهم، ولكن الأمراء الأمويين قاوموا هذه الثورات والفتن واستعملوا أساليب قاسية جداً في سحق حركات المولدين وتثبيت السلطة الأموية في البلاد.

ثار المولدون في طليطلة علي الأمير الحكم سنة (181هـ/797م)، وتزعم الثورة رجل يدعى عبيدة بن حميد. وقد استطاع الحكم أن يقضي على هذه الثورة بواسطة مول من مدينة وشقة اسمه عمروس بن يوسف، وقد نجح بإغراء بعض وجهاء المدينة لاغتيال عبيدة بن حميد، لهذا خمدت الثورة وحاول الحكم استخدام أسلوب الدهاء والحيلة مع أهل المدينة فعيّن عليهم عمروس بن يوسف حتى يطمئنوا إليه لأنه من بني جلدتهم. وعندما آنس له أهل طليطلة تظاهر أمامهم بأنه أكثر منهم حقداً على الأمير الحكم وعلى بني أمية عامة، فوثقوا به ومنحوه طاعتهم وأطلعوه على أسرارهم. وبتوجيه من الأمير الحكم كان يبيت لهم خطة دموية للقضاء على مقاومتهم المستمرة، وأقنع زعمائهم بضرورة بناء قلعة حصينة بظهر طليطلة بحجة إيواء الجند والمماليك بعيداً عنهم وعن نسائهم، فبنيت القلعة وأخذ التراب اللازم لبنائها من نفس المكان فظلت فيه حفرة كبيرة، وأخبر الأمير الحكم بانتهاء البنيان لاتخاذ الخطوة التالية في العمل، فسير الحاكم جيشاً بقيادة ابنه عبد الرحمن بحجة مقاتلة النصارى في الشمال.

وعندما وصل هذا الجيش بالقرب من طليطله أعلن عن انسحاب العدو وبدء الجيش للتهيئ للرجوع ولكن عمروس خرج إلى الأمير مع وجهاء أهل المدينة ودعوه للدخول فوافق الأمير عبد الرحمن بعد التمنع.

ثم أقام عمروس وليمة كبيرة للأمير، دعاء إليها زعماء المدينة وكبار الشخصيات فيها، فحضروا إلى القلعة التي احتشد فيها الجند وقد أوهمهم عمروس أنه ما إذا انتهوا من طعامهم خرجوا من الباب غير الباب الذي دخلوا منه ولكن أحد منهم لم يستطيع الخروج لأن الجند الذين اصطفوا على طرف الحفرة قتلوا كل الداخلين دونما أن يشعر بهم الباقون، وهكذا بلغ عدد القتلى نحو سبعمائة رجل.[46]

ويدل هذا على عظم أمر هذه المذبحة التي سميت بواقعة الحفرة والتي جردت المدينة من زعمائها، ولكن هذه القصة لم تمنع طليطلة من التمرد على الأمراء الأمويين إلا فترة قصيرة، فسرعان ما تواصلت الثورة الثانية في عهد الحكم نفسه، ثم اتخذت ثورات الموالين بعداً أخطر حين تولى السلطة أمراء ضعاف فظهرت بوادر التفكك والتجزؤ والحركات الانفصالية مثل حركة ابن حفصون.

خامساً: حركات المستعربين:

لم يقم المستعربون بحركات عنف وتمرد على الدولة الأموية في الأندلس على نطاق واسع، ولكن بعضهم شارك في فتن المولدين التي كانت تقوم في المناطق المختلفة من البلاد، وحاول بعض المستعربين المتطرفين في قرطبة إثارة فتنة ضد الحكم العربي الإسلامي في الأندلس، وكان أبطال هذه الحركة جماعة من غلاة رجال الدين المتعصبين الذين نقموا على سيادة العرب والإسلام في البلاد.

إن دوافع هؤلاء لم تكن لها علاقة بأي اضطهاد ديني للمسيحيين، لأن التسامح الديني كان سائداً في الأندلس، وبشكل خاص في عهد الأمير عبد الرحمن الثاني الذي حدثت في عهده هذه الحركة، فكانت حرية المعتقد مضمونة، وعاش رجال الدين المسيحي من أساقفة ورهبان في أمن وسلام، لا يتعرض لهم حكام المسلمين بسوء.

وكانوا المستعربون بشكل خاص قد تحسنت حالتهم الاجتماعية والاقتصادية إلى حد كبير؛ بل أن عدد كبير منهم استطاع أن ينال مراتب عليا في الإدارة والجيش، وامتهن الباقون التجارة في المدن الكبرى والثغور، كما عملوا في مزارعهم الخاصة، أو في ضياع المسلمين دون إكراه أو استغلال.

لكن هذه الحالة الفريدة في التسامح التي رضي ورحب بها غالبية المستعربين، لم تلق التأييد من جانب القسيسين المتعصبين في الكنائس والأديرة، الذين ظلوا قابعين في أماكنهم بعيداً عن التطور الذي حل بجماعتهم، ذلك التطور والاندماج الذي أدى إلى تكلم المستعربين بلغة الفاتحين العرب. فالكثير من المستعربين اقتبسوا عادات الفاتحين وتقاليدهم الاجتماعية التي كانت كما يرى رجال الدين المتعصبون لا تتلائم مع العقيدة المسيحية مثل: الختان، واتخاذ الجواري، والمصاهرة مع المسلمين.

إن إطلاق اسم المستعربين على هؤلاء يدل على دلالة قاطعة على مدى الميول والاتجاهات نحو الثقافة العربية التي كانت تتغلغل في نفوس هذه الطبقة من المجتمع الأندلسي، فأهملوا دراسة اللغة اللاتينية التي هي لغة الدين المسيحي، فأدى هذا بالتدريج إلى ذوبان الحضارة المسيحية اللاتينية، ولقد بلغت اللغة اللاتينية في بعض أجزاء إسبانيا درجة كبيرة من

الانحطاط، حتى بات من الضروري أن تترجم قوانين الكنيسة الإسبانية القديمة والإنجيل إلى اللغة العربية ليسهل استعمالها على المسيحيين.[47]

أفزعت هذه الحالة غلاة المتعصبين من رجال الدين، وبدأ لهم مستقبل الكنيسة مخفياً، لأعراض أبنائهم عن الثقافة المسيحية، والاتجاه نحو الاستعراب. وعندما لم يفلحوا في وقف هذا التيار حاولوا افتعال أزمة مع الحكم العربي المتسامح، وذلك بإظهار الاستخفاف بالإسلام، وسب نبيه محمد عليه الصلاة والسلام، والتقوّل علي بالباطل إلى حد الشطط، استفزازا لمشاعر المسلمين وانتهاكاً لحرمة ديانتهم جهراً وبغير سبب، وكانوا بهذا يرمون إلى خلق جو من التوتر والشعور بالاضطهاد، لأن الشرع الإسلامي يعاقب على هذه الجريمة بالموت، ومن ثم يبدو للمسحيين بأن المسلمين يقتلون إخوانهم ويضطهدونهم، وهكذا يمكن استعادة من أسلم من هؤلاء، أو حملهم على عدم التعاطف والتعاون مع المسلمين.

ولقد تزعم هذه الفتنة المتطرفة وحرّض عليها بعض الغلاة من أمثال: ايلوخيو، والفارو، وذلك في أواخر عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط. فكانا يدعوان النصارى لسب الرسول صلى الله عليه وسلم والطعن في الإسلام علناً، واقتحام المساجد والاعتداء على المسلمين والتقليل من شأن دينهم. وعلى الرغم من أن عدد هؤلاء المتعصبين الانتحاريين لم يكن يزيد في مجموعه عن أربعين شخصاً، لكن حكومة قرطبة خشيت سوء عاقبة هذه الحوادث وأثرها على شعور عامة المسلمين، فلم تجد مناصاً من تطبيق الشرائع والقوانين بمعاقبة هؤلاء بالموت لأن عدم معاقبتهم يؤدي إلى استخفاف الناس، وقلة اكتراثهم بسلطة الدولة ودينها الرسمي، وذيوع حركة التمرد بين عدد أكبر من المتطرفين. ومع هذا فلم يشأ الأمير عبد الرحمن أن يلجأ إلى وسائل متطرفة للقضاء على الحركة، ولم ينتقم من جموع المستعربين؛ بل أكتفى بالأحكام القضائية التي كان يصدرها القضاة على من يثبت عليه القيام متعمداً بسب الإسلام والنيل من نبيه الكريم.

وظلت هذه الموجة من الغلو مستمرة في قرطبة، حتى ضج منها المسيحيون المعتدلون، وأظهروا استياءهم من غلاة المتطرفين، فعقد سنة (237هـ/852م) مجمع ديني في قرطبة يصم كل أساقفة الأندلس برئاسة مطران إشبيلية، ومثل الأمير عبد الرحمن فيه أحد المستعربين المسيحيين، الذي كان كاتباً عند الأمير، وقد وافق جميع أعضاء المجمع . باستثناء أسقف قرطبة الذي لزم جانب المتطرفين . على إصدار قرار استنكروا فيه حركة المسيحيين المتطرفين، وعدوها حركة مخالفة لتعاليم الكنيسة. ولكن هذه الفتنة الدينية التي جاءت نتيجة الاستعراب استمرت بقية عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط، ولم تنته إلا في بداية حكم ابنه الأمير محمد، حيث أعدم ايلوخيو المحرض عليها سنة (245 هـ / 859م).[48]

سادساً: الفتن والاضطرابات في فترة ضعف الإمارة الأموية:

ابتدأت بوفاة عبد الرحمن الأوسط سنة (238هـ/852م) فترة مضطربة، تمزقت فيها وحدة الأندلس السياسية، وقام المنشقون والمتمردون في كل مكان على حكومة الإمارة في قرطبة. ولم يكن الأمراء الذين تولوا في هذه الفترة التي امتدت نحو إثنين وستين عاماً يضاهون في كفاءتهم ومقدرتهم الأمراء الأوائل، إن كان بعضهم يتمتع بمواهب جيدة في الإدارة والقيادة، ولكن ظروف العصر كانت غير عادية، وبالتالي تحتاج إلى رجال أفذاذ وحكام غير اعتياديين، فأنه من غير الصواب تحميل أمراء هذه الفترة الثلاثة وهم كل من: الأمير محمد بن عبد الرحمن، وابنيه المنذر بن محمد، وعبد الله بن محمد مسئولية الانهيار السياسي والاضطراب التي ميزت هذه الحقبة.

فقد كانت البنية الاجتماعية في الأندلس غير منسجمة، لأنها تتألف من شعوب وأجناس مختلفة تتنافر مصالحها مع بعضها البعض، ولا يجمعهما سوى في قوة السلطة المركزية في قرطبة. وهذه الفئات كانت تتألف من أهالي البلاد بنوعيهم المسلمين الذين سموا بالمولدين، والمستعربين الذين ظلوا على ديانتهم المسيحية، وكذلك من الفاتحين العرب والبربر، ولم يكن الانسجام التام سائداً حتى بين الفاتحين أنفسهم، فالخلافات بين القبائل العربية كانت لاتزال تعمل عملها في الفرقة، وكذلك البربر الذين كان عددهم يفوق عدد العرب، ولهم طموح شديد وتتنازعهم مشاعر السيطرة، والمشاركة في الحكم.

لقد كانت قوة الأمراء الأوائل العامل الوحيد الذي جمع بين هذه الأجناس، وجعلها تعيش في وئام مع بعضها، ولكن ما أن غابت هذه القوة حتى بدأت العناصر المختلفة بالتحرك والوثوب على سلطة الإمارة، وساعدها على ذلك طبيعة البلاد الجغرافية الجبلية وسهولة إعلان العصيان والالتجاء إلى المناطق المنيعة.

كما زاد من هذه الحالة أيضاً وقوّاها العلاقة العدائية التي كانت سائدة بين الإمارة الأموية، والإمارات النصرانية الإسبانية في الشمال، التي كانت تساعد في إذكاء روح التنافر والخلاف بين هذه الأجناس، وتحضها على شق عصا الطاعة خدمة لمصالحها التوسعية في الأندلس[49]. وتتلخص دوافعهم للقيام على حكومة الإمارة في قرطبة في ثلاثة أسباب هو: منعة البلاد، وحصانة المعاقل، وبأس أهلها بسبب تجاورهم مع النصارى في الشمال، والثاني: علو الهمم وشموخ الأنوف وقلة الاحتمال للطاعة، لأن من دخل الأندلس من العرب والبربر كانوا أشرافاً يأنف بعضهم من الإذعان لبعض، والثالث: هو الاستناد عند الضيق والاضطرار إلى ملوك النصارى الذين كانوا يحرصون على ضرب المسلمين بعضهم ببعض[50].

لقد أطلق المؤرخون على هذا العصر الذي تميز باضمحلال السلطة الأموية واقتصارها على قرطبة ونواحيها فقط اسم عصر الانتكاسة أو دويلات الطوائف الأولى تمييزاً له عن عصر

الطوائف الذي أعقب سقوط الخلافة الأموية في قرطبة سنة (422 هـ/1031م). فظهرت في هذه الحقبة جماعات عديدة خرجت على السلطة واستقلت في النواحي التي كانت تستقر فيها، ومن أهم هذه الجماعات:

ـ الخارجون من العرب:

ومن أهم هؤلاء بنو حجاج الذين استقلوا بأشبيلية وقرمونة بزعامة إبراهيم بن حجاج بني عمير اللخمي، وقد ازدهرت أشبيلية في عهده، كما نافس أمير قرطبة وقلده في عظم بلاطه من مظاهر الترف، واجتذاب الأدباء والشعراء، وتشجيع رجال العلم، وكان الكاتب أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب (العقد الفريد) من أشهر من تألق في بلاطه.[51]

وبرز بعض الزعماء العرب الآخرون في جهات عديدة من البلاد مثل محمد بن أضحى الهمذاني، وسعيد بن سليمان بن جودي في كورة ألبيرة، وبنو المهاجر التجيبيون الذين انفردوا بحكم سرقسطة[52].

ـ الخارجون من المولدين:

يعد عمر بن حفصون من أشهر الخارجين على السلطة الأموية في قرطبة، وكان هذا من أسرة فقيرة اعتنقت الإسلام في عهد الحكم بن هشام، عاش بداية حياته في إقليم رندة، ثم فر إلى المغرب بعد ارتكابه لجريمة قتل، لكنه عاد إلى الأندلس واستولى على حصن روماني منيع اسمه ببشتر في المناطق الجبلية الجنوبية في إقليم رية، وقد ألتفت حوله جماعة من المولدين وذلك سنة (267هـ/ 880م)، حيث أخذ بمهاجمة الجهات المجاورة لمنطقته والتوسع في الإغارة حتى وصل إلى المناطق القريبة من قرطبة ذاتها، وقد عاصرت حركة هذا المتمرد الأمراء الثلاثة الذين حكموا في هذه الحقبة، ولم يستطع أي منهم القضاء على حركته، في أواخر أيامه تحول إلى المسيحية ظناً منه أن هذا الإجراء سيكتب النجاح لتمرده، ولكن بواعث هذا التحول تبدو سياسية أكثر منها عقائدية قصد منها تلقي الدعم من المستعربين ومن ملوك الدويلات النصرانية الإسبانية لإسقاط دولة العرب في الأندلس، ولم تنته حركة ابن حفصون إلا في عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر[53].

ومن المولدين الآخرين الذين كونوا دويلات مستقلة عن قرطبة، بنو قسي أو بنو موسى بن فرتون، الذين تمردوا في الثغر الأعلى في شمال شرق إسبانيا. وكذلك بنو مروان الجليقي الذين استقلوا بولاية بطليوس في غرب إسبانيا، وسعدون بن فتح السرنباقي الذي ثار بالقرب من مدينة قلنبرية في البرتغال الحالية[54].

لقد استمرت هذه الجماعات في تمردها وانفصالها عن السلطة الأموية طيلة فترة الفوضى التي مرت، ولم يستطع الأمراء أن يقوموا بإجراءات فعالة لاستعادة وحدة البلاد، والقضاء على هذه الفتن على الرغم مما بذلوه من جهود وحملات وجههوها إلى مناطق المتمردين المختلفة.

وظهر بوضوح أن الحكم العربي في الأندلس بات على وشك الانتهاء لولا أن قيّض الله لهذا أميراً شاباً نهض بأعباء الحكم، وقضى على كل الفتن والاضطرابات، ونقل البلاد إلى عهد جديد ومرحلة زاهرة هي مرحلة الخلافة الأموية، ذلك هو عبد الرحمن بن محمد حفيد الأمير عبد الله آخر أمراء عهد الإمارة الأموية.

ـ الخارجون من البربر:

يعد بنو موسى بن ذي النون من أشهر الخارجين على الأمراء في فترة الضعف، ثاروا في شنتمرية، وسيطروا على الثغر الأدنى أي طليطلة وما جاورها.

كما ثار خليل وسعيد ابنا المهلب من بيوت البربر الكبيرة في كورة ألبيرة. وأستقل بنو الملاح بزعامة عمر بن مضم الهترولي الملاحي بمدينة جيان.[55]

خاتمة:

مما سبق ذكره يمكننا القول أن عبد الرحمن الداخل أستطاع بحزمه وإصراره وذكائه من تأسيس دولة قوية في الأندلس خلفاً للخلافة التي زالت في المشرق.

وأستطاع أن يتبع خطوات جادة في بناء دولته داخلياً وخارجياً، حيث تمكن من تنظيمها في الداخل بقضائه على أهم الثورات والفتن التي قامت في عهده ودحر أعدائه بحزم، ولم يكتف بذلك بل أنشأ جهازاً للشرطة لتنظيم الحياة المدنية داخل إمارته، وتمكن من إحلال سلطة الدولة بدلاً من سلطة القبيلة التي كانت نظاماً آنذاك، وبالتالي عاشت الأندلس في ظل حكمه وحكم من بعده عصراً نستطيع تسميته بالفترة الذهبية للإمارة الأموية في الأندلس.

الحواشي

[1] محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، القسم الأول، القاهرة، 1969، ص481.

[2] عبد الواحد ذنون طه: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، بيروت، دار المدار الإسلامي، 1999، ص 88.

[3] حسين مؤنس: فجر الأندلس، بيروت، دار المناهل، 2002، ص 511

[4] عبد الواحد ذنون طه: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص 85.

[5] حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص 512.

[6] عبد الواحد ذنون طه: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص89.

[7] إبراهيم بيضون: تاريخ الدولة العرب في إسبانيا، بيروت، 1978، ص 149.

[8] عبد الواحد ذنون طه: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص 89.

[9] إبراهيم بيضون: تاريخ الدولة العربية في إسبانيا، ص169. 170.

[10] حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص250.

[11] إبراهيم بيضون: تاريخ الدولة العربية في إسبانيا، ص 170.

[12] حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص 250 . 251.

[13] أحمد هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، القاهرة، دار المعارف، 1985، ص 93.

[14] إبراهيم بيضون: الدولة العربية في إسبانيا، ص176.

[15] أبو العباس أحمد بن محمد، ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج 2، تحقيق كولان . بروفنسال، بيروت، دار الثقافة، ص746.

[16] ستانلي لين بول: قصة العرب في إسبانيا، القاهرة، 1963، ص54.

[17] ابراهيم بيضون: الدولة العربية في إسبانيا، ص176 . 177 . 178.

[18] المرجع نفسه، ص 178، 179.

[19] المرجع نفسه، ص 179، 180، 181.

[20] المرجع نفسه، ص181 . 182. 183.

[21] المرجع نفسه، ص 183 . 184.

[22] أبو محمد علي، ابن حزم: نقط العروس، تحقيق شوقي ضيف، ج 2، القاهرة، 1951، ص 75.

[23] عبد الرحمن بن محمد، ابن خلدون: المقدمة، بيروت، 1978، ص228.

[24] عبد الواحد ذنون طه: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص 106 . 107.

[25] عبد الواحد ذنون طه، المرجع نفسه، ص 108.

[26] عبد المنعم السبتي الحميري : صفة جزيرة الأندلس، تحقيق ليفى بروفنسال، القاهرة، 1937، ص 36.

[27] أحمد بدر: دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها، دمشق، 1972، ص 104 . 105.

[28] شهاب الدين أحمد بن محمد، المقري التلمساني: أزهار الرياض، ج 1، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، القاهرة، 1940، ص 340 . 342.

[29] عبد الواحد ذنون طه: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص 109 . 110.

[30] أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، الإسكندرية، مؤسسة الثقافة الجامعية، 1968، ص 114.

[31] أبو الوليد عبد الله بن محمد، ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ق 1، القاهرة، 1966، ص 110.

[32] محمد أبي نصر، الحميدي: جذوة المقتبس، القاهرة، 1996، ص 43.

[33] شهاب الدين أحمد بن محمد، المقري التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، ج 3، بيروت، 1968، ص 230.

[34] عبد الواحد ذنون طه: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص 112.

[35] أحمد مختار العبادي: صور لحياة الحرب والجهاد في المغرب والأندلس مجلة البينة، الرياض، 1962 . 1963، ص 121 . 125.

[36] عبد الواحد ذنون طه: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص 113.

[37] أبوبكر محمد بن عمر، ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، بيروت، 1958، ص 32 . 33.

[38] ابن عذاري: البيان المغرب، ج2، 53 . 54.

[39] نفس المصدر والصفحة.

[40] السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، بيروت، 1981، ص 197 . 200.

[41] ابن عذارى: البيان المغرب، ج2، ص 54 . 55.

[42] محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ق 1، ص257 . 258.

[43] ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 51-50.

[44] عبد الواحد ذنون طه: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص119.

[45] أحمد مختار العبادي: صور لحياة الحروب والجهاد في المغرب والأندلس، ص131- 130.

[46] ابن عذارى: البيان المغرب، ج2، ص 70.

[47] عبد الواحد ذنون طه: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص123.

[48] أحمد بدر: دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها، ص 194 . 206.

[49] إبراهيم بيضون: الدولة العربية في اسبانيا، ص 265 . 266 . 285.

[50] السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص 244.

[51] ابن عذارى: البيان المغرب، ج 2، 125. 131.

[52] المصدر نفسه والجزء، 137 . 138.

[53] ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 90 . 94.

[54] السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص253 . 254.

[55] ابن عذاري: البيان المغرب، ج 2، ص 106.

البيئة الاجتماعية والمرض

د. خليفة على بعيج

جامعة طرابلس – كلية الآداب – قسم علم الاجتماع

البيئة الاجتماعية والمرض

د. خليفة على بعيج

جامعة طرابلس – كلية الآداب – قسم علم الاجتماع

المقدمة:

تشكل الأمراض عامة والأمراض المزمنة خاصة مشكلة صحية للمجتمعات المتقدمة والمتخلفة على السواء. ولكن المناهج الاجتماعية قد وعدت بحل هذه المشكلة. من المنظور الشعبي الطب يتعامل مع المريض. كل من علماء الطب وعلماء العلوم الاجتماعية مشغولون بالعلاج وبالمؤسسات التي تتعامل مع المريض: المستشفيات. ولكن هناك مجموعة من المشاكل لها علاقة بالوقاية من المرض، والتي ربما تكون اكثر الأهمية. التكاليف الاجتماعية والاقتصادية كذلك معاناة الفرد وهي من الافضل الوقاية منها.

الوقاية تتطلب فهم كيفية وتطور اى مرض. النظرة التقليدية البيولوجية الى هذا الفهم قد اعتمدت على الدراسات المخبرية للحيوان، ولكن في العقود الاخيرة بعض الامراض قد دخلت حقل علم الاوبئة الاجتماعى. هذه العوامل مثل الجغرافية وأشكال اخرى من الحراك الاجتماعى والانخراط في العمل والتنافس والتدخين والإجهاد اليومى والغداء الذى قد تأكد بأن لها علاقة بكثير من الأمراض. علية في هذا البحث سوف يتم تسليط الضوء على البيئة الاجتماعية وعلاقتها بالمرض. وفى هذا السياق سوف يتم الاستناد الى معلومات تم جمعها عن المكانة الاجتماعية وارتباطها بعدد من الأمراض العرقية والدين والتى من الممكن ان تكون لها علاقة بعدد من الأمراض. الخصائص العائلية والتى هى ايضا قد تكون مرتبطة بخطورة الاصابة بأمراض معينة، العمليات الاجتماعية والنفسية والتى سوف يتم مناقشتها بأكثر ديناميكية بحيث تتضمن البيئة الاجتماعية والثقافية والنفسية.

المكانة الاجتماعية/الاقتصادية:

المكانة الاجتماعية الاقتصادية التي يعتبرها في الغالب علماء علم الأوبئة مساوية للطبقة ألاجتماعية لها ارتباط مع عدد من الأمراض – ربما تكون في الغالب مع "امراض الحضارة أو بأكثر دقه بالمجتمعات ألصناعية والمتقدمة، والمتحضرة. في مراجعات أخيرة، Susser (1967) يحدد ارتفاع نسبة الوفيات من القرحة المعدية بين مختلف السكان والتغيرات في انماط المرض لأكثر من 150 سنة. قبل 1870، لوحظ في بريطانيا بان الطبقات العليا لديها اعلى نسبة من الوفيات بسبب الإصابة بقرحة الاثني عشر من الطبقات السفلي. الاستنتاج بأنه وبالرغم من عدم وجود ولا عامل واحد قد يعتمد عليه لملاحظة الاختلاف في ألمعدلات "العناصر المحدودة التي قد تؤدى للاختلافات والتي تتضمن الغداء والخمر والتدخين، والإجهاد العاطفي. والشخصية ونوع الجينات ". اتساق هذه النتائج من المكن توضيحه بالتدخين على سبيل المثال، في دراسة Kasanen and Forsstram (1966) قد وجدا ان اخطرا لإصابة بالقرحة المعدية بين المدخنين اعلي من غير المدخنين. الدراسات الانجليزية والأمريكية الحديثة أوضحت ان عادة التدخين أكثر شيوعا بين الطبقات السفلى. وعليه، من الممكن أن نتوقع بان توجد علاقة بين الطبقة الاجتماعية والقرحة المعدية – ومن الممكن أيضا لها علاقة بتغير انماط سلوك التدخين.

مرض اخر يبدو ان له علاقة بالمكانة الاجتماعية والاقتصادية وهو ارتفاع ضغط الدم Hypertension . بالرغم من ان المسوح السكنية قد أوضحت العلاقة بين مستوى ارتفاع ضغط ألدم من ناحية والعمر والجنس والنوع والوزن من ناحية اخرى، ولسوء الحظ يوجد القليل جدا من الدراسات السكانية لانتشار ضغط الدم والبيئة والخصائص الاجتماعية، Borkmak and borhaani أوضحا بأنه في الكثير من جماعات العمر والجنس والنوع وجماعات المكانة الاجتماعية والاقتصادية ومؤشراتها المختلفة كانت عكسيا مرتبطة بضغط الدم الانقباضى وليس بضغط الدم الانبساطى(Borhani) and Borkmak, 1968 . العلاقة بين المكانة الاجتماعية / الاقتصادية وارتفاع ضغط الدم الانقباضى حيث أنه انتشاره بين النساء السود منه عند البيض. وهذه النتائج قد تم دعمها بواسطة دراسة اخرى واختلاف ضغط الدم في مدرسة ثانوية جاكسون مسا سبى للبنات (Langford and Waston, 1968): الأكثر تدنيا في المكانة الاجتماعية والاقتصادية الأكثر ارتفاعا في مستوى ضغط الدم.

توجد بعض الأدلة بأن هذه الاختلافات تبدأ مبكرا في الحياة. في عدد من الاوراق البحثية Harburg وزملاؤه اختبروا اختلافات البيئة الاجتماعية بين السود والبيض من سكان المناطق الحضرية وعلاقتها بضغط الدم (1970-1973) باستخدام مؤشرات خارجية مثل مستوى الدخل، والتعليم واستقرار الحياة الزوجية والجريمة والبطالة والكثافة السكانية، لقد صنفا منطقة

دتروت Detroit وضواحيها الى مناطق عالية ومنخفضة الاجهاد. لقد وجدا بأن بياناتهم تدعم جزئيا الفرضية التي تشير الي ان مستويات ضغط الدم حسب حالات الاجهاد في البيئة الاجتماعية. مستويات ضغط الدم العالي بين الرجال السود الأكثر كثافة سكانية منها الأقل كثافة. اضافة الى ذلك لا توجد اختلافات في ضغط الدم بين الابيض والأسود في المناطق الأقل كثافة. حقيقة، الاختلافات بين السود والبيض تتجه الي الاختلافات في المستويات الاقتصادية العالية.

في النهاية، فريق من علماء علم الاجتماع وعلماء الأوبئة في مؤسسة كاتيز في مدينة أوكلاند بولاية كاليفورنيا اخيرا اشاروا الى أن العلاقة بين المكانة الاقتصادية والاجتماعية وارتفاع ضغط الدم عند السود والبيض (Syne, Oakes, Freidman et al., 1974; Oakes et al., 1973). حيث وجدوا بأن اعضاء هذه المؤسسة، من السود والذين هم من الطبقة الاجتماعية / الاقتصادية السفلى لديهم ضغط دم مرتفع. جماعة البيض لديهم معدل ضغط اقل من السود ولكن حسب السكان البيض الطبقة الاجتماعية السفلى أكثر ارتفاعا في ضغط الدم. عليه فإن الطبقات من السود والبيض متماثلة. من المكن الوصول الى خلاصة بأن ارتفاع ضغط الدم مرتبط بالطبقة الاجتماعية. المهم القيام ببحوث اجتماعية مستقلة تركز على الخصائص التي تميز بين طبقة اجتماعية وأخرى.

العلاقة بين مرض الشريان التاجي (المسبب الرئيسي للموت في الولايات المتحدة الأمريكية ومعظم الدول الغربية) والمكانة الاجتماعية فهي اقل وضوحا. وتعد مراجعة الأدب فيما يتعلق بالطبقة الاجتماعية الاقتصادية ومرض الشريان التاجي فإن (Lehman, 1967) قد وجد بأن النتائج كانت مريبة. جزئيا، هذه النتيجة تعكس كل من الاختلافات على مقاييس المتغيرات المستقلة المستخدمة بواسطة عدد مختلف من المحللين وعدد مختلف من السياقات الاجتماعية التي اجريت من خلالها هذه الدراسات. يوجد كذلك اختلافات في كيفية قياس مرض الشريان التاجي كمتغير تابع، في عدد من الدراسات – مراجعة Lehman.

الطبقة الاجتماعية لها علاقة ببعض الأمراض المزمنة. في دارسة لحالات السرطان في مناطق مختلفة بين جميع سكان بافلو Buffalo في مدينة نيويورك New York بداية من 1948 الي 1952، وجد ان حالات سرطان الرئة تزيد كلما انخفضت الطبقة الاجتماعية، وسرطان الثدي يزيد كلما زادت المكانة الاجتماعية والاقتصادية (Graham, et al., 1960). بالرغم من الاهتمام أولا بالأمراض المزمنة والطبقة الاجتماعية والاقتصادية وعلاقتها بالأمراض والصحة عموما. فبول الطبقة الاجتماعية تمت ملاحظته وإدراكه للحالة الصحية (Status, 1976: 25)، الأمراض الخطيرة (المركز الوطني للإحصائيات الصحية 1974)، عدد زيارات الطبيب (Status, 1976:29) نسبة الوفيات (Kitagawa and Hauser, 1973;

Antonovsky, 1967) عدد الأيام التي تم قضاؤها في السرير (National Center for Health statistics,1974) ونسبة وفيات الأطفال (Status, 1976:33). من الواضح يوجد من اثنان الى ثلاثة مرات من الأمراض الخطيرة بين الفقراء مثلها يوجد بين السكان ككل. في دراسة أخيرة للمناطق الفقيرة والمناطق الغير فقيرة تشير الى حالات انخفاض في الوزن للمواليد وعجز عناية الوالدين بالمولود والموت بسبب السل كلها وجدت في المناطق الفقيرة (المركز القومي للإحصائيات الصحية، 1975).

بالرغم من تناسق هذه البيانات لفترة طويلة من الزمن مجموعة من التفسيرات يجب أن تؤخذ في الحسبان – تتضمن العيش في سكن مزدحم (الإسكان السوء)، العوامل ألعرقية وانخفاض المستوى الاقتصادي والتعليمي (الآخرين هما ابعاد المكانة بدون شك). عليه لا توجد تفسيرات مرضية على المدى ألبعيد بالرغم من فرضيتين حديثين استحقا اهتماما جديا. في تحليل لبيانات تم نشرها من تقارير للمسح الصحة الوطني ومسح وفحص الصحة الوطنية، Lefkewitz (1973) قدم دليلا يقترح بأن التعليم يبدو بأنه المتغير الاقتصادي الأكثر ارتباطا بالصحة. نتائجه تم دعمها دعما هائلا. دراسة Kittagawa and Hauser (1973) لنسبة الوفيات. اضافة الي ذلك، تقرير Guerrin and Barrgatto (1965) الذي اوضح بان نسبة الأمية في الدراسات السكانية كان اهم مؤشر لحدوث مرض السل اكثر من المتغيرات الاقتصادية والعرقية.

Letkowiz (1973) قدم فرضية متعلقة بالسلوك الصحي والتوجه الصحي يكونان "بالدرجة الأولى وظيفة قيمة انماط الحياة والتي يكون فيها التعليم أول عامل في تطور مثل هذه الأهداف ،عليه التعليم يجب ان ينظر اليه المقرر الأول والذى له علاقة مباشرة او غير مباشرة بالصحة.

Syme and Berkman (1976) راجعا دليل العلاقة بين الطبقة الاجتماعية والصحة، وقد اعطا اهتماما خاصا لتوزيع الأمراض. لقد فرضا بأن الحياة في الطبقة الاجتماعية السفلى تزيد من قابلية التعرض للإصابة بالأمراض عموما. بالرغم من انه قد يوجد شيئا ما حول البيئة الاجتماعية للطبقة الاجتماعية السفلى وهو "الإجهاد" لقد اقترحا اهمال محاولة تعريف محدد للعوامل الخطيرة لأمراض محددة لدراسة هذا السؤال وتوجيه الجهود نحو تعريف تلك العوامل والتي تؤثر على القابلية للمرض. لقد ذهبا الى ابعد من ذلك حيث اقترحا بأن اصحاب الطبقات السفلى لديهم اعلى معدلات للمرض جزئيا بسبب مساومة دفاعات المرض. هؤلاء المحليين قد عرضوا جدول اعمال لتحليلات مستقبلية لهذه المواضيع التي تشغل بال علماء علم الاجتماع الطبي وغيرهم الى وقت لاحق.

مثل ما لاحظ، Atonovsky (1967) دراسات محتاج اليها التي تقفل هوة ألمعدلات تلك الهوة التي يبدو بأنها تتسع وتلك التي تبدو بالعكس في العلاقات كما هو في حالة القرح ألمعدية قد تم ملاحظاتها سابقا. باختصار الطبقة الاجتماعية (او المكانة الاجتماعية الاقتصادية) تكون مؤشر مهم جدا للمرض، ومتغير مفيد لفهم المرض؛ المقترح دائما متغيرات اخرى أقرب للصحة.

العرقية والدين

العرقية. العرقية من المكن ان تكون لها علاقة بعدد من أمراض علم الأوبئة. الخلفية العرقية تعنى التجانس الغذائي للجماعة، النظافة والتعليم والدين وعادات اخرى. اذا كان سلوك الفرد من المكن ان نهيئه للإصابة بالمرض أو الوقاية منه، اذن سوف نتوقع بأن الخلفية العرقية لها علاقة بعدد من الأمراض المزمنة. منذ فترة بعيده بدأ علماء الاجتماع العمل في ميدان علم الأوبئة، وعليه قد ثم إجراء عدد من الدراسات للأمراض العرقية.

الأمريكان من أصول بولندية مثلا قد وجدوا بأنهم أكثر عرضة نسبيا للإصابة بسرطان الحنجرة والرئتين بينما، الأمريكان من أصول إيطالية هم أكثر عرضة نسبيا لخطر الإصابة بسرطان المثانة والأمعاء الغليظة والحلق (Graham et al., 1963a). هذه النتائج قد حفزت بحوث اخرى بعيدة المدى في الغداء والشراب وعادات اجتماعية اخرى. الأمريكان من اصول ايطالية والأمريكان من أصول بولندية والتي من الممكن ان تكون لها علاقة بعلم اسباب المرض ليست فقط بين هذه الجماعات ولكن حيثما وجد مثلها في أي مكان اخر.

دراسة العلاقة بين الخلفية العرقية وإمراض القلب لها اهتمام خاص. المحللين السابقين في هذا المجال لهم قناعة بدراسة الانتشار prevalence (عدد الحالات المنتشرة حاليا بين السكان وفى وقت ما) بدلا من حدوث incidence (عدد الحالات الجديدة التي تحد ث في وقت معين). هذا إذا كانت مادة المحلل مقتصرة عن الانتشار وعليه من الممكن ان يشير ببساطة بأن الجماعة العرقية الخاضعة للدراسة تتحصل على عناية طبية ضعيفة ولديها نسبة عالية من الوفيات من هذا المرض أكثر من الجماعات الاخرى. والانتشار العالي من الممكن ان يشير، ليست الى ارتفاع الحالات و ولكن مجرد انخفاض نسبى في معدل الوفيات نتيجة العناية الجيدة.

في الولايات ألمتحدة السود لديهم مستوى عالى في ارتفاع ضغط الدم، اعلى نسبة وفيات بسبب مرض ارتفاع ضغط الدم ومضاعفته كمرض القلب والجلطة الدماغية، أكثر من نظرائهم البيض (Stamler,1967)؛ ولكن كما اشير سابقا المكانة الاجتماعية والاقتصادية تتجه للارتباط بهذا المرض.

الشيء الملفت للنظر ملاحظات علم الأوبئة حول العرقية واختلاف نسبة الوفيات بسبب مرض الأوعية الدموية خاصة الأوعية الدموية المتعلقة بالقلب بين اليابانيين الأصليين واليابانيين الذين ينحدرون من اصل يابانى ويعيشون في الولايات المتحدة (Gardon, 1957) قارن بين نسبة الوفيات في اليابان بنسبة وفيات الامريكان من أصول يابانية في هاواي وعلى ارض الولايات المتحدة، جاردن وجد بان الرجال من سكان اليابان، العمر 55-64 نسبة الوفيات لديهم بسبب مرض الأوعية الدموية القلبية والأوعية الدموية الدماغية تصل إلى حوالى النصف من الأمريكان من أصول يابانيه بينما سكان هاواي من اصول يابانية لديهم معدلات متوسطة. مقارنة ولكنها عكسية توضح وفيات بسبب اصابة الأوعية الدموية بمركز الأعصاب (الجلطات الدماغية). (اليابانيون في اليابان لديهم اعلى نسبة في معدل الوفيات في العالم بسبب الجلطة الدماغية).

عدد من التقارير عن حدوث هذين المرضين بين الجماعات العرقية في هاواي توضح بأن الهوايين من اصل يابانى نسبة الوفيات بينهم بسبب الأمراض قليلة جدا من القوقازيين حيث ان معدلاتهم من امراض الأوعية الدموية الدماغية كانت معتدلة في الارتفاع (Bennet et al., 1962, Larson and Bortz, 1959) . اخيرا، Winkel stein and Syme اتبعا ملاحظات Garden حيث قاما بدراسة للجلطة الدماغية وأمراض القلب بين الأمريكان من اصول يابانية يعيشون في شمال كاليفورنيا وذلك تكملة لدراسات اخرى في اليابان وهاوايا بواسطة محللين اخرين (Winkelstein et) al., 1975.

بالرغم من الاهتمام بجماعة عرقية معينه ولكن هذه الدراسة ايضا تحاول تحليل تأثير الهجرة. هذه النظرة الغرض منها مقارنة صحة الناس الذين ينتقلون مع (1) صحة الناس في المنطقة الأصلية و(2) صحة الناس في المنطقة ذات الوجهه. نتائج دراسة القلب للأمريكان من أصل يابانى في هاواي تشير الى ان انتشار امراض القلب كان اكثر عند اليابانيين الذين يعشون في هاواي من الذين يعيشون في اليابان، وما زالت النسبة اعلى بين اليابانيون الذين يعيشون في كاليفورنيا. Marmot and Syme تتبعا هذه النتائج وذلك بتقديم بيانات تقترح بقوة بأن الإستعاب الثقافي في طريقة حياة الأمريكان كان عاملا مهما في انتشار معدلات الرجال اليابانيون الذي يعيشون في كاليفورنيا (1976). باستخدام قياسين: الاستيعاب الثقافي – التربية الثقافية والامتصاص الاجتماعي Mormot and Syme اوضحا بان المتغربين لديهم 2.5 – خمسة اضعاف في زيادة امراض القلب. اضافة الى ذلك ولا واحدة من عوامل الخطر العادية (الحميه، ضغط الدم، التدخين، الكولسترول) يكون مسئولا عن هذه الاختلافات. عليه، لقد افترض بأنه بالرغم من الغربنة (نسبة إلى الغرب) والتصنيع والعوامل الثقافية الآخرى، اليابان نفسها مازالت تحتفظ ببعض السمات الثقافية التقليدية التى تحميها من اجهاد stress

المجتمعات الحديثة. بالاتفاق مع Marmot (1976) التوجه الثقافى للجماعة في اليابان من الممكن ان يقلل من حده الإجهاد الذى ينتج عنه انخفاض خطورة الإصابة بمرض القلب.

على أية حال، اليابانيون في وطنهم الأصلى لديهم نسبة عالية من السرطان المعوي مقارنة بتلك البلدان التي صدرت عنها تقارير موثوق بها. في دراسة مبكرة، Smith(1956) وجد اليابانيون الذين يعيشون في هاواي لديهم معدلات اقل الى حد ما، ولكن اعلى من اية جماعة عرقية في هاواي. في غرب الولايات المتحدة الأمريكية اليابانيون لديهم معدل منخفض في الإصابة بالسرطان المعدى، ولكن مازال الأعلى بين السكان البيض والسود هناك. الحقيقة ان السرطان المعوي يعرف بسهولة وهو في الغالب قاتل سريع وعليه يمكن الاعتماد عليه في بيانات نسبة الوفيات. هذه النتائج قد حفزت دراسة الحمية للسكان اليابانيون الذين يعيشون في اليابان وهاواي وفى غرب الولايات المتحدة الأمريكية.

الدين. الدين مثل العرقية، الدين لجماعة معينة من الممكن ان يكون القاعدة لأنماط سلوكية معينة. عليه من الممكن ملاحظة الارتباط بين علم معين وعلم اسباب الأمراض. حيث وجد Medalieومساعديه في اسرائيل أن درجة التدين ليدها ارتباط معكوس بإمراض القلب. على سبيل المثال، الحالات الأكثر تدينا، الأقل اختلالا بالقلب (Medalie, et al. 1973). وهذا مما يؤكد على دور نمط الحياة، اضافة الي اهمية دور الدعم الاجتماعي. في نفس السياق، Comstock and Partridge (1972) في دراسة ذات اثر رجعى في مايرلاند وجدا ارتباط بين التردد على حضور الكنيسة (درجة التدين) ومرض القلب، عند الرجال الذين يحضرون المزارات الدينية لديهم نسبة 60% فقط من معدل المرض من الذين لم يحضروا الا نادرا او لم يحضروا المزارات الدينية ابدا.

ما يجب التأكيد عليه هو ان علماء علم الأوبئة الاجتماعي يهتمون ليس بالجماعات الذين في الغالب بينهم المرض بنسبة عالية، ولكن يهتمون ايضا بالذين ينتشر بينهم المرض بنسبة اقل. دراسات عن خطورة السرطان بين الجماعات المتدينة في الولايات المتحدة، اشارت بأن ثلاثة جماعات لديهم بشكل واضح انخفاض في الإصابة بجميع انواع السرطان: المارمونز Mormons (Lyon et al., 1976)، وجماعة دينية اخرى مسيحية (SDA) تؤمن بعودة المسيح (Lemon et al., 1964) واليهود (Seidman, 1970). المارمونز والجماعات المسيحية التي تؤمن بعودة المسيح لديهم محرمات دينية ضد الكحول، والتبغ، والكافيين واليهود من المحافظين في شرب الخمر. هذا ينسجم مع انخفاض خطورة الإصابة بالسرطان نتيجة اخطار التبغ كما تقل خطورة الإصابة بالسرطان نتيجة اخطار التبغ والكحول كما تقل الإصابة بسرطانات اخرى مثل سرطان الرئة، والفم والحنجرة والمثانة. انخفاض الإصابة بسرطان عنق الرحم عند المارمونز قد يرجع سببه الى تحريم ممارسة الجنس خارج العلاقة الزوجية وانخفاض

الإصابة بسرطان الثدي يرجع الى الزواج المبكر عموما. عليه، العديد من النتائج المتعلقة بانخفاض خطورة الإصابة بالسرطان بين هذه المجموعات الدينية منسجما مع اشياء اخرى نحن نعرفها حول هذه الأمراض. القليل نسبيا معروف عن علم اسباب امراض سرطان القولون / مرض آخر أقل خطورة بين هذه المجموعات الثلاث. أحد الكتاب قد اقترح بأن اكل اللحوم والشحوم له علاقة (Wiesburger and Raineri,1975)؛ لكن، الجماعة الدينية SDAs يستخدمون القليل بينما المارمونز واليهود يأكلون الكثير من هذا الطعام. علية النتائج المرتبطة بالدين لابد ان تتفق مع تلك النتائج من الميادين الأخرى والتي من الممكن ان تقترح وسائل جديدة للتحقيق ايضا.

الخصائص العائلية

مثل وجود انماط خاصة بالجماعات الدينية التى من الممكن ان تكون مرتبطة بخطورة الإصابة بمرض معين، العديد من الصفات السلوكية الخاصة بالعوائل الفردية. عليه، ممارسة تربية الأطفال لبعض العائلات قد يحول دون بعض الأمراض. الدراسات الشاملة لضغط الدم، قد وجدت بأن النساء الغير متزوجات لهم معدل عالي من ضغط الدم أكثر من أي مجموعة من النساء. والمعدل ينخفض بشدة بين المتزوجات ولديهن طفل واحد وطفلين او ثلاثة او أكثر (Humerfelts and Wederfang, 1957). باختصار حدوث ضغط الدم العالي بين الإناث من الممكن ان ينخفض مع زيادة المسئوليات الأسرية.

نوع آخر من المرض المتعلق بالعائلة، الدراسات قد كشفت بأن بعض الأشخاص المرضى قد ورثوا هذا المرض من عائلاتهم. منهجيتا مثل هذه الدراسات تقارن حدوث أي مرض بين الأقارب المرضى مع حدوته بين الأقارب الذين يمثلون المجموعة الضابطة والذين ليس مصابين بالمرض. في الماضي الكثير من المتخصصين في علم الأوبئة خلصوا الى ان تكرار ظهور مرض معين بين ألأقارب المرض الذي "يسرى في العائلات موروث جينيا.

اغلب علماء علم الوراثة وعلماء الاجتماع قد أكدوا بأن تركز المرض في بعض العائلات من الممكن ان يكون سببه اما اجتماعيا او وراثيا (Schull et al., 1970). علية، وعلى سبيل، ألمثال السلوك الغذائي الخاص بالعائلة الواحدة قد يؤخذ في الاعتبار، بأنه سبب رئيسي في الإصابة بالسرطان المعوي الذى يصيب هذه العائلات وذلك مقارنة بالأشخاص الأقارب والذين لم يصبهم هذا المرض (Graham and Lilienfld, 1958)، انتقال التهاب المفاصل الروماتزمي مثلا من خلال العائلة الواحدة قد تم بحته بواسطة كاسل ومساعديه Kasl علاقات الأم والابن . سلسلة نفسية مختلفة يشار اليها في التهاب المفاصل للذكر. على اية حال، لابد من التأكيد بان كل من علماء الاجتماع وعلماء الوراثة قد أكدوا على أي توضيح يتم الوصول

اليه لم يكون نتيجة مباشرة للوراثة او الميراث الاجتماعي. جميع الأمراض ناتجة من عامل باثولوجي للوراثة بيئي قد يأتي ليتصل بالمضيف جينيا / جسميا/ اجتماعيا او سيكولوجيا.

الطريقة المثالية للتحقق هي الى أي مدى يكون المرض قد تمت وراثته جينيا او اجتماعيا؟ هو دراسة انتشاره بين الأقارب بالدم للأشخاص المصابين والغير مصابين بالمرض (Cobb,1969).

من المفيد في دراسة التفاعل بين العوامل الوراثية والبيئية في المرض يجب ان تكون بيانات دقيقة لأغلبية السكان. والمدى الذي تصل اليه علاقة الحالات عندما يتم مقارنتها بعضها ببعض والسيطرة عليها اضافة الى ذلك المعلومات مثل التدخين، والتمرينات ألرياضية والحمية .... الخ والتي سوف تسمح بدراسة درجة العلاقة لكل متغير بالمرض.

العمليات الاجتماعية الثقافية والنفسية

في بحوث سابقة تم التركيز على دور بعض العوامل الاجتماعية والديموغرافية ومدى مساهمتها في حدوث المرض. والآن سوف يتم مناقشة هذه العمليات بأكثر ديناميكية بحيث تتضمن البيئة الاجتماعية والثقافية والاجتماعية النفسية. الأهمية لهذه العمليات التغيرات الواضحة في انماط وأنواع الحضر في المجتمعات الصناعية. زيادة الاهتمام في علم اسباب الأمراض بالعلاقة بين العوامل الثقافية وإمراض معينة هو أحد الميزات المهمة للطب الحديث.

في المناقشة اللاحقة سوف يستخدم من وقت الى آخر مصطلح الإجهاد Stress وذلك لجلب الانتباه الى انواع معينة من الأحداث او الخبرات لكي يتم تعميم فرضيات معينة. ولكن هذا المفهوم لم يعد بعد ذلك مفيدا؛ وكما اشارت بعض الدراسات مثل (Cassel, 1976; Hinkle, 1973) اللذان طلبا تعديل مفهوم الإجهاد عند استعماله لمناقشة امراض معينة. لقد اقترح بان هناك دليل مهم من خبرات الحيوان والإنسان تشير الى ان التبيان في البيئة الاجتماعية قد يكون مرتبطا بتنوع التغيرات العميقة في الحالات.

Hinkle and Cassel وآخرون يعتقدون بأنه ليس من المناسب بأن أي عملية اجتماعية او أي موقف سبب الإجهاد سوف يكون السبب الوحيد للمرض. كما يقترحون بأنه ليس من الضروري استخدام تفسير الإجهاد. " من الواضح بان أي عملية مرض وفى الحقيقة أي عملية من خلال الكائن العضوي من الممكن تأثرت بردة فعل الفرد الى بيئته الاجتماعية او للناس الاخرين " (Hinkle, 1973). جوهريا، Hinkle يجادل بأن الأمراض تنتج الى حد كبير من كيفية رد فعل الأفراد الى عملاء مسبب المرض كما هو من العملاء أنفسهم؛ علاوة على ذلك؛ علاقات الناس مع بعضهم البعض وعلاقتهم بالمجتمع تكون من الأسباب المهمة للمرض. بالرغم من ان كل من Cassel and Hinkle يجدلان بتركه لأسباب مختلفة، مفهوم الاجهاد لازال لديه

بعض الاستخدام. في النهاية، لابد من الفهم بان الناس يستجيبون لمواقف حياتهم او الحالات الاجتماعية حسب ما تعنيه هذه المواقف بالنسبة لهم. في الحديث اللاحق وبمساعدة النظرية السوسيولوجية، سوف يتم توضيح هذه النظرة.

الاشتراك المتبادل من خلال الجماعات الاجتماعية مثل الاسرة ومنظمات العمل والأصدقاء قد تم اعتبارها منذ فترة طويلة اساسية لاحترام الذات، والحالة النفسية حديثا في ادب علم الأوبئة والوقاية الصحية ومفهوم الدعم الاجتماعي بدأ يظهر كمتغير رئيسي بين الاحداث المحتملة المسببة للمرض ونتائجه في البيئة الاجتماعية (Cassel, 1976). في الأساس مفهوم الدعم الاجتماعي يتضمن معلومات تقود الفرد للاعتقاد بأن يكون مهتما به ومحترما وعضوا في شبكة اجتماعية ذات التزامات مشتركة (Cobb, 1976).

عليه، المفهوم يتضمن الفرد في موقف تقة مشتركة والذي فيه سوف يستلم مساعدة عاطفية. الإحساس بأنك فرد لك قيمة ومحترم تشتق من الاشتراك في هذه الجماعات والتي هي كذلك تشترك في تطوير مفهوم النفس الذي يقود الفرد ايضا بأن يطور احساسه بقيمته الذاتية.

في مثل هذه الشبكة الاجتماعية المهم فيها هو نمط العلاقات بين الأعضاء. Cassel يقترح قابلية الشعور بالمرض سوف تزيد لعدة اسباب، الأفراد لا يستلمون أي دليل الذى يوحى بأن افعالهم تقودهم الى نتائج متوقعة ومرغوب فيها. من المفترض يعتبر هذا صحيحا عندما يتم التخطيط لهذه الأفعال لتعديل علاقات الفرد بالجماعة الاجتماعية المهمة التي يتفاعل معها (Cassel, 1973).

الدعم الاجتماعي يسند الفرد من النتائج الجسمانية والنفسية للعمليات الاجتماعية المؤدية. علية الجماعة تعطى دعما للفرد وذلك بحمايته من المرض. الدعم الاجتماعي يساعد على التكيف مع ازمات الإحداث لأن الأنماط السلوكية البشرية في استجابتها لتحديات البيئة تساعد التكيف للتغيير. الدعامات الاجتماعية تعمل بطريقة غير ملحوظة للوقاية من الآثار الرئيسية للانفعالات النفسية والأحداث غير المتوقعة والأزمات. في النهاية، الاختلافات في علاقات الجماعة لها دور معين في علم الأمراض قد يغير قابلية الاستجابة للمرض عموما. (Freeman, H., et al.,1979). نتيجتان علميتان ايحائيتان ايضاحيتان تم التوصل لها حديثا. Medalie وزملائه في دراستهم لمرض القلب التاجي (CHD) في اسرائيل وجدوا اقل الحالات انتشارا لمرض القلب التاجي بين الحالات الذين تلقوا الحب والدعم من زوجاتهم (1973). دراسة Marmot (1975) قدمت دليلا اضافيا حاسما لأهمية التوسط لتأثيرات الدعم الاجتماعي.

1. **التغيرات الثقافية**. التغير الثقافي يحدث عندما تكون لدى تغير الاقتصاد والبناء الاجتماعي المحلى نتائج واسعة ومختلفة. الدراسات الأنثروبولوجية الثقافية قد توصلت الى خلاصة بأن ما

يسمى بالعمليات الحضارية للدول النامية يزيد من انتشار الاضطرابات العقلية (Kellert, 1967, Kiev, 1964, Murphy, 1961). من الواضح، ليست كل افراد الجماعة يتحركون بنسبة واحدة من نمط ثقافي تقليدي الى حديث. عند مراجعتهما التحليلية لارتفاع ضغط الدم، Henry and Cassel (1969) لاحظا بأن نسبة الوفيات من هذه الحالة كانت مرتفعة في بعض المدن في امريكا الجنوبية أكثر من غيرها. البيانات تقترح بأن العلاقة بين سرعة التغير الاجتماعي والمرافقة للتغيرات ألشخصية اضافة الى المواقف ألمضطربة تقود اخيرا الى المرض. تحت هذه الظروف، الحرمان النسبي، الإدراك المختلف للمواقف اضافة الى اختلاف نمط تكيف الفرد وقدراته، يساعدنا في فهم اختلافات خبرات الافراد الخاضعين للتغير الثقافي.

كما لوحظ سابقا التغير الثقافي يحدث ايضا من خلال المجتمعات الأكثر تقدما. عليه، مراجعة Marksتشير بأن عمليات التمدين مرتبطة بارتفاع معدلات الإصابة بمرض الصمام التاجي للقلب (1967). سرعة التغير الثقافي، تدل على التغيرات في عضوية الجماعة، تغير في نوعية العلاقات مع الجماعة ذات الأهمية، يزيد من عدم احترام الالتزامات التقليدية والحقوق، وتوقف نماذج التوقعات السلوكية ضمن مجموعات وشبكات اجتماعية مهمة.

2. **الحراك والهجرة**. في التغير الثقافي، الجماعات نفسها قد تكون مستقرة ولكن المواقف الاجتماعية من حولهم تتغير. الحراك هنا يعنى التغيرات الفردية متميزة عن التغيرات الاجتماعية الحضارية او الثقافية. تغير الحالة يحيط بالمكانة الجغرافية، مثل الهجرة (طوعية او غير طوعية). عليه الحراك الوظيفي (Syme et al., 1964, 1965, 1966)، والهجرة يتطلب تغير في المكان الطبيعي وكذلك الفضاء الاجتماعي. الحراك مفهوم ينبثق من توقعات الشخص، بأهمية الآخرين والمجتمع ومن الممكن تعريفه بمفاهيم ابعاد معدلات التغير. مثل ما لاحظ كل من Back and Pittman " لكل بعد يوجد معيار معين للتغير ومن الممكن اعتبار الاجهاد ينشأ من الالتزام بعد تغيير هذا المعيار ومن الانحراف على هذا المعيار....." (Back and Pittman,1965).

التغيرات في الفضاء الاجتماعي يرجع الى الحراك اما التغيرات في الوظيفة او الحركة من خلال المهنة وأصناف اخرى للمكانة مثل التعليم والدخل. التعديلات في متوسطات العمر المعيارية المتوقعة اشتقت من مكانة الشخص، الجماعات المرجعية، ألطموحات ومن الانجازات التي تتطلب تغيرات في نمط الحياة غالبا. التغير في نمط الحياة في الغالب يتطلب تغيير في استعمال رموز المكانة. الدراسات للتغير في نمط الحياة يتطلب التركيز على الفرد دون التحليل البنائي وعلية، العديد من البيانات العملية يجب ان تحلل.

3. **عدم اتساق المكانة**. المرتبط بالحراك هو عدم اتساق المكانة او التنافر. النظرية والبحث العلمي تقترح بأن الفرد المصنف متناقضا حسب مؤشر او أكثر من مؤشرات المكانة من

المحتمل ان يكون تحث الاجهاد الاجتماعي والذي بدوره يقود الى مؤثرات عكسية على جسمه وصحته النفسية (Lenski, 1954; Jackson, 1962; Tukman, and Kleinner, 1962; and Paker and Kleinner,1966) من الواضح في حالة عدم اتساق المكانة، كذلك في عملية التغير الثقافي او الحراك الاجتماعي، بعض التناقض سوف ينتج من شكل التغير الاجتماعي. علماء الاجتماع مهتمين بفروض لها علاقة بالحراك الاجتماعي وعدم اتساق الشخصية والمرض حيث اقترحوا بأن موضع الفرد في البناء الاجتماعي من الممكن ان ينج عنه المرض. في حقيقة الأمر عدد من الباحثين قد نشروا من النتائج التي بكل وضوح تدعم فروض العلاقة بين المرض وعدم اتساق المكانة او مواقف اخرى للتنافر الاجتماعي. هذا الاهتمام موازي مع الكثير من الدراسات في علم الاجتماع العام على العلاقات السلوكية لتضارب المنزلة (Jackson and Curtis, 1972).

عدم اتساق المكانة وفروض الحراك الاجتماعي قد أصبح اخيرا تحت مراقبة النظرية والمنهجية (Blalock,1966, 1967, Jackson and Curtis, 1972; Horan and Cray, 1974). المشكلة الاساسية كما اشار Horan and Cray

هو تمييز عدم الاتساق بين اثنان او أكثر من المراكز الاجتماعية من تأثيرات المراكز الاجتماعية نفسها. بالرغم من ذلك عندما يستخدم المحللون نظرية دقيقة ومناهج ملائمة في عملية تحليل بياناتهم، فإن مفهوم عدم اتساق المكانة مازال مفيدا بالفعل (House and Harkins, 1975; Hornung, 1977) .

4. تغيرات الحياة والأحداث. بالرغم من ان المنشأ في الانضباط الاخر – طب الامراض العقلية – مفهوم تغيرات الحياة – الاحداث المهمة في حياة الشخص – ترتبط بمناقشة عمليات التغيير هذه (Meyer, 1951; Graham and Stevenson, 1963; Wolf et al., 1950; Holmes and Masuda، Holms and Rahe, 196; 1974). عدد من هذه التحاليل قد حاولت حساب تأثير احداث الحياة. علية، على مقياس معدل التكيف الاجتماعي، لكل حدث حياة قد اعطى له وزن معين. المقياس اسس على مفهوم أي تغير مرغوب فيه او غير مرغوب فيه، سار او غير سار، قد اعتبر ضاغطا. العائد لجمع الأوزان لكل اجابة عن العنصر يعتبر مجموع وحدة التغير لحياة الفرد.

الكثير من الدراسات قد قارنت التصنيفات لأسئلة مقياس معدل التكيف الاجتماعي بين الكثير من السكان (Goldberg and Comstock, 1976; Dohernwend and Dohernwend, 1973). Dohernwendانتقل الى نوع اخر من البحوث في هذا المجال حيث اشار الى ان "التغير وليست عدم الرغبة يكون الخاصية لأحداث الحياة والتي يجب ان تقاس للدقة وتقييم ضغوطاتهن (Dohernwend, 1973).

الكثير من الدراسات ذات الأثر الرجعى قد اوضحت بوجود علاقة ايجابية بين الجسد والمرض العقلي وأحداث الحياة السابقة. صلاحية هذه الدراسات كانت موضع تساؤل لأن احداث الحياة كانت قد جمعت بعد ان عرف المرض عندما تظهر الحالات المرضية من المحتمل تظهر زيادة في تذكر احداث الحياة، اضافة الى ذلك، الذاكرة القريبة تكون أكثر اكتملا من الذاكرة البعيدة (تذكر متحيز) ومن المحتمل أن يوجد تفاعل بين الاحداث والأمراض خاصة الاضطرابات العقلية. حتى الدراسات القليلة المتوقعة التي تم فيها استخدام هذا المنهج، الحالات كانت صغيرة، رجال اصحاء، غالبا رجال عسكريين او طلبة. في النهاية، معظم الأمراض التي شملها التقرير كانت قليلة التخطيط الجيد لدراسة العينات العشوائية سوف تعزز تطور المفهوم؛ اضافة الى ذلك، Goldberg and Comstock افترضا بأن ناتج المتغيرات
يجب ان يتم تميزه بوضوح من المتغيرات المستقلة (1976). هذا يحدث عندما يكون المرض هو الناتج، المرض يجب لا يكون المتغير المستقل ومضافا الى قائمة احداث الحياة مثل ما تكون الحالة العادية. اضافة الى ذلك، هؤلاء المحللين اقترحوا أي تحليل ابعد من ذلك يجب ان يتضمن حساب للعوامل المتوسطة قبل الدعم الاجتماعي، وربما الأكثر أهمية الاحداث يجب ان تحسب " ضاغطة فقط إذا تمت رؤيتها بواسطة المبحوث نفسه." بالرغم من محدودية البحوث السابقة، الا ان استخدام احداث الحياة سيكون مثير وجذاب ويستحق خطة محكمة على المدى البعيد وعليه من المحتمل القيام بإجراء بحث (Graham, S. and Reeder, L. G. 1979).

في الختام وبعد استعراض هذه الدراسات والبحوث العلمية ونتائجها المهمة، والتي أكدت لنا بوجود علاقة مهمة بين البيئة الاجتماعية والمرض. وبالرغم من ان هذه الدراسات قد أجريت على مجتمعات تختلف في ثقافتها عن ثقافة المجتمع الليبي الذي سوف ينشر فيه هذا البحث. كما ان هذه الدراسات قد أجريت منذ فترة لا بأس بها. ولكن بالنظر إلى إطارها النظري ومنهجيتها ونتائجها قد تعتبر مرجعا مهما للمهتمين بالبحث العلمي في مجال علم الأوبئة الاجتماعي والذي يعتبر حديثا في مجتمعنا العربي. وعليه نأمل بالمبادرة والبناء على هذه الدراسات ومحاولة الكشف على مدى علاقة وارتباط بيئتنا الاجتماعية بالمرض. مع العلم بأن مثل هذه الدراسات لن تنال ولو قيل من الاهتمام والقيام بها في مجتمعاتنا العربية عامة والمجتمع الليبي خاصة.

الخلاصة

- ❖ المكانة الاجتماعية والاقتصادية لها ارتباط وثيق مع عدد من الأمراض، حيث لوحظ في بريطانيا بأن الطبقات العليا لديها أعلى نسبة من الوفيات بسبب الإصابة بقرحة الأنثى عشر بين الطبقات السفلى.

- حسب الدراسات التي أجريت في مدينة أوكلاند في الولايا ت المتحدة الأمريكية، وجدت بأن ارتفاع ضغط الدم بين السود والذين هم من الطبقة الاجتماعية الاقتصادية السفلى.
- الخلفية العرقية لها علاقة بعدد من الأمراض خاصة المزمنة منها، فقد أثبتت الدراسات مثلا بأن الأمريكان من أصول بولندية وجدوا بأنهم أكثر عرضة نسبيا للإصابة بسرطان الحنجرة والرئتين. الأمريكان من أصول إيطالية هم أكثر عرضة نسبيا لخطر الإصابة بسرطان المثانة والأمعاء الغليظة والحلق.
- السود في الولايات المتحدة لديهم مستوى عالي من ارتفاع ضغط الدم، أعلى نسبة وفيات بسبب مرض ارتفاع ضغط الدم ومضاعفاته كمرض القلب والجلطة الدماغية أكثر من الأمريكان البيض.
- مقارنتا بين نسبة وفيات اليابانيين الأصليين واليابانيين الذين ينحدرون من أصل ياباني ويعيشون في الولايات المتحدة الأمريكية. حيث وجد بأن الرجال من سكان اليابان نسبة الوفيات لديهم بسبب مرض الأوعية الدموية القلبية والأوعية الدموية الدماغية حوالي النصف من أصول يابانية.
- اليابانيون في وطنهم الأصلي لديهم نسبة عالية من السرطان المعوي مقارنة بتلك البلدان التي صدرت عنها تقارير لدراسات علمية.
- درجة التدين لها ارتباط معكوس بأمراض القلب، الحالات الأكثر تدينا، الأقل اختلالا بالقلب. هذا مما يؤكد على دور نمط الحياة، اضافة إلى أهمية دور الدعم الاجتماعي.
- تؤكد الدراسات العلمية بأن الجماعات الدينية في الولايات المتحدة، بأن نسبة الإصابة بجميع أمراض السرطان بينهم منخفضة.
- ممارسة تربية الأطفال لبعض العائلات قد يحول دون بعض الأمراض.
- الدراسات الشاملة لضغط الدم قد وجدت بأن النساء الغير متزوجات لهم معدل عالي من ضغط الدم أكثر من أي مجموعة من النساء.
- أغلب علماء الوراثة وعلماء الاجتماع قد أكدوا لنا بأن المرض من الممكن أن يكو سببه اما اجتماعيا أو وراثيا.
- تعتبر العلاقات المتبادلة من خلال الجماعات الاجتماعية مثل الأسرة ورفاق العمل والأصدقاء أساسية لاحترام الذات والحالة النفسية. في الوقت الحالي بدأ مفهوم الدعم الاجتماعي يظهر كمتغير رئيسي بين الاحداث المسببة للمرض ونتائجه في البيئة الاجتماعية.

- الدعم الاجتماعي يساعد على التكيف مع أزمات الأحداث، والدعامات الاجتماعية تعمل بطريقة غير ملحوظة للوقاية من الآثار الرئيسية للانفعالات النفسية والأحداث الغير متوقعة والأزمات.
- الدراسات الأنثروبولوجية الثقافية قد توصلت إلى نتائج بأن ما يسمى بالعمليات الحضارية للدول النامية يزيد من انتشار الاضطرابات العقلية.
- عمليات التمدين مرتبطة بارتفاع معدلات الاصابة بمرض الصمام التاجي للقلب.
- الدراسات العلمية تؤكد بوجود أقل الحالات انتشارا لمرض القلب التاجي بين الحالات الذين تلقوا الحب والدعم من زوجاتهم.
- عدد من الباحثين نشروا نتائج تؤكد وتدعم فروض العلاقة بين المرض وعدم اتساق المكانة أو مواقف أخرى للتنافر الاجتماعي.
- الدراسات والبحوث العلمية قد أوضحت بوجود علاقة ايجابية بين الجسد والمرض العقلي وأحداث الحياة السابقة.

المراجع

1. ANTONOVSKY, A. 1967. "Social class and illness: A reconsideration." Sociological Inquiry, 37(Spring): 311- 22.
2. BACK, K. W., and D. J. PITTMAN. 1965. "Dimensions of mobility," in Mildred Kantor (ed.), Mobility and Mental Health. Springfield, Illinois: Charles C Thomas, Pp. 206 – 7.
3. BENNETT, G., et al. 1962. "Cardiovascular- renal mortality in Hawaii." American Journal of Public Health, 52(September): 1418.
4. BLACK H. M. 1966. "The identification problem and theory building: The case of status inconsistency." American Sociological Review, 31(February):52-61.
5. BORHANI, N. O., and T. S. BORKMAN. 1968. "Alameda County blood pressure study." Berkeley, California State of California (June)67.
6. CASSEL, J. 1973. "The relation of urban environment to health: Implications for prevention." Mt. Sinai Journal of Medicine, New York George James Memorial Issue 40:539-50.
7. _____ 1976."The contribution of the social environment to host resistance." American Journal of Epidemiology 104(August): 107-17.
8. COBB, S. 1976. "Social support as moderator of life stress." Psychosomatic Medicine, 39 (September-October):300-314.
9. COMSTOCK, G. W., and B. PARTRIDGE. 1972. "Church attendance and health." Journal of Chronic Diseases, 25:665-72.
10. DOHRENWEND, B. S., and B. P. DOHRENWEND (eds.). 1973. Stressful Life Events: Their Nature and Effects. New York: John Wiley and sons.
11. GOLDBERG, E. L., and G. W. COMSTOCK. 1976. "Life events and subsequent illness." American Journal of Epidemiology, 104(August):146-58.
12. GRAHAM, T., and I. STEVENSONS. 1963. "Diseases as response to life stress." In H. I. Life et al., (eds.) The Psychological Basis of Medical Practice. New York: Harper & Row.
13. GRAHAM. S., and M. LILIENFELD. 1958. "Genetic studies of gastric in humans: An appraised." Cancer, 11(September):945-58.
14. GRAHAM. S., et al. 1960. "The socio-economic distribution of cancer at variation sites in Buffallo, New York: 1948-1952." Cancer, 13:180.
15. HARBUG, E., et al. 1970. "Socio-ecological stressor areas and black-white blood pressure: Detroit." Journal of Chronic Diseases, 26:595-611.
16. HINKLE L. E., JR. 1973. "The concept of 'STERSS' in the biological and sociological sciences" Science Medicine and Man, 1:31-48.
17. HOLMES T. H., and M. MASUDA. 1974. "Life change and illness susceptibility," in the Dohrenwend, B. S. and B. P.Dohenwend (eds.) Stressful Life Events: Their Nature and Effect, New York: John Wiley and Sons, pp. 45-72.
18. HOLMES T. H., and R., H. RAHE. 1967. "The social readjustment rate scale." Journal of Psychosomatic Research, 11:213-18.
19. HORAN P. M., and B. H. GRAY. 1974. "Status inconsistency, mobility, and coronary hearth disease>." Journal of health behavior, 15(December): 300-310.
20. HORNUNG, C. A. 1977. "Social status, status inconsistency and psychological stress." American Sociological Review, 42(August):405-5.
21.HOUSE, J. S., and E. B. HAKINGS. 1975. "Why and when is status inconsistency stressful?" American Journal of Sociology, 81(September):395-412.

22. HUMBERFELTS, B. J., and F. WENDERVANG. 1957. "The blood pressure in a population." Acta Medica Scandinavica, 1(Supplement):321-57.
23. JACSON, E. 1962. "Status consistency and symptoms of stress." American Sociological Review, 27(August):469-80.
24. JACSON, E. F., and R. F. CURITS. 1972. "Effects of vertical mobility and status inconsistency: A body of negative evidence." American Sociological Review, 37(December):701-13.
25. KANSANEN, A., and J.FORSSTRAM. 1966. "Social stress and living habits in the etiology of peptic ulcer." Annales Medicinae Internae, 55:13-22.
26. KELLERT, S., et al. 1967. "Culture change and stress in rural Peru." Milbank Memorial Fund Quarterly, 45(October):391-425.
27. KIEV, A. (ed.). 1964. Magic, Fait and Healing Studies in Primitive Psychiatry. New York: The Free Press.
28. KITAGAWA, E. M., and P. M. HAUSER. 1973. Differential Mortality in the United States : A Study in Socioeconomic Epidemiology. Cambridge, Mass: Harvard University Press.
29. LANGFORD, H. G., et al. 1968. "Factors affecting blood pressure in population groups." Transactions of the Association of American Physicians, 81:135-46.
30. LASERN, N. P., and W. BORTZ. 1959. "Coronary atherosclerosis in ethnic group." Hawaii Medical Journal, 19(November-December):159.
31. LEFKOWTIZ, M. J. 1973. "Poverty and health: A re-examination." Inquiry, 10(March):3-13.
32. LEHMAN, E. W. 1967. "Social class and coronary heart disease A sociological assessment of the medical literature." Journal of Chronic Diseases, 20(June)381-91.
33. LEMON, F. R., et al. 1964. "Cancer of the lung and mouth in Seventh-Day Adventists." Cancer 17:486-97.
34. LENSK.. G. E. 1954. "Status crystallization: Anon-vertical dimension of social status." American Sociological Review, 19(August):405-13.
35. LYON, L., et al. 1976. "Cancer incidence in Mormons and non-Mormons in Utah." New England Journal of Medicine, 294: 129-33.
36. MARKS R. 1967. "A review of empirical finding." In Syme S. L., and L. G. Reeder(eds), Social stress and cardiovascular disease." Milbank memorial Fund Quarterly, 45(April): Part 2, p. 95.
37. MARMMOT, M. G. 1975. Acculturation and coronary Disease in Japanese-Americans. Ph. D. Dissertation, University California, Berkeley.
38. MARMOT, M. G., and S. L. SYME. 1976. "Acculturation and coronary heart disease in Japanese-American Journal of Epidemiology, 104(September):225-47.
39. MEDALIE, J. H. et al. 1973 "Five-year myocardial infection incidents-11 Association of single variable to age and birthplace." J. Chron. Disease, 26:329-50.
40. MEYER A. 1951. "The life chart and the obligation of specifying positive data in psychopathological diagnosis," in The Collected Papers of Adolf, Vol. 111, E. Winter (ed.) Baltimore: The Johns Hopkins Press, pp. 52-56.
41. MURPHY H. B. M. 1961. "Social change and mental Health." Milbank memorial Fund Quarterly, 39(July0:385-484.
42. NATIONAL CENTER FOR HEALTH STATISTIC. 1974. "Disability days, United States 1971." (June), Series 20, NO. DHEW publication (HRA):74-1517.
43.PARKER, S., and R. J. KLEINER. 1966. Mental illness in Urban Negro Community. New York: The Free Press.
44. SCHULL W. J., wt al. "A family set method for estimating heredity and stress." Journal of Chronic Diseases, 23:83-92.

45. SEIDMAN, H. 1970. "Cancer death rate by site and sex for religious and socioeconomic groups in New York City." Environmental research, 3:234-50.
46. SMITH, R. L. 1956. "Recorded and expected mortality among the Japanese in the United States and Hawaii with special reference to cancer." Journal of National cancer Institute, 17:459-73.
47. STAMLER, J. 1967. Lectures in preventive cardiology, New York: Grune and Stratton.
48. Status. 1976. Department of Commerce Bureau of the Census (August)ST 76-2.
49. SUSSER, M. 1967. "Causes of peptic ulcer: A selective review." Journal of Chronic Diseases, 20(June):435-56.
50. SYME S. L. 1976. "Social class and susceptibility and sickness." American Journal of Epidemiology, 104(July):1-8.
51. SYME S. L., and et al. 1964. "Some social and cultural factors associated with the occurrence of coronary heart disease." Journal of Chronic Diseases, 17:277-89.
52. _____ "Cultural mobility and the occurrence of heart disease." Journal of Health and Social Behavior, 6(Winter):178-89.
53. _____ "Cultural mobility and coronary disease in an urban area." American Journal of Epidemiology, 82:334-46.
54. TUKMAN, J. and R. J. KLEINER. 1962. "Discrepancy between aspiration and achievement as a predication of schizophrenia." Behavior Science, 7:443-47.
55. WEISBURGER, J. H., and R. RAINERI. 1975. "Dietary factors and the etiology of gastric cancer." Cancer Research, 35:3469-74.
56. WINKELSTEIN, W., JR., et al. 1966. "Familial aggregation of blood pressure." Journal of the American Medical Association, 195(March 7):848-50.
57. _____ "Epidemiology studies of coronary heart disease and stroke in Japanese men living in Japan, Hawaii and California: Blood pressure distributions." American Journal of Epidemiology, 102:502-13.
58. WOLFF, H. G., et al. (ed.). 1950. Life Stress and Bodily Diseases. Baltimore: The Williams and Wilkins Co.

مفهوم الإخراج الصحفي وأسسه الفنية

د.عمران الهاشمي المجدوب
أستاذ الإعلام المشارك بكلية الفنون والإعلام–جامعة طرابلس

مفهوم الإخراج الصحفي وأسسه الفنية

د. عمران الهاشمي المجدوب
كلية الفنون والإعلام – جامعة طرابلس

The concept of the journalist output and its artistic foundations
DR. Omran ALHashemi ALMajdoub
The Faculty of the Arts & Media- Tripoli University – Libya
Abstract:
This research stems directly to determine the concept of the press output, and the statement of the technical foundations, which is one of the main entrances, which is based on the printed press in the press show properly director of editorial policy, and distinctive from other press releases.
And determined the problem of this research in the following main question :(what the concept of the press output, and what are the technical foundations from which the output process of the press?)
The importance of this research as provided by the new additions in the scientific area in which the researcher seeks to study it, and therefore its importance is reflected in the definition journalist directing and highlight the importance and its role in the press release process, as well as the statement of the technical underpinnings necessary observed during the implementation of the press output process. Therefore, the primary objective of this research is to shed light on the concept of the press output as a science independent art has its schools and methods directorial debut, and focus on core entrances of the technical underpinnings of the press output, thus highlighting the importance and prestige of technical element to attract or repulsive to the reader as he is considered the foundation component in version printed press.
Finally, the Search reached a number of results:
1. THE Press output is the fifth pillar of Arts in journalism after good coverage of events and editorial material selection and evaluation, and style editing, and writing good offered to the events.
2 - mean, the press output process distribution Altibograveh of printed words, pictures and spacers, tables and lines, addresses the elements on the surface of the white page distribution targets displayed aesthetic relieves the reader's eye and help him and tempt him to read and draw attention to important topics and paid to buy the newspaper.
3. The press output is not independent job in the newspaper, but it is a work has a direct link to liberalization, as the subject and place of publication in the thread linked politically as type was or culturally or artistically, and is also linked to its importance, this can be said, that the journalist job output editorial and joint technical Located in the editorial part of the machine and technical section.
4 - Press the output affected in various aspects, among other factors concerning the status of the press in terms of capacity and capabilities possessed by the newspapers as well as the systems of media and politics work, The impact of these factors on they constitute the basic determinants of the forms of output and that have a direct impact on the press output.
5. O bases are a number of techniques observed by the press director, he is after that recognizes the components of form, texture, and space, and the size, value, design and output is keen to implement thesae principles: the foundations of journalistic and artistic, psychological and physiological.

مقدمة:

الإخراج الصحفي فن قائم بحد ذاته، يتأثر بالعوامل النفسية والفسيولوجية المحيطة به، ومر عبر مسيرته بمراحل عدة، انسجمت مع التطورات التي حدثت في جسمه والتي على علاقة مباشرة بجميع مفاصله ومكوناته من حروف وعناوين وصور ورسوم وفنون التحرير الصحفي.

وهذه التطورات التي جاءت نتيجة للتقدم العلمي التي شهدتها فنون الصحافة بشكل عام وفن الإخراج الصحفي على وجه التحديد كانت وبدون شك حصيلة جهود العلماء والفنيون الذين أحدثوا قفزة ملموسة في تقنيات وسائل الاتصال وجميع مفاصل الطباعة.

ورافق جميع هذه التطورات امكانات وقدرات الفنيين وفي مقدمتهم المخرجون الصحفيون الذين واكبوا حلقات

التقدم ونهضوا بأنفسهم ونهلوا من بحار هذا الفن بشكل استطاعوا من خلاله أحداث التزاوج بين الفن وعجلة التطور التقني والرقمي الذي طرأ على أركان وجنبات فنون الطباعة.

ملخص:

ينطلق هذا البحث بشكل مباشر لتحديد مفهوم الإخراج الصحفي، وبيان أسسه الفنية التي تعد إحدى المداخل الأساسية التي يستند عليها المخرج الصحفي في إظهار المطبوعة الصحفية بالشكل الملائم لسياستها التحريرية، والمميز عن غيرها من الإصدارات الصحفية الأخرى.

وتتحدد مشكلة هذا البحث في السؤال الرئيس التالي:(ما مفهوم الإخراج الصحفي، وما هي الأسس الفنية التي تنطلق منها عملية الإخراج الصحفي؟)

وتكمن أهمية هذا البحث فيما يقدمه من اضافات جديدة في المجال العلمي الذي يسعى الباحث لدراسته ، ولذلك فأن أهميته تتجلى في التعريف بالإخراج الصحفي وابراز أهميته ودوره في عملية الإصدار الصحفي، وكذلك بيان الأسس الفنية اللازم مراعاتها اثناء تنفيذ عملية الإخراج الصحفي. ولذا فأن الهدف الأساسي من هذا البحث هو تسليط الضوء على مفهوم الإخراج الصحفي كعلم وفن مستقل له مدارسه وأساليبه الإخراجية، والتركيز على المداخل الأساسية المتمثلة في الأسس الفنية للإخراج الصحفي، وبالتالي إبراز أهميته ومكانته الفنية كعنصر جذب أو منفر للقارئ كونه يعتبر المكون الأساس في إصدار المطبوعة الصحفية.

وتوصل البحث الي عدة نتائج أهمها:

1- يعتبر الإخراج الصحفي الركيزة الخامسة في فنون الصحافة بعد التغطية الجيدة للأحداث واختيار المادة التحريرية وتقييمها، وأسلوب التحرير، وكتابة المقدمة الجيدة للأحداث.

2- يعنى الإخراج الصحفي بعملية توزيع العناصر التيبوغرافية المتمثلة في الكلمات المطبوعة والصور والفواصل والجداول والخطوط والعناوين على سطح الصفحة البيضاء توزيعاً يستهدف عرضها بشكل جمالي يريح عين القارئ ويساعده ويغريه على القراءة ويلفت النظر إلى الموضوعات الهامة ويدفعه إلى شراء الصحيفة.

3- إن الإخراج الصحفي ليس عملاً مستقلاً في الصحيفة، وإنما هو عمل له ارتباط مباشر بالتحرير، حيث أن الموضوع ومكان نشره في الصفحات مرتبط بنوعه سياسياً كان أو ثقافياً أو فنياً، ومرتبط أيضاً بأهميته، لهذا يمكن القول، أن الإخراج الصحفي مهمة تحريرية وفنية مشتركة تقع في إطار الجهاز التحريري والقسم الفني.

4- 4الإخراج الصحفي يتأثر في جوانبه المختلفة بجملة من العوامل التي تتعلق بوضع العمل الصحفي من حيث القدرات والامكانات التي تمتلكها الصحف وكذلك بالنظم والسياسة الإعلامية، ويتمثل تأثير هذه العوامل في كونها تشكل المحددات الأساسية لأشكال الإخراج والتي لها تأثير مباشر على إخراج الصحف.

5- أسس الإخراج هي عدد من الأساليب الفنية التي يراعيها المخرج الصحفي، فهو بعد أن يتعرف على مكوناتها من وشكل، وملمس، وفراغ، وحجم، وقيمة، في التصميم والإخراج يحرص على تنفيذ هذه الأسس وهي: الأسس الصحفية والفنية والنفسية والفسيولوجية.

والباحث عندما يتحدث عن الإخراج الصحفي، لابد من التأكد بأنه يسعى ويركز على شكل الصحيفة وهيئتها، وفي ذات الوقت يهتم بمضامين فنون التحرير من خبر وحديث وتحقيق بصورة تمهد الطريق أمام المخرج الصحفي لإظهار قدراته وابداعاته وتخيلاته وصولاً إلى تقديم صحيفة متكاملة شكلاً ومضموناً للقارئ.

وعلينا أن نعترف بأن الانتاج العلمي وأقصد بها الدراسات العلمية بأنها لم تحظ بالاهتمام المطلوب، حيث تعاني المكتبات العربية نقصاً كبيراً في مثل هذه الدراسات، ويمكن القول بأن الإخراج الصحفي يأتي في مقدمة الفنون الصحفية الذي مازال يعيش المجهول وعدم الاهتمام. ويطمح الباحث ان تكون هذه الورقة البحثية حافزا يشجع الباحثين على اجراء المزيد من الدراسات العلمية في مجال الاخراج الصحفي كونه أحد اساسيات الانتاج الصحفي قديما وحديثا.

وتتحدد مشكلة هذا البحث في السؤال الرئيسي الآتي:(ما مفهوم الإخراج الصحفي، وما هي الأسس الفنية التي تنطلق منها عملية الإخراج الصحفي؟).

وتكمن أهمية هذا البحث فيما يقدمه من اضافات جديدة في المجال العلمي الذي يسعى الباحث لدراسته، ولذلك فأن أهميته تتجلى في التعريف بالإخراج الصحفي وابراز أهميته ودوره في عملية الإصدار الصحفي، وكذلك بيان

الأسس الفنية اللازم مراعاتها اثناء تنفيذ عملية الإخراج الصحفي. ولذا فأن **الهدف الأساسي** من هذا البحث هو تسليط الضوء على مفهوم الإخراج الصحفي كعلم وفن مستقل له مدارسه واساليبه الإخراجية، والتركيز على المداخل الاساسية المتمثلة في الأسس الفنية للإخراج الصحفي، وبالتالي إبراز أهمية ومكانة الإخراج الفني كعنصر جذب أو منفر للقارئ كونه يعتبر المكون الأساس في إصدار المطبوعة الصحفية.

ويندرج هذا البحث في إطار البحوث النظرية المكتبية التي تعتمد على المصادر والمراجع المتخصصة في جمع المعلومات لسبر غور مشكلة أو ظاهرة معينة.(1)

إن الموضوع الرئيس لهذا البحث يتناول تحديد مفهوم الإخراج الصحفي، وبيان أسسه الفنية التي تعد إحدى المداخل الأساسية التي يستند عليها المخرج الصحفي في إظهار المطبوعة الصحفية بالشكل الملائم لسياستها التحريرية، والمميز عن غيرها من الإصدارات الصحفية الأخرى. ويتم تناول ذلك من خلال مبحثين، حيث يركز الأول منهما على تعريف الإخراج الصحفي وأهميته، فيما يبين المبحث الثاني الأسس الفنية لعملية الإخراج الصحفي.

المبحث الأول/ مفهوم الإخراج الصحفي وأهميته:

(أ) مفهوم الإخراج:

إن معظم الكتب والمؤلفات التي تناولت الإخراج الصحفي والذي يعتبر الركيزة الخامسة في فنون الصحافة بعد التغطية الجيدة للأحداث واختيار المادة التحريرية وتقييمها، واسلوب التحرير، وكتابة المقدمة والعناوين، تناولت هذه الكتب والمؤلفات عدداً من تعريفات الإخراج الصحفي ندرج هنا بعضاً من هذه التعريفات:

يعرف (إبراهيم إمام) الإخراج الصحفي بأنه: عملية تخطيط صفحات الجريدة وتنويع مواد التحرير من اخبار ومقالات وصور ورسوم وخطوط العناوين على الصفحات، وذلك بناءاً على الأسس الفنية والنفسية ومراعاة ميول القراء وطبيعتهم البصرية والعقلية على ان يكون ذلك منسجماً مع سياسة الصحيفة في التحرير والإخراج معاً.(2)

ويعرفه (سامي ذبيان) بقوله: انه عملية مكملة لعملية التحرير، مرتبطة وتتأثر بها كما توثر عليها، أي إننا عندما نريد إخراج موضوع ما لابد من مراعاة نوع الموضوع، تحقيقا مصوراً أو مقالاً أو تحليلاً سياسياً أو خبراً وأهمية الموضوع رئيسياً أو فرعياً أو ثانوياً وحجم الموضوع، عناوينه وصوره وهذه كلها عوامل وعناصر يحددها التحرير.(3)

وعرفه (عبد العزيز الصويعي) بقوله: "هو جانب من جوانب مجالات الإخراج المتنوعة، وهو فن قائم بذاته، اصبحت له دروس ومدرسون وعلمٌ يدرس.(4)

ويعرف فواد سالم الإخراج الصحفي بقوله: "ان الإخراج يتعلق بتوزيع العناصر

التيبوغرافية فوق حيز الصفحة واختيارها وابرازها وفقاً لخطة معينة، وبمعنى آخر، الإخراج الصحفي هو فن تحريك وإدارة العناصر التيبوغرافية على الصفحة".[5]

ويرى (أشرف صالح) أن الإخراج الصحفي "هو خروج الصحيفة من حيز المؤسسة الضيق إلى القراء بعالمهم المتسع، ويقول أن هذا المصطلح يشير بهذا المعنى إلى كل العمليات الفنية التي تساعد على ذلك الخروج وبالتالي تشمل كلا من التيبوغرافيا والتصميم بل وحتى الطباعة".[6]

ويركز (كرم شلبي) في تعريفه للإخراج الصحفي على انه توزيع المواد التيبوغرافية الكلمات المطبوعة والصور والفواصل والجداول والخطوط والعناوين على سطح الصفحة البيضاء توزيعاً يستهدف عرضها بشكل جمالي يريح عين القارئ ويساعده ويغريه على القراءة ويلفت النظر إلى الموضوعات الهامة ويدفعه إلى شراء الصحيفة.[7]

أما (محمود علم الدين): فأنه جاء بعدد من التعريفات نذكر هنا بعضا منها:

- هو خطوة من خطوات اصدار الصحيفة، تتعلق بمظهرها الخارجي وشكلها الفني، أي تلك الجوانب المرتبطة بالمضمون والمؤثرة فيه والمعبرة عنه.
- الإخراج مجموعة من العمليات الفنية، تبدأ بعد الانتهاء من عمليات التحرير.
- هو أحد الفنون التطبيقية الحديثة ذات الارتباط الوثيق بالتعبير الصحفي، والاتصال الجماهيري.
- الإخراج فن عملي بالدرجة الاولى، وليس فناً جمالياً مجرداً كالتصوير والنحت والموسيقى.[8]

ويذهب إلى تعريف آخر في كتابه الثاني المعنون (الفن الصحفي) ويقول "الإخراج الصحفي هو العملية التي يقوم من خلالها عرض المضمون الصحفي الذي تحمله المادة التحريرية والإعلانية بعد كتابتها وتحريرها وتقديمه بشكل مناسب يروق قارئ الصحيفة، وبطبيعتها كوسيلة اتصال لها سماتها المميزة، ولها قراؤها ذوي الاهتمامات والميول والعادات الاتصالية. [9]

ويذهب د. فهد عبد العزيز إلى إن: الإخراج الصحفي يتأثر بجوانبه المختلفة بجملة من العوامل التي تتعلق بوضع العمل الصحفي من حيث القدرات والامكانات التي تمتلكها الصحف وكذلك بالنظم والسياسة الإعلامية، ويتمثل تأثير هذه العوامل في كونها تشكل المحددات الأساسية لأشكال الإخراج والتي لها تأثير مباشر على إخراج الصحف وهذه العوامل هي:

1- السياسة التحريرية في الصحيفة.
2- شخصية رئيس التحرير.
3- قدرات وامكانات جهاز الإخراج في الصحيفة.

4- القدرات التقنية المتوفرة في الصحيفة.

5- القدرات الاقتصادية المتوفرة في الصحيفة.

6- طبيعة وشكل المادة الصحفية (نوع المضمون).

7- طبيعة الصحف المنافسة ومستوى الإخراج فيها.

8- النظام الإعلامي الذي تصدر فيه الصحيفة.

9- تصور هيئة التحرير عن الشكل الإخراجي في الصحيفة.[10]

إن الإخراج الصحفي ليس عملاً مستقلاً في الصحيفة، وإنما هو عمل له ارتباط مباشر بالتحرير، حيث ان الموضوع ومكان نشره في الصفحات مرتبط بنوعه سياسياً كان أو ثقافياً أو فنياً، ومرتبط أيضاً بأهميته، لهذا يمكن القول، أن الاخراج الصحفي مهمة تحريرية وفنية مشتركة تقع في إطار الجهاز التحريري والقسم الفني والعكس غير صحيح.

وبعد هذه الجولة مع المؤلفين والأكاديميين واصحاب الاختصاص الذين تناولوا في كتبهم تعريف الاخراج الصحفي، لابد من الإشارة إلى إن الإخراج الصحفي هو حصيلة عملية تعاون وتفاعل بين قسم التحرير والقسم الفني، فكلما كانت المادة التحريرية من اخبار وموضوعات على جانب من الاهمية وتقع في اطار التناغم مع احتياجات واهتمامات وميول القراء ، كلما اضطر كادر القسم الفني من مصممين ومنفذين ومخرجين إلى الغوص في اعماق التفكير والتخيلات والتصورات لاستنباط تصاميم واشكال تليق وتنسجم وتبرز تلك المادة التحريرية وبالصورة التي تحقق اهدافها.

وإذا قمنا بتحليل تعريفات الإخراج الصحفي التي جاء الاكاديميون والباحثون والمهنيون نجد ان هناك شبه اتفاق على وجود بعض الاتجاهات المشتركة والتي حددها كمال عبد الباسط الوحيشي[11] بالآتي:

1- إن الإخراج الصحفي هو عملية استنباط واظهار لأشكال وعناصر الى حيز الوجود.

2- إن هذه الاشكال والعناصر هي عبارة عن حروف وكلمات ورسوم وصور وجداول وفواصل وخطوط وعلامات ذات طابع متحرك.

3- إن المخرج الصحفي يمتلك حاسة فنية متميزة وهو الذي يتولى اعادة ترتيب هذه العناصر والاشكال على الصفحة بصورة متوازنة في شكلها، متناغمة في تكوينها، ينتج عنها صفحة سهلة القراءة والاطلاع.

4- إن العملية تحكمها رؤية فنية تشكيلية جميلة في حسن التصميم والتشكيل والتوضيب وفق بعض الاسس والقواعد.

5- إن هناك بعض الاعتبارات التي يجب مراعاتها عند اخراج الصفحة وهي المساحة واهمية الموضوع وسياسة الصحيفة ونوعية القراء، والطريقة المستخدمة في الطبع.

6- إن مفهوم الإخراج وظيفي يقوم على التعبير عن الموضوع والاتصال بالقراء في عالمهم الواسع.

(ب) أهمية الإخراج الصحفي:

قبل أن يرى الإخراج الصحفي النور، كانت الصحف تشبه إلى حد كبير صفحات الكتاب الذي يفتقر للفن والجمال، وبات الإخراج الصحفي نسخة مطابقة للكتاب، بعيداً عن استخدامات العناصر التيبوغرافية وعن استمالة القارئ، ولابد من الإشارة إلى أن قراء الصحيفة في ذلك الوقت كانوا يشكلون قلة من اصحاب الثقافة والمصالح التجارية، وكانت الصحف آنذاك تعبر عن اهتماماتهم الشخصية.

ولكن الذي حدث بعد الثورة الصناعية في اوربا وظهور الصحافة الشعبية ساعد على ظهور الخطوات الأولى للإخراج الذي واكب التطور العلمي والتقني في وسائل الإعلام المختلفة.

ونتيجة لما حملته هذه الثورة من افكار وقيم ومنها الاعتراف بمكانة الفرد بالمجتمع ودوره في البناء المادي والمعنوي على اعتبار انه الاداة الرئيسية في اية عملية تستهدف التطور والتقدم، تغيرت مهمات الصحافة الصادرة في ذلك الوقت، وأصبح من أولى واجباتها الاساسية تثقيف الانسان والنهوض بمستواه الثقافي والاجتماعي مما عمل على زيادة ملموسة في عدد قراء الصحف.

هذا الواقع الجديد فرض على الإخراج الصحفي أن يلعب دوراً بارزاً ليكون باستطاعته مواكبة مسيرة التطور الصحفي آنذاك، وتجسد هذا الدور في استخدام العناصر الطباعية على صفحات الصحف لكونه على صلة مباشرة بهذه العناصر من حيث انتاجها وتطويرها وتحسينها، والمقصود بها (العناصر التيبوغرافية) Typography.

واستخدامات هذه العناصر كانت تقف حجر عثرة أمام التطور الفني للإخراج في ذلك الوقت، لأن الإخراج المتبع كان يعتمد على نظام الأعمدة الذي يحد من حرية المخرج ولا يمنحه مجالاً للتفنن والابداع، ونتيجة للحاجة الاضطرارية لإبراز الأفكار الفنية وامكانات المخرج الخلاقة واعطاء القارئ فسحة التنقل في الصفحة الواحدة دون الحاجة الى التقيد بالقراءة من أول العمود إلى اخره، وهكذا مع الاعمدة الاخرى، وهذا يعني أن تقسيم الصفحة إلى اعمدة طولية تقيد القارئ وتجعله يتبع طريقة القراءة بالاتجاه الرأسي لمسار البصر العام عند القراءة بعيداً عن الاتجاه الأفقي، لذلك ظهرت طريقة جديدة في الإخراج تمثلت في منح المخرج صفحة بيضاء بدون أعمدة يعرض فيها مضامين الأخبار والموضوعات والصور والعناوين والعناصر التيبوغرافية الاخرى دون تقيد بنظام الأعمدة، مما مهد الطريق أمامه لإخراج الصفحات الجذابة والجميلة التي تسحب القارئ للقراءة والمتابعة والاطلاع.

وهذا الشكل الجديد من الإخراج الصحفي أصبح ممكناً مع استعمال الوسائل الفنية

الحديثة المساعدة للإخراج (العناصر التيبوغرافية) التي سمحت بظهور الاخراج الجديد الذي يعمل على أخراج صفحة جذابة ومشوقة وأطلق عليه (الإخراج المكيف) وهو حصيلة افكار وأبداع المخرج الصحفي، كما هو أبسط وأكثر اناقة من الإخراج العامودي ويساعد على القراءة.

والمقصود بالإخراج المكيف هو منح المخرج الحرية الكاملة في تعامله مع الصفحة البيضاء بعيداً عن القيود المشروطة، والتصرف بالطريقة التي يستطيع من خلالها توظيف العناصر التيبوغرافية بما ينسجم مع المساحات المخصصة للمواد التحريرية بشكل يخلق صفحة تتميز بالفن والجمال تمكن القارئ من الوصول إلى مضمون المادة بسهولة وبساطة.

ويقول إبراهيم إمام: "إن تطور أسلوب الإخراج الصحفي الأفقي يعد تطوراً كبيراً يختلف تمام الاختلاف عن الأسلوب العمودي التقليدي، وطبق تطبيقاً مبتكراً في الصحف النصفية التي أخذت تنتشر انتشاراً كبيراً في أوروبا وأمريكا وغيرها".[12]

ويطمح الإخراج الوصول إلى جعل صفحات الصحيفة مقروءة بسهولة وبشكل يريح عين القارئ، وإلى ضرورة ان تصاغ المواد الصحيفة من أخبار وموضوعات مختلفة بأسلوب ينسجم مع اهميتها، استناداً إلى حجمها وترتيبها في الصفحة وتصميم الصفحة قبل اخراجها بشكل مشوق وجذاب على شرط أن يتفق ذلك مع سياسة الصحيفة وهذا ينطبق على جميع الصفحات.

والإخراج الصحفي برأي د. فهد عبد العزيز العسكر: يعني توزيع الوحدات الطباعية فوق حيز الصفحة تبعاً لأهداف يسعى إلى تحقيقها كإبراز وحدات معينة مع العمل على عرض جميع الوحدات بما يهيئ للقراء الاطلاع عليها بيسر وسهولة.[13]

إن اشتداد المنافسة بين الصحف بعد التطور التكنولوجي الذي استفادت منه معظم الصحف، دفعت الصحافة إلى ترك الأساليب التقليدية القديمة التي كانت تتبعها منذ نشأتها واللحاق بركب التطور الذي شمل ميادين الحياة والذي من نتائجه أن ظهرت المدارس الإخراجية الجديدة والاساليب الإخراجية المختلفة والتي انصبت اهدافها على الاهتمام بشكل الصحيفة، مما سهل الطريق أمام القارئ ومكنه من القراءة ببساطة والمتابعة وانتقاء الأخبار والموضوعات التي تقع في دائرة اهتمامه.

فالإخراج الصحفي كعملية فنية وصحفية بالمظهر الخارجي والشكل الفني للصحيفة يتطلب توظيف مجموعة من المتغيرات (تحريرية واخراجية وفنية) في عرض المادة التحريرية والإعلامية وتقديمها في شكل مناسب يروق لقارئ الجريدة اليومية.[14]

ويعتبر الإخراج الصحفي خطوة من خطوات اصدار الصحيفة تتأثر بما يسبقها من خطوات وتؤثر بما يليها من خطوات، وهو واحداً من الأركان الرئيسية للفن الصحفي وجسر يصل بين افكار العاملين في مجال التحرير من محررين ومندوبين ومراسلين وكتاب الذين يحررون الأخبار والموضوعات من جهة وبين الطرق المعبدة التي تقنع القارئ بقبول تلك المواد

التحريرية من جهة أخرى.

والعملية الإخراجية عبارة عن استنباط لأفكار يعاد بناؤها في قالب جديد تغلب عليه الصبغة الجمالية والتي غالباً ما تنعكس ايجاباً على المضمون ليأخذ طابعاً مؤثراً ومعبراً في آن واحد، وهذا يعني أن العملية الإخراجية للصحيفة تساعد في جعل الورقة المطبوعة مقروءة بما تضيفه للمادة من حسن الترتيب والتوازن والتناغم بين مكوناتها بما يعطي الشكل العام للصحيفة جاذبية ورونقاً.(15)

ويهدف الإخراج الصحفي إلى تحقيق اربعة أهداف رئيسية هي، الارتفاع بالأنقرائية، وهي قابلية الصحافة لكي تكون مقروءة في يسر وسهولة دون إي عائق، وعرض الموضوعات المختلفة بطريقة تتفق مع اهميتها سواء بالنسبة لحجمها أو عناوينها أو ترتيبها في أجزاء الصفحة، وكذلك تصميم الصفحات بأساليب جذابة ومشوقة ومحققة للمعاني المستهدفة، على أن يتم ذلك بطريقة مدروسة تخلع على الصحيفة سمات محددة تكون شخصيتها وتميز ملامحها، فيعرفها القارئ من أول وهلة ويكون معها ما يشبه بالصداقة والألفة حتى أنه يؤثرها على غيرها ولا يرضى عنها بديلاً.(16)

وتتضمن عملية الإخراج مجموعة من العمليات الفنية بعد اكمال المواد التحريرية من أخبار وموضوعات وتحديد المساحات المطلوبة لكل فن من فنون التحرير، وكذلك مساحة الإعلانات وتحويل كل ذلك إلى القسم الفني الذي يتولى فيه رئيس القسم أو المخرج الأول وضع التصاميم الأولية من حيث التوزيع على الصفحات استناداً إلى وجهة نظر السكرتير الفني وحسب تبويب الصفحات.

ولكن هل المخرج يتمتع بكامل حريته ويمكنه التلاعب بالأسلوب والشكل كما يشتهي؟ الجواب كلا لأن هناك عوامل تتحكم حتى بأسلوب المخرج وأفكاره وتصوراته وخياله، حيث تفرض سياسة التحرير على ضرورة مراعاتها من القسم الفني وهي:

1- ضرورة ابراز المادة التحريرية المنشورة بطريقة تعطي الأولوية للأهم ثم المهم والأقل اهمية، وكذلك ضرورة ابراز القيم الأخبارية بما ينسجم وسياسة واتجاهات الصحيفة.
2- ضرورة أن يخاطب المضمون القطاعات الاقتصادية وتشجيعها لكي تسهم اعلاناتها في اقتصاد الصحيفة وذلك لأن الإعلان يعتبر العمود الفقري لأي صحيفة.
3- الامكانات الطباعية المتوفرة ومدى تطورها وقدراتها في دعم شكل الصحيفة بالأضافة إلى امكانات القسم الفني من مصورين ومنفذين ومصممين وخطاطين.
4- والأهم من كل ذلك ضرورة أن يراعي الإخراج طبيعة الجمهور (نفسية الجمهور) الموجه إليه المضمون من حيث المستوى الثقافي والاجتماعي ومن حيث السن والجنس.

ويقول (ستانلي جونسون): "إن الإخراج الصحفي لا يرمي إلى اغراض جمالية بحته،

لأنه فن تطبيقي يحقق أغراض الصحافة من حيث الوضوح والدقة والصدق في التعبير ويسر القراءة وجاذبية الصحيفة للقراء".[17]

إما (سامي ذبيان) فيقول: "إن الإخراج الصحفي في الواقع تعبير عن العمل الفني في المؤسسة الصحفية، وهذه المادة أي الإخراج تعتمد على عدة مراحل لكي تنفذ أبرز تلك المراحل، هي مرحلة العلاقة بين التحرير والمطبعة، عبر هذه العلاقة يجب أن نحصل على المادة المصفوفة التحريرية والمطبوعة على ورق مناسب للإخراج، إذ بدون هذه المادة التحريرية المطبوعة لا يمكن أن نقوم بإخراج الصفحات.[18]

إن الإخراج الصحفي يعني وضع تصاميم عامة لنشر الاخبار والموضوعات الصحفية في الجريدة أو المجلة في المكان المحدد له، ثم تنفيذ هذا التصميم أي إلصاق المادة الصحفية على صفحة (الماكيت) التي هي في الواقع صفحات بيضاء وتحديد مكان العنوان الرئيسي وتحديد مكان صورها، وأحاطتها بالإطارات المطلوبة، لذا يمكن القول أن في تنفيذ الإخراج الصحفي يعتمد على مرحلتين هما:

1- تصميم الإخراج.

2- تنفيذ الإخراج.

ويصف (أشرف محمود صالح) الإخراج الصحفي؛ بأنه "أحد الفنون التطبيقية ذات الارتباط الوثيق بالتعبير الصحفي والاتصال الجماهيري، وتقييم الأخبار وبيان اهميتها النسبية، وهو فن عملي بالدرجة الأولى وليس فناً جمالياً مجرداً كالتصوير والنحت والموسيقى، وأن كان هذا القول لا ينفي بطبيعة الحال القيم الجمالية المنشودة في تصميم المطبوعات الصحفية، وهو الفن الذي يعني بجانبين مهمين في شكل الصحيفة:

أولهما: ما يتضمنه جسم الصحيفة من عناصر كالحروف والصور والفواصل وغيرها من حيث تصميمها واختيار احجامها وأثقالها.

وثانيها: يتصل بتحريك هذه العناصر على الصفحة وتوزيعها توزيعاً معيناً يحقق وظائف صحفية وفنية محددة.

إن الإخراج كعملية فنية وصحفية ذات طابع مميز يتضمن جانبين اساسيين ومتعاقبين أولهما: جانب استراتيجي طويل المدى يسمى بالتصميم الأساسي Basic Design مترجماً في عدد من الملامح الشكلية الثابتة من عدد إلى أخر، بحيث تكون للصحيفة هوية تميزها عن غيرها من الصحف المنافسة، وتتسم هذه الملامح بالثبات النسبي ولا تتغير إلا عبر الفترات الزمنية الطويلة.. إما الجانب الثاني فهو مرحلي وقصير المدى يومي أو اسبوعي حسب دورية الصحيفة، ونعني به التوضيب lay Out والذي يجب ان يتسم بالتغيير والتنوع من عدد إلى أخر لكيلا يصاب القارئ بالملل، وذلك في إطار الثبات النسبي للتصميم الاساسي.[19]

ويشير (فهد عبد العزيز العسكر) إلى إن "الإخراج الصحفي يعد خطوة من خطوات إنتاج الصحف، وهي الخطوة المتعلقة بالشكل الذي تقدم به الصحف ما يتوفر لديها من مواد صحيفة، ولذلك لم يعد الإخراج مجرد الشكل الذي تظهر به الصحف لتبدو جميلة وجذابة للقراء فقط، حيث ثمت فارقاً بين المفهومين، ولعل الفارق يتعلق بالأدوار الوظيفية المستحدثة للإخراج الصحفي والتي تتبلور في المضامين التي تقدمها، ولم يعد عامل الجذب الوحيد للقراء الذين تعددت امامهم خيارات التلقي بشكل لم يكن معهوداً في ظل العمل الإعلامي التقليدي، ولهذا فأن القراء المحدثون يتطلعون إلى الصحف التي تستجيب في جانبي رسائلها، الشكل والمضمون، لحاجتهم الاتصالية المستجدة مع عملها على تقليل الوقت والجهد اللازم لاستيعاب وفهم هذه الرسائل".[20]

ويرى (محمود علم الدين) أن الإخراج الصحفي عملية يتم من خلالها عرض المضمون الصحفي الذي تحمله المادة التحريرية والإعلانية بعد كتابتها وتحريرها وتقديمها في شكل مناسب يروق لقارئ الصحيفة ولطبيعتها كوسيلة اتصال مطبوعة لها سماتها المميزة ولها قراؤها ذوو الاختصاصات والاهتمامات والميول والعادات الاتصالية التي تكشف عنها بحوث الأنقرائية في ظل منافسة الوسائل الاتصالية المطبوعة والمرئية والمسموعة.[21]

وعند المقارنة بين الماضي والحاضر في مجال الإخراج الصحفي، نجد أن الإخراج قد قطع اشواطاً بعيدة المدى في التطور والتقدم نتيجة للتطور التقني والتكنولوجي الذي اصاب عجلة الحياة في جميع مفاصلها ومازلنا ننتظر المزيد ولهذا يمكن القول أن الإخراج الصحفي قد واكب التطور العام والصحافة جزء منه وانسجم مع نظرة المجتمعات الى طبيعة عمل الصحافة ومهامها الأساسية ودورها في النهوض والتقدم ولابد من الاعتراف بان هذا التطور قد انعكس على إخراج الصحف في مجالات كثيرة من الحداثة والأبداع والتنوع في أشكال الحروف التي تجمع فيها المواد التحريرية، كما يمكن القول ان تطور مفهوم الصحافة ووظائفها والتقدم التقني قد مهد لها الطريق لمخاطبة جمهورها بشكل يختلف عما كانت عليه في السابق.

المبحث الثاني: الأسس الفنية للإخراج الصحفي:

اسس الإخراج هي عدد من الأساليب الفنية التي يراعيها المخرج الصحفي، فهو بعد أن يتعرف على مكوناتها من وشكل، وملمس، وفراغ، وحجم، وقيمة، في التصميم والإخراج يحرص على تنفيذ هذه الاسس وهي:

- **الأسس الصحفية**

إن فن الاعلام الحديث يصب جل اهتمامه على عقلية القارئ وميوله واتجاهاته، حيث أن طبيعة وسائل الإعلام ذات قطبين، الأول المحرر (الصحفي) وهو(المرسل) للخبر

والموضوعات، والثاني هو القارئ (المستقبل) للخبر والموضوعات، لهذا فأن هذه الأسس تفرض أن تكون المواد التحريرية جديدة وتثير اهتمام القارئ وأن تكون قريبة منه من حيث الزمان والمكان وأن تقع في دائرة أوسع القراء، بالإضافة إلى عناصر الجذب التي تتجسد في الصور والعناوين والاطارات والجداول والفواصل التي هي في الواقع تستخدم لتكون عناصر ابراز وجذب، وتتجلى مهارة المخرج الصحفي في اختياره وتفضيله لعنصر على اخر بقدر ما يحقق هدف سحب القارئ وجذبه لمواصلة القراءة.

وتلعب شخصيته الصحفية واتجاهها دوراً كبيراً في الاسلوب المتبع في التحرير وفي طريقة الإخراج، وعلى سبيل المثال، إذا كانت الصحيفة رياضية فأن الاسلوب سوف يجسد روح الشباب والمادة التحريرية سوف تتركز على الأخبار الرياضية والفن والأدب أكثر من موضوعات وأخبار السياسة والاقتصاد، ومن الضروري وفي جميع الأحوال أن تنشر هذه الأخبار والموضوعات بأمانة ودقة وموضوعية.

ولأبد من الاعتراف بأن تطور العملية الإخراجية التي تناسبت مع تطور الصحافة وفنونها، هي حصيلة لتجربة عميقة وطويلة عملت وبصورة مباشرة على انبثاق المدارس الإخراجية التي تمتلك مجموعة من الخبرات السابقة مكنت الكثير من المخرجين الإفادة منها في الإخراج الصحفي، وهي ترشد المخرج الصحفي المبتدئ إلى الأسس العامة والمبادئ المنتقاة من الخبرات والتجارب السابقة، وهي مفيدة كمعيار لتنظيم عملية الابداع التشكيلي والاخراجي ولكنها لا تغني عن الابداع الفردي.[21]

ويمكن القول أن الأسس الصحفية التي ولدت من خلال التجربة وتطورت مع تقادم الممارسة المهنية عند المخرجين وزادتها وضوحاً وتكاملاً الدراسات والبحوث العلمية، قد أصبحت المجرى الرئيسي الذي يقوم عليه الإخراج الصحفي، وبهذا سوف لا يكون بالإمكان الوصول إلى أسس جديدة دون الرجوع إلى الابداعات والامكانات التي سطرتها خبرات وقدرات الأولون من المخرجين وأن هذه الخبرات والقدرات قادة إلى ولادة وظهور المدارس الإخراجية المتعددة.

وحول موضوع هذه الأسس يقول د. إبراهيم إمام: "الواقع أن دراسة الأسس الصحفية كتقويم الاخبار واختيار ما يصلح منها للنشر وتقدير القيمة النسبية لكل خبر، تعتبر دراسة واسعة مستقلة بحد ذاتها، وفي الصحف الاجنبية خبراء في تذوق الاخبار تلقى على كواهلهم هذه المسؤوليات، ولكن المخرج الصحفي لابد ان يكون قديراً هو الاخر في هذا الفن، لان العلاقة بين اسلوب التحرير واسلوب الإخراج علاقة وثيقة تشبه علاقة المضمون بالصياغة فى الفنون".[22]

وتظهر صورة الأسس الصحفية واضحة من خلال طرق صياغة الأخبار والموضوعات والمقالات، والاستعانة بقدر الامكان بالعناصر التيبوغرافية وحسن توظيفها، لتخلق من خلال تفاعلها شكلاً جميلاً وجذاباً عن طريق الإخراج الصحفي.

إن العناصر التيبوغرافية ليست سوى جزء من عمليات الإخراج الصحفي تختص فى بناء الوحدات الطباعية التي تستخدم في عمليات الإخراج التالية المتمثلة في إعداد الاشكال والتصاميم الأساس للصفحات.[23]

ويرى الباحث أن الأسس الصحفية تفرض على إدارات المؤسسات الإعلامية ومنها الصحف، تقديم مضامين ثابتة في الاخبار والموضوعات تحقق طموحات القراء في الثقافة والمعرفة وتتغازل مع اهتماماتهم واحتياجاتهم بأساليب وطرق فنية تمتاز بالجاذبية والجمال من خلال قدرات ومهارات الإخراج الصحفي.

الأسس الفنية

إن الخوض في ماهية هذه الأسس تفرض علينا العودة إلى بدايات الإخراج في الصحف، فقد كان يعتمد في إخراج الصفحة على استخدام النظام الرأسي في ترتيب اعمدة الصفحة وحجم العناوين وكان يتقيد بمساحة عرض العمود، فافتقر الإخراج إلى ابسط معاني الجذابية والجمال.

وكانت الثورة الصناعية في أوروبا في مقدمة الأسباب التي مهدت لتطور الإخراج، فحدث تقدم سريع فى تقنيات الطباعة مما مهد الطريق أمام الاستفادة من عناصر مختلفة هي الأخرى اشتركت في عملية التطور هذا.

وازدادت الأمور تحسناً أكثر بتطوير تقنيات الطباعة في هذا العصر، الأمر الذي مكن الصحف من تطوير شكلها حتى تتمكن من مواجهة منافسة وسائل الإعلام الأخرى، وكانت الاستعانة بالأسس الفنية الجمالية للتصميم هو الحل، فالاهتمام بجمال الشكل يجذب الانتباه ويثير الاهتمام ويغري بشراء الصحيفة وتصفحها ويدفع إلى اكمال مطالعة صفحاتها.[24]

إن هذا التطور والتقدم في تقنيات الطباعة فرض على الفنيين البحث عن اسلوب جديد في اخراج الصفحات غير الاسلوب الرأسي ونتيجة للجهود المضنية استطاعوا من اكتشاف الاسلوب الافقي في الإخراج مما مهد الطريق امام استخدامات العناوين المنتشرة على طول مساحة عرض الصفحة أو على عدد من الأعمدة.

ولم يقف التطور والتقدم عند هذا الحد، وإنما تجاوز ذلك، بعد أن عمل المخرجون على تجاوز الاعتماد على اسلوب الاعمدة سواء عن طريق الإخراج الرئيسي أو الافقي، وتم اعطاء المخرج صفحة بيضاء يتصرف بها حسب قدراته وفنه من اجل أن يقدم للقارئ صفحة متميزة بالجاذبية والجمال وحسن الإخراج، ولقد تطورت أساليب الإخراج متجهة إلى تجاوز فكرة الاعمدة التقليدية في عملية الإخراج، فأصبحت الصفحة لوحة بيضاء غير محدودة بالأعمدة تحديداً جامداً.

ويشير الصاوي إلى إن الاتجاه التقليدي يقوم اساساً على فكرة التوازن الشكلي بين عناصر الصفحة وانه يتميز بالهدوء والرتابة والبعد عن الأساليب الصارخة والمثيرة.

ويضيف، أن الصفحة التي كانت تلتزم بهذا الاتجاه تتوجه عادة إلى الطبقات المثقفة التي تسعى وراء الصحافة سعياً، لهذا فمن الطبيعي ان تحتفظ بوقارها، ولم تكن الحاجة المخرج عن تقاليدها حتى لا تسيئ إلى قرائها وبناءً عليه فقد امتازت بالهدوء والبساطة إضافة إلى خلو صفحاتها من العناوين الضخمة والصور المثيرة والألوان الصارخة وقد استمر ذلك حتى نهاية القرن التاسع عشر.[25]

إن هذا الاتجاه استمر مهيمناً على الصحافة المكتوبة لفترة تقارب المائة عام، فمنذ بداية القرن الثامن عشر كانت الصحف تختصر الهوامش بشكل كبير من اجل استيعاب أكبر كم من الاخبار والإعلانات، وذلك في ضو المنافسة بينها، كذلك لجأت هذه الصحف إلى استخدام الأحجام الصغيرة من الحروف مما يجعل الصفحة تتسع لأكبر كم من الموضوعات الإخبارية على الرغم من إن هذا الحجم متعب لعين القارئ.

وعلاوة على ذلك فقد لجأت أيضاً إلى الاتساعات الضيقة من الاعمدة وعوضاً عن المساحات البيضاء، فقد لجأت هذه الصحف إلى استخدام الجداول والفواصل الرفيعة للفصل بين اعمدة الصفحة وموضوعاتها توفيراً للمساحات من اجل استغلالها في الكتابة، لذلك كانت الصفحة تبدو مكتظمة بالأعمدة نظراً لتقاربها ولكثرتها.

ومن السمات التي تميز بها الاتجاه العمودي كثرة عدد القصص الإخبارية على الصفحة بالإضافة إلى كثرة الخطوط المستخدمة فى كتابة موضوعاتها واللجوء إلى استخدام الزخارف والحلي (نجوم، مربعات، دوائر صغيرة) لفصل موضوعات الصفحة بعضها عن بعض.[26]

وتمتع المخرج الصحفي بحرية الانطلاق في إعادة توزيع العناصر التيبوغرافية على الصفحة بصورة جيدة بالاعتماد على التصميم والتشكيل الفني الذي يساعد على مرونة الاخراج والتنفيذ، فعمل على عرض الاخبار بنفس الطريقة التي يعرض بها الفنان صورة أو رسماً، وعلى هذا الاساس، أصبح التصميم الصحفي مبنياً على اسس متشابهة للتصميم الفني.

إن الأسس الفنية فرضت على المخرج الصحفي عند تنفيذ الصفحة ان يحرص على حسن استخدامه للعناصر التيبوغرافية بالصورة التي تحقق بنياناً اساسياً ينسجم وشخصية الصحيفة واتجاهاتها أولاً، ويحقق الانسجام بين هذه العناصر ودورها في إخراج صفحة تتصف بالجمالية ثانياً.

والمخرج الصحفي ينظر إلى الصحيفة التي يخرجها على انها وحدة متكاملة من حيث الشكل العام والإخراج الفني، ومع أن كل خبر لابد ان يقع في مكانه المخصص له واللائق به، فلابد أن تنسجم العناوين والحروف والصور وغيرها لتكون فيما بينها وحدة فنية تريح النظر وتمتع

القارئ وتعينه على القراءة، ولا يمكن تحقيق هذه المميزات إلا إذا كانت الصفحة منظمة تنظيماً فنياً.[27]

الأسس النفسية

هناك علاقة ترابطية بين القارئ والصحيفة، والاتصال بينهما يجري بالشكل المطلوب إذا تم اقتناع القارئ عبر محتويات الصحيفة وبشكل خاص إذا تم الاتصال بصورة مريحة وسهلة بعيداً عن النفور والازعاج.

ولكن لابد وأن تكون هناك بعض العوائق التي تقف في طريق هذا الاتصال، فالقارئ غالباً ما يعاني من بعض الحالات النفسية تتعلق بحياته الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والتي تتعلق ببعض الانفعالات الشخصية التي تحصل عنده عبر الممارسة الحياتية اليومية، والسياسة التحريرية وطريقة الاخراج لابد ان تتكفل بمثل هذه الامور وتحقيق الاتصال من خلال حسن توظيف العناصر التيبوغرافية، وهذا يتوقف إلى حد كبير على الحالة النفسية عند القارئ أثناء القراءة.

ومن الطبيعي أن تتأثر الصحافة بعلم النفس الحديث، كما تأثرت به سائر العلوم الاخرى، باعتبار أن الصحافة وسيلة اعلام تهدف إلى جذب القارئ ثم التأثير فيه واقتناعه.[28] وقد انشأت بعض الصحف اقساماً خاصة للبحوث في هذا المضمار مادامت الصحيفة وسيلة للتأثير في القارئ.[29] من اجل أن يتمكن المخرج الصحفي من استخدام نتائج علم النفس للوقوف على كل العوامل التي تسيطر على ميول ورغبات القراء، وكذلك الوقوف على اتجاهاتهم وانفعالاتهم بهدف الوصول إلى اعماق القارئ والتأثير فيه.

وما دامت الصحافة بشكل عام هي وسيلة من الوسائل التي تلعب دوراً مهماً في تغيير الاتجاهات والتأثير على القراء فأن الضرورة تحتم دراسة نفسية القارئ لضمان نجاح عملية التأثير. وذهب بعض اساتذة الإخراج الصحفي إلى عدة عوامل تؤثر نفسياً على قارئ الصحيفة وحددها بستة عوامل هي:

1- السن (العمر).
2- الجنس (ذكر، انثى).
3- الوراثة.
4- الثقافة والتعليم.
5- أسلوب القراءة.
6- الألوان.

ويحدد (إبراهيم إمام) العوامل النفسية المؤثرة على نفسية القارئ بما يأتي:

1- السن.
2- اتجاهات لرأي.
3- أذواق القراء.
4- العقلية.
5- العادات القرائية.[30]

1- السن:

المقصود به اعمار الذين تتوجه الصحيفة إليهم، حيث ان التخطيط الحديث في الصحافة يتطلب معرفة الفئة العمرية التي تخاطبها الصحيفة، فميول ورغبات الشباب تنحو إلى التجديد في الموضوعات الصحفية وطريقة الاخراج، على عكس الشيوخ الذين يفضلون الاخراج التقليدي المحافظ وهم لا تعجبهم اساليب الاخراج المثيرة والاكثر تبرجاً واستخدامات الالوان الزاهية بصورة فوق العادة كما متبع في صحف الاثارة الصادرة في الولايات المتحدة ودول اوروبا.

وهم يرون ان استمرار الإخراج الرأسي في بعض الصحف المتزنة دليل على الوقار والاحترام، وعلى الجانب الاخر فأننا نرى للأطفال لونهم الخاص في الإخراج الصحفي الذي من الضرورة ان يعتمد على مختلف الصور والالوان، لذلك فان المخرج الصحفي عندما يختار حجم العنوان ونوعه وحجم الحرف الذي سيجمع المادة الصحفية، فأنه يضع في اعتباره العوامل النفسية للقارئ من حيث السن، فيجب ان نختار للأطفال الحرف الكبير والصورة والرسم الملون والعنوان الواضح، لان مخاطبة الطفل الذي لا يجيد القراءة لابد أن تكون باللغة التي يفهمها وهي الالوان والصور خاصة القريبة منه ومن خياله، وعلى الطرف الاخر فان المخرج الصحفي الذي يتجه إلى الشباب من خلال ابراز صور وعناوين تشبع اهتماماتهم بالمبتكرات والمخترعات الجديدة وتوقعات المستقبل وحلول مشاكلهم مع تكبير الصور والرسوم التي تعكس ذلك.[31]

2- الجنس:

والمقصود بالجنس هنا ذكر وانثى، والاسس النفسية المعتمدة في الإخراج تفرق بين الرجل والمرأة.

وتصب المؤسسات الصحفية جل اهتمامها على ما يختص الرجل أكثر من المرأة، حيث تحرص الصحف على نشر الاخبار والموضوعات التي تخص الرجل أكثر منها التي تخص المرأة، على الرغم من وجود صفحات متخصصة للمرأة في تبويب بعض الصحف، باعتبار أن المرأة تقبل على قراءة المادة التحريرية الموجهة إلى الرجل، بينما الرجل لا يقبل على المادة التحريرية الموجهة إلى المرأة إلا نادراً.. وعلى المخرج الصحفي أن يستفيد من هذه الابعاد النفسية الموجهة للرجل والمرأة ويقتصر على ابراز النواحي النسائية فيما هو موجهة للنساء، ويحقق القاعدة النفسية التي تهتم بالنواحي العاطفية عند المرأة في كل ما يتعلق بالأمومة والأسرة.

ويمكن الاستفادة من الناحية العاطفية عند مخاطبة فئة معينة من القراء الذين يتميزون بالثقافة المتوسطة ومحدودية التعليم الذين تجذبهم الموضوعات الإنسانية والاخبار الشخصية واخبار الجريمة أكثر ما تجذبهم الموضوعات الاخرى.

ويفضل أن تحتوي المادة الصحفية الموجهة إلى هذه الفئات على وسائل متخصصة في الجذب وابراز المادة التي توضح النواحي العاطفية بالاعتماد على الصورة المعبرة عن المضمون والعناوين التي تجذب القارئ.

3- الوراثة:

تعتبر الوراثة من العوامل التي تتحكم في تحديد عقلية القارئ بالإضافة إلى عوامل البيئة والتربية وغيرها.. فهناك فرق كبير بين عقلية الفئات المثقفة الذين هم على تماس مباشر بالصحافة الرفيعة وبين عقلية الفئات غير المثقفة الذين يطالعون الصحافة الشعبية.[32]

والإخراج في الصحف الرفيعة يعتمد على الإخراج الرأسي بينما يعتمد الإخراج في الصحف الشعبية على الإخراج الأفقي المتجدد مع استعمال العناوين الضخمة والصور والألوان وغيرها.[33]

ويحقق المخرج الصحفي الاستفادة من عوامل الوراثة والبيئة في جذب القراء إلى الصحيفة من خلال تحريك رغبة القارئ في الاطلاع على مادة تحريرية معينة دون اخرى أو الاقبال على صحيفة معينة دون صحيفة منافسة أخرى.

وانسجاماً مع عوامل الوراثة والبيئة نجد أن الصحف حرصت على كتابة اسم الصحيفة بالخط القديم مع وضع رمز وشعار يعبر عن الاسم.. والاكثر من هذا فأن بعض المخرجين الصحفيين عمدوا إلى استخدام الخطوط القديمة في صياغة بعض العناوين وبشكل خاص عناوين المواد التحريرية الموجهة إلى القراء الذين يقعون في دائرة عوامل الوراثة والبيئة.

وقد لاقت هذه الأساليب الإخراجية الكثير من النجاح فى بعض المجتمعات وخاصة بين القراء الذين اجهدتهم الحياة العصرية وأصبحوا يميلون إلى الاشكال التقليدية، مما زاد فى تمسكهم بالصحيفة وبدأوا يقنعون غيرهم من القراء بالتمسك بالصحف التي تستخدم الاساليب الإخراجية المحافظة على عوامل الوراثة والبيئة.. وهنا تتأكد اهمية دراسة الاتجاهات العامة لقراء الصحيفة، وينبغي أن تتكرر عملية قياس هذه الاتجاهات وتعديل الخطة الإخراجية بناءاً عليها.

4- الثقافة والتعليم:

هناك حقيقة تؤكد أن كلما ارتفع المستوى التعليمي والثقافي عند القارئ، كلما أصبح لا يقتنع بأساليب الأخراج المعتمدة على اسلوب الأثارة التي يستخدمها المخرج الصحفي بالاعتماد على العنوان العريض والالوان الزاهية والصور البراقة، لان القارئ وهو على هذا المستوى لابد وان يبحث ويركز على المضمون التحريري الذي يقع في دائرة اهتمامه ويبحث أيضاً بين سطور

المضمون عن الأفكار والمعلومات التي ترتفع بما يمتلك من ثقافة.

ومن البديهي أن يتفاعل المستوى الثقافي عكسياً مع المستوى الرفيع للصحافة، بمعنى ان ثقافة الافراد تجعل الصحف على المحك وتجعلها ترتفع بإمكاناتها وقدراتها التحريرية والإخراجية والطباعية، وفي نفس الوقت تجعل المخرج الصحفي على المحك أيضاً، بالشكل الذي يضطره إلى احداث التوازن بين المضمون الرفيع المستوى وبين اشكال وانواع الإخراج الصحفي المتميز بالجاذبية والجمالية، وفي الوقت ذاته فأن المخرج الصحفي في الصحف الواسعة الانتشار والتي تقع في اطار الافراد متوسطي الثقافة ومن دونهم، يحرص ويهتم بوسائل الابراز ويبدع في عرض الصور المختلفة من اجل جذب هؤلاء الافراد، فيبدع في عرض الصور واستخدام العناوين الكبيرة والاستعانة بالألوان مع العناية بالمضمون التحريري والعمل بشكل تدريجي للارتفاع بمستوى اذواق القراء واقناعهم بالأساليب الاقل أثارة.

5- أسلوب القراءة (العادات القرائية):

لكل قارئ صحيفة وطريقة خاصة في القراءة، البعض يكتفي بقراءة عناوين الأخبار والموضوعات ويطلق عليهم بقراء العناوين والبعض الثاني يقرأ مقدمات الاخبار مع العناوين، والبعض الاخير يقرأ الصفحات الأدبية والفنية والرياضية حسب اهتماماتهم الشخصية.

لهذا تلجأ الصحف الكبرى إلى وسائل متعددة لاستطلاع رأي القراء والوقوف على الاتجاهات العامة لهم، وبشكل خاص في القطاعات التي تتعرض لتغييرات ثقافية واجتماعية مستمرة مثل الطلبة والمهنيين.

ويأتي دور قسم البحوث والدراسات في الصحف والتي انشأت حديثاً مع تطور الصحافة من اجل الوقوف على المحددات النفسية للقراء، لدراسة عادات واساليب القراء في قراءة محتويات الصحف، لكي يتمكن المخرج الصحفي من الإفادة وتعديل خطة الإخراج بما ينسجم ونتائج هذه الاستطلاعات والبحوث، دون المساس في البناء العام للصحيفة لأنه يمثل شخصيتها بوجه عام.[34]

إن اختلاف نوعية القراء وتباين طرق مطالاعاتهم للصحيفة يعمل على مضاعفة مسؤولية المخرج الصحفي ويزيد من صعوبة عمله، حيث يترتب عليه عرض المواد التحريرية بشكل يرضي القراء الذين يهتمون بقراءة العناوين، ثم ينتقل إلى المواد التحريرية المتخصصة التي يقبل عليها النوع الثاني من القراء ويرضي في نفس الوقت قارئ العناوين والمقدمات، وتتم كل هذه العمليات أو المعادلة الصعبة باعتماد المخرج الصحفي على التنوع فى استخدام جميع العناصر التيبوغرافية وسائر وسائل الإبراز الاخرى.[35]

6- الألوان (التأثير النفسي للألوان):

يختلف مدلول اللون باختلاف المكان واختلاف القارئ، وبصفة عامة يبقى للالوان أثر

كبير على القراء لما لها من تأثير نفسي وقدرة على الجذب إلى حد أنها تلعب دوراً اساسياً في التعبير والاقناع ولما تضيفه من حيوية على الموضوعات والعناوين.

وكما يختلف تأثير الالوان على الافراد، فأن أثرها يختلف من مجتمع لأخر، ولذلك فأن معنى الألوان يحدده المخرج الصحفي في كل صحيفة بالنسبة لقرائه.

ويقول (قبضايا): أن قاعدة الألوان تؤكد بضرورة استخدام اللون الأحمر للدلالة على الموضوعات والأخبار المتعلقة بالحروب والاحداث الهامة والموضوعات المتعلقة بالجرائم، واستخدام اللون الاخضر للدلالة على موضوعات الترفيه والزراعة.

واللون الأزرق يعبر عن الهدوء والسكون والبرودة واللون الأصفر والبرتقالي فأنهما يرتبطان بالعاطفة والدفء والحياة، واللون الابيض على النقاء، ولكن لا ينبغي أن يعتبر المخرج الصحفي هذه الارتباطات قوانين قاطعة، بل لابد ان يجرب ذلك ويختبر بنفسه اثار تلك الألوان على نفسية القارئ ومدى تجاوبه معها.[36]

واستعمال الألوان في الصحافة من قبل المخرج الصحفي تعتبر من اهم الموضوعات التي تدرس دراسة نفسية، فأن من الثابت أن الألوان تثير انتباه القارئ، وتخلق اثراً محبباً في الوهلة الأولى، وعندما تستعمل في الاعلانات تكسبها جمالاً وتقوي التعبير الواقعي، ولكننا نرى من جهة اخرى أن الاسراف في استعمال الألوان يؤدي إلى عكس الغرض المنشود.

وقد وجد أيضاً أن استعمال الألوان بكثرة في العناوين المثيرة وغيرها يكون أشبه شيء بالصخب المزعج الذي يثير أثارة غير هادفة لا معنى لها، فالمخرج الصحفي الناجح لا يستعمل اللون لغرض الأثارة في ذاتها، وإنما للإبراز والدلالة، إما إذا انتشرت الألوان بلا ضابط فأن الصحيفة تفقد توازنها وتأثيرها.[37]

ويقصد بالألوان تلك التأثيرات الطباعية غير السوداء التي تكتسبها العناصر الطباعية المستخدمة في بناء وحدات الصفحة، ذلك لان اللون الأسود يعد ناتجاً طبيعياً للحبر الاسود المستخدم فى عمليات الطباعة، ويفرق العاملون في مجال الإخراج الصحفي بين نوعين من الألوان المستخدمة في الصحافة، حيث يمكن أن يعد احدهما لوناً طبيعياً، نتيجة لكونه ناتجاً عن ترك بعض مساحات الورق دون شغلها بالعناصر الطباعية، وهو ما يسمى بالمساحات البيضاء، بينما يمثل النوع الثاني الألوان الطباعية التي تستخدم لتلوين العناصر الطباعية الملونة في أصولها أو استخدام ألوان معينة مع العناصر غير الملونة، لتظهر بالألوان المختارة بما يحقق اهداف الإخراج الصحفي.[38]

والألوان الطباعية هي غير السوداء التي تستخدم في إخراج الصفحات بغية استغلال قدرة الألوان المختلفة في جذب انتباه القراء للوحدات التي تضمنها، وذلك من خلال درجة تباين العناصر التي تستخدم فيها هذه الألوان مع العناصر الطباعية غير الملونة، إضافة إلى ما

تحدثه الألوان من تأثيرات بصرية متعددة.[39]

ومنذ أقدم العصور اكتشف الانسان أن للألوان تأثيرات نفسية تتراوح بين الفرح والحزن والخير والشر، ولازالت تلك الانطباعات مؤثرة على نفسية الانسان المعاصر وبنفس الاحساس تقريباً، فكلما كان اللون زاهياً ومشرقاً انشرحت له النفس وتفاءلت وكلما كان داكناً وقاتماً اغتمت وتشاءمت.

وقد لا نجد لقيمة الجمال دخلاً مباشراً في عملية اختيار الألوان أو الميل إليها واستعارتها للتعبير عما يخالج النفس بوضوح يفوق الرؤية لجمالها.. ويتحتم على المخرج الصحفي والمصمم دراسة الألوان وعلاقتها ببعضها البعض وتأثيراتها النفسية، فهي مثل الاصوات الموسيقية التي تستغيها اذن السامع إذا كانت نغماً جميلاً أو ترفضها إذا كانت نشازاً مقرفاً.[40]

ويرى الباحث؛ أن على المخرج الصحفي وهو يؤدي عمله بدقة وحذر مراعاة بعض الاعتبارات التيبوغرافية وفي مقدمتها توفير الوضوح عند استخدام الألوان وعدم الاسراف فيها وان تستخدم بحكمة لكيلا تفقد أهميتها، وهي تتميز في قدرتها على جذب انتباه القراء، وقد أكدت الدراسات والاختبارات على ضرورة استخدام الألوان في الصحافة، لأنها تشكل وسيطاً بين الصحيفة والقراء وعاملاً رئيسياً في زيادة عدد القراء، إذا استخدمت وفق الأسس النفسية.

الأسس الفسيولوجية

من البديهي أن الصحف تصدر من أجل أن تقرأ، وهذا يتطلب من الإخراج الصحفي ايجاد الطرق الواضحة لتسهيل عملية القراءة، واداة القراءة هي عين الانسان، وهذا يفرض على المخرج الصحفي أن يهتم بالمبادئ التشريحية لهذه الاداة، وأن يعرف أهم وظائفها، لكى يكون بإمكانه ان يوفر للقارئ سهولة القراءة بوضوح وهدوء.

والإخراج الصحفي فن تطبيقي له اغراضه النفعية، فالصحيفة تصدر ليقرأها الناس، ويعتبر مقياس الانقرائية – القابلية على القراءة السهلة من اهم مقاييس النجاح الصحفي، ولابد أن يدخل المخرج الصحفي في اعتباره أن قارئ الصحيفة غير قارئ الكتاب، لان الصحيفة تقرأ غالباً في ظروف غير مواتية لتيسير عملية القراءة، فهناك من يطلع على الصحيفة في السيارة العامة أو اثناء تناول طعام الفطور وقد يكون الضوء غير كاف للقراءة.

وهناك بعض الاسس الفسيولوجية تعتبر مكملة للأسس النفسية في بناء العملية الإخراجية والتي تجري وفقاً للخطط البصرية التي تعتمد على حاسة البصر لدى القارئ.[24]

ويمكن القول أن عين الانسان هي محور الاسس الفسيولوجية ولهذا انصبت عليها معظم البحوث والدراسات التي تناولت هذه الأسس.. وعين الانسان كانت ومازالت تمتلك القدرة في الحكم على الصحف والمطبوعات الاخرى، على اعتبار أنها وسيلة القارئ في الوصول إلى

هذا الحكم ايجاباً أم سلباً.

"إلا انه ليس بإمكان كل العيون أن ترى الأشياء بنفس الخط، وليس من الممكن أن يكون لتأثير الاشياء والمشاهدة من قبل العيون نفس الواقع عليها وبالتالي تختلف فيما يشاهدونه من أشياء.[41]

وظروف القراءة في هذه الأيام تختلف عن الماضي، حيث أصبح للوقت أهمية خاصة، حيث يتصف قارئ اليوم بالعجلة فهو في كثير من الاحيان لا يمتلك الوقت الكافي لقراءة صفحات الصحيفة من الأول إلى الاخر، وهذا يفرض على الإخراج عرض مواد التحرير واستخدام العناصر التيبوغرافية حسب اهميتها بالشكل الذي يتيح لعين القارئ ألتقاط الاكثر أهمية اول باول ثم تنتقل العين بعد ذلك إلى الاقل أهمية بطريقه تضمن عدم تشتت نظر القارئ.[42]

وهناك عوامل تفرض على المخرج الصحفي مراعاتها عند تصميم الصحيفة، لأنها أصبحت تدخل في ضمن الدراسات والبحوث الخاصة بيسر القراءة.. وقد حددها د. صلاح قبضايا بما يأتى:

1- حجم الحرف وعلاقته بالعين.
2- حركه العين ازاء اللون الاسود.
3- حركه العين ازاء الحروف البيضاء.
4- العناوين الفرعية وحركة العين.
5- حركة العين ازاء الفرغات البيضاء.
6- طول السطر وأثره على حركة العين.
7- طريقة استيعاب المادة الصحفية من خلال قفزات العين.
8- أثر الألوان على عين القارئ.[43]

وتلعب الأسس الفسيولوجية دوراً حساساً ومهماً في يسر القراءة وتتيح للعين الوقوف على جل ما يقع في أطار اهتمامات صاحبها، وهناك علاقة مباشرة بين هذه الأسس والعناصر التيبوغرافية التي لها صلة مباشرة في عملية القراءة مثل (الحرف، وطول السطر، اللون، الصور، الخطوط، والمساحات، الفراغات، وغيرها).

نتائج البحث:

من خلال مما تقدم يمكن استخلاص النتائج التالية:

1- أصبح الإخراج الصحفي علم يدرس له قواعده وأساليبه ومدارسه، وفن قائم بحد ذاته، يتأثر بالعوامل النفسية والفيسولوجية المحيطة به، ومر عبر مسيرته بمراحل عدة، انسجمت مع التطورات التي حدثت في جسمه والتي على علاقة مباشرة بجميع مفاصله

ومكوناته من حروف وعناوين وصور ورسوم وفنون التحرير الصحفي.

2- يعتبر الإخراج الصحفي الركيزة الخامسة في فنون الصحافة بعد التغطية الجيدة للأحداث واختيار المادة التحريرية وتقييمها، وأسلوب التحرير، وكتابة المقدمة والعناوين.

3- يعنى الإخراج الصحفي بعملية توزيع العناصر التيبوغرافية المتمثلة في الكلمات المطبوعة والصور والفواصل والجداول والخطوط والعناوين على سطح الصفحة البيضاء توزيعاً يستهدف عرضها بشكل جمالي يريح عين القارئ ويساعده ويغريه على القراءة ويلفت النظر إلى الموضوعات الهامة ويدفعه إلى شراء الصحيفة.

4- إن الإخراج الصحفي ليس عملاً مستقلاً في الصحيفة، وإنما هو عمل له ارتباط مباشر بالتحرير، حيث أن الموضوع ومكان نشره في الصفحات مرتبط بنوعه سياسياً كان أو ثقافياً أو فنياً، ومرتبط أيضاً بأهميته، لهذا يمكن القول، أن الإخراج الصحفي مهمة تحريرية وفنية مشتركة تقع في إطار الجهاز التحريري والقسم الفني.

5- الإخراج الصحفي يتأثر في جوانبه المختلفة بجملة من العوامل التي تتعلق بوضع العمل الصحفي من حيث القدرات والامكانات التي تمتلكها الصحف وكذلك بالنظم والسياسة الإعلامية، ويتمثل تأثير هذه العوامل في كونها تشكل المحددات الأساسية لأشكال الإخراج والتي لها تأثير مباشر على إخراج الصحف.

6- أسس الإخراج هي عدد من الأساليب الفنية التي يراعيها المخرج الصحفي، فهو بعد أن يتعرف على مكوناتها من وشكل، وملمس، وفراغ، وحجم، وقيمة، في التصميم والإخراج يحرص على تنفيذ هذه الأسس وهي: **الأسس الصحفية والفنية والنفسية والفسيولوجية.**

7- لاحظ الباحث أن موضوعات الإخراج الصحفي لم تحظ بالاهتمام العلمي المطلوب، حيث تعاني المكتبات العربية نقصاً كبيراً في مثل هذه الدراسات، ويمكن القول بأن الإخراج الصحفي يأتي في مقدمة الفنون الصحفية التي مازالت تعيش المجهول وعدم الأهتمام. ويطمح الباحث ان تكون نتائج هذه الورقة البحثية حافزا يشجع الباحثين على اجراء المزيد من الدراسات العلمية في مجال الإخراج الصحفي كونه أحد أساسيات الانتاج الصحفي قديما وحديثا.

هوامش البحث

1- مصطفى عمر التير، مقدمة ومبادئ واسس البحث الاجتماعي، ط3،منشورات الجامعة المفتوحة،طرابلس.1995.ص91-92.

2- د. إبراهيم إمام، فن الإخراج الصحفي، الانجلو مصرية، القاهرة، 1977، ص254.

3- *د. سامي ذبيان*، الصحافة اليومية والإعلام، دار المسيرة، بيروت، 1986، ص320 .

4- عبد العزيز الصويعي، المخرج الصحفي، الشركة العامة للنشر والتوزيع، ليبيا، 1979، ص8.

5- فؤاد سالم، مذكرات في الإخراج الصحفي، جامعة القاهرة، كلية الإعلام، قسم الصحافة، 1984، ص1.

6- د. أشرف محمود صالح، تصميم المطبوعات الإعلامية، الطباعي العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، 1986، ص المقدمة.

8- د. كرم شلبي، معجم المصطلحات الإعلامية، دار الشروق، القاهرة، 1989، ص354.

10- د. محمود علم الدين، الإخراج الصحفي، مصدر سابق، ص9.

11- د. محمود علم الدين، الفن الصحفي، مطبعة أخبار اليوم، القاهرة، 2004، ص235.

12- د. فهد عبد العزيز العسكر، الإخراج الصحفي، مكتبة العبيكان، الرياض، 1998.ص22

13- كمال عبد الباسط الوحيشي، أسس الأخراج الصحفي، رسالة ماجستير، جامعة قار يونس، كلية الأداب والتربية، قسم الصحافة، ليبيا، 1994، ص48.

14- د. إبراهيم إمام، دراسات في الفن الصحفي، المكتبة الانجلو مصرية، القاهرة، 1957، ص226.

15- د. فهد عبد العزيز العسكر، مرجع سابق، ص5.

16- د. محمود علم الدين، الإخراج الصحفي، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، 1989، ص61.

17- رائد محمد إبراهيم، إخراج الصفحة الأخيرة، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة، كلية الإعلام، قسم الصحافة، 1989، ص4.

18- ستانلي جونسون وهاريس، استقاء الأنباء فن، ترجمة وديع فلسطين، دار المعارف، القاهرة، 1960، ص286.

19- د. سامي ذبيان، مرجع سابق، ص315.

20- المرجع السابق، ص321.

21- د. أشرف محمود صالح، الإخراج الصحفي، مطبعة جامعة القاهرة، القاهرة، 2001، ص26.

22- د. فهد عبد العزيز العسكر، مرجع سابق، ص7.

23- د. محمود على الدين، الصحافة في عصر المعلومات، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، 2000، ص181.

24- محمود علم الدين، الإخراج الصحفي، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، 1989، ص80.

25- د. إبراهيم إمام، مرجع سابق، ص257.

26- د. فهد العسكر، مرجع سابق، ص16.

27- أشرف صالح، تصميم المطبوعات الإعلامية، مرجع سابق. ص141.

28- أحمد حسين الصاوي، طباعة الصحف وإخراجها، الدار القومية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1965، ص209.

29- د. صلاح قبضايا، تحرير وإخراج الصحف، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985، ص206.

30- المرجع السابق، ص207.

31- د. إبراهيم إمام، مرجع سابق، ص269.

32- كمال عبد الباسط، الوحيشي، مرجع سابق .ص149.

33- د. إبراهيم إمام، مرجع سابق، ص260.

34- د. صلاح قبضايا، مرجع سابق، ص35-36.

35- د. إبراهيم إمام، مرجع سابق، ص260-261.

36- د. أحمد حسين الصاوي، تحرير واخراج الصحف، مرجع سابق، ص209.

37- د. أشرف صالح ود. شريف اللبنان، الإخراج الصحفي، مركز جامعة القاهرة، 2001، ص50.

38- د. إبراهيم إمام، مرجع سابق، ص261.

39- أشرف صالح وشريف اللبنان، مرجع سابق، ص50.

40- د. صلاح قبضايا، مرجع سابق، ص208.

41- المرجع السابق، ص214.

42- د. اشرف صالح ود. شريف اللبنان ، مرجع سابق، ص51.

43- د. فهد العسكر، مرجع سابق، ص66.

44- المرجع السابق، ص69.

45- عبد العزيز الصويعي، الأخراج الصحفي والتصميم، مرجع سابق، ص81.

للمزيد انظر:

46- د. محمود علم الدين، الصحافة في عصر المعلومات، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، 2000، ص183.

47- اشرف صالح، إخراج الصحف السعودية، دراسة لعينة من الجرائد السعودية اليومية، الطباعي العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، 1987، ص9.

48- ناصر الرزقي، الطباعة علم وفن، أنتار- ترانس، ألمانيا، 1990، ص70.

49- د. أحمد حسين الصاوي، طباعة الصحف وإخراجها، مرجع سابق، ص334.

50- محمود علم الدين، الإخراج الصحفي، مرجع سابق، ص75.

51- صلاح قبضايا، مرجع سابق، ص216-226.

الإشمام عند اللغويين والقراء

د. عبد الرحمن احسين عبد الرحمن الهمالي
كلية التربية بنى وليد - قسم اللغة العربية

الإشمام عند اللغويين والقراء

د. عبد الرحمن احسين عبد الرحمن الهمالي
كلية التربية بنى وليد - قسم اللغة العربية

مقدمة:

يُحسَب لعلماء العربية أنهم رصدوا الظواهر اللهجية للعرب ووصفوها كما نطقت، غير أن بعضها لا ينبئ الوصف بصورة دقيقة عن اللفظ وبخاصة عندما يتعلق الأمر بالإمالة والتقليل وتسهيل الهمزات فكثيراً ما يقول العلماء في هذا بعد سردهم لأحوالها (تعرف بالمشافهة)، وهذا ما يقع في الإشمام والروم واختلاس الحركات التي لا مناص من ارتباط الوصف بالمشافهة.

وقد أسهمت القراءات القرآنية في هذا الجانب إسهاماً كبيراً فحفظت الجانب النطقي، لاعتماد القراءة على المشافهة والعرض والسماع فتناقلته الأجيال جيلا بعد جيل فضلاً عن الكتابة والتقريب والتشبيه في مثل هذه الموضوعات.

ولما كان الإشمام من الظواهر اللهجية التي عُني بها اللغويون كما كانت حاضرة في القراءات القرآنية آثرت أن أجمع بين نظرة اللغويين وما جمعوه من العرب، وما أخذه القراء عن شيوخهم ورصدوه في مؤلفاتهم وما اعتمدته القراءات المتواترة من هذه الظاهرة.

والمطلع على كتب اللغة وكذا القراءات يجد أن الإشمام قد ورد في موضوعات متغايرة فضلا عن تنوع مقصوده فمرة تجدهم يرمزون به إلى الإشارة الحسية التي ترسم على الوجه ويقتصر عند اللغويين على أواخر الكلم، ويكون عند القراء في أوساط الكلمات ونهايتها، ويدرس عندهما في باب الوقف على أواخر الكلم، وتارة يقصدون به مزج الحروف، وهو إشمام الزاي لصوت الصاد، ومرة يقصدون به مزج الحركات وتجده حاضراً في باب بناء الفعل لما لم يسم فاعله، وكله يدخل تحت مسمى الإشمام مع الاختلاف في معناه.

واختلاف المقصود الاصطلاحي يجعلني أعرف الإشمام لغة؛ لاشتماله على الأنواع كلها، وأخص كل نوع منها بمبحث أقدم فيه نظرة اللغويين فنظرة علماء القراءات مع الإشارة إلى التوافق والتبيان بينهما.

بقي أن أذكر في هذه المقدمة أنني اعتمد المنهج التحليلي؛ لأنه يتفق مع البحث، كما اكتفيت بذكر وفيات الأعلام عند ذكر أسمائهم في المتن وقفلت البحث بخاتمة ذكرت فيها ما توصلت إليه من نتائج، مع ثبت للمصادر والمراجع.

المبحث الأول

الإشمام في الوقف

المطلب الأول: الإشمام عند اللغويين.

ورد في اللسان أن الإشمام أخذ من الشم وهو حس الأنف، يقال: تشمم الشيء واشتمه إذا أدناه من أنفه ليجتذب رائحته، والشمم: الدنو، ومنه شاممت الرجل، إذا قاربته، وشاممت العدو إذا دنوت منه[1].

والجامع لهذه الأنواع هو الدنو والمقاربة.

أما عن تعريفه في الاصطلاح فقد عرفه سيبويه (ت:180هـ) في باب الوقف على أواخر الكلم بقوله: ((إنما كان ذا في الرفع؛ لأن الضمة من الواو، فأنت تقدر أن تضع لسانك في أي موضع من الحروف شئت ثم تضم شفتيك؛ لأن ضمك شفتيك كتحريك بعض جسدك، وإشمامك في الرفع للرؤية وليس بصوت للأذن))[2].

ويعرفه ابن يعيش بقوله: ((وأما الإشمام فهو تهيئة العضو للنطق بالضم من غير تصويت، وذلك بأن تضم شفتيك بعد الإسكان وتدع بينهما بعض الانفراج ليخرج منه النفس فيراهما المخاطب مضمومتين)) [3].

ويفهم من خلال ما تقدم أن الإشمام المقصود هنا هو تشكيل يتجسد على ملامح الوجه بضم الشفتين بعد تسكين الصوت الموقوف عليه، فالسكون تام غير أنه سجل بالإشارة أن الحركة الأصلية لهذا الصوت الموقوف عليه الضمة، ولعل وصفه بـ (الإشمام الإشاري) أقرب إليه؛ لأنه إيماء من دون صوت.

---

1 ينظر لسان العرب ابن منظور مادة (ش، م، م) صححه نخبة من الأساتذة، منشورات دار الحديث القاهرة، ط1423هـ2003م، ج2: 91، وينظر: معجم تهذيب اللغة للأزهري مادة (ش، م، م) تحقيق د رياض زكي قاسم، دار المعرفة بيروت، ط الأولى 1422هـ 2001م ج2: 1932.

2 الكتاب لأبي بشر عمرو بن عثمان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، منشورات الخانجي، القاهرة، ط الخامسة 1430هـ 2009م ج 4: 171.

3 شرح المفصل لابن يعيش، منشورات مكتبة المتنبي، القاهرة، (د ت)، ج9: 67.

ضوابطه:

يجوز للمتحدث إذا أراد أن يقف جملة من الوقفات أن يقف بالسكون وهو الأكثر والإشمام والروم والإبدال والتضعيف[1] ولكل من هذه الوقفات ضوابط تحكمها حركة الصوت الموقوف عليه، أو الحركة أو السكون الذي قبله ((فإن كان الموقوف عليه مرفوعاً أو مخفوضاً فلا يخلو أن يكون ما قبل آخره ساكناً أو متحركاً فإن كان ما قبل آخره متحركاً جاز في الوقف على المرفوع خمسة أوجه: الإسكان ثم الإشمام ثم الروم ثم التثقيل ثم البدل، وفي الوقف على المخفوض جاز لك ما جاز في المرفوع إلا الإشمام فإنه لا يجوز))[2].

من خلال ما تقدم نجد أن الإشمام لا يكون إلا في المرفوع أو المضموم دون غيره، وقد مر بنا في تعريف سيبويه للإشمام مضمون هذا، أما المجرور والمكسور والمنصوب والمفتوح فليس للإشمام إليه سبيل؛ لأن الضمة ترسم على الوجه وينظر إليها وهو ما لا يتصور في ((الجر والنصب...؛ لأن الكسرة من مخرج الياء، ومخرج الياء من داخل الفم من ظهر اللسان إلى ما حاذاه من الحنك من غير إطباق... ولأجل تلك الفجوة لان صوتها وذلك أمر باطن لا يظهر للعيان، وكذلك الفتح؛ لأنه من الألف والألف من الحلق)) [3].

ولم تختلف كتب اللغويين في شرط الإشمام إلا ما نقله ابن يعيش(ت:643هـ) عن الكوفيين أنهم يجيزون الإشمام في المجرور مع المرفوع والمضموم، ولعل ابن يعيش لم يطلع على رأي الإمام مكي(ت:437هـ) في كتابه التبصرة الذي جاء فيه: ((وقد روي عن الكسائي الإشمام في المخفوض، وأراه يريد به الروم؛ لأن الكوفيين يلقبون ما سميناه روماً إشماماً، وما سميناه إشماماً روماً))[4].

فإن كان مقصود الإشمام عند الكوفيين الروم فلا غضاضة في ذلك، لأن الروم يكون في المجرور والمكسور كما في المرفوع والمضموم.

وقد عقد المتأخرون من علماء اللغة فصولاً لأنواع الوقف، واستفادوا من القراءات القرآنية في استدلا لهم على آرائهم[5].

---

1 ينظر: الكتاب، ج4، 171، وينظر شرح جمل الزجاجي لابن عصفور الاشبيلي تحقيق: صاحب أبو جناح، عالم الكتب، بيروت لبنان، ط الأولى 1419هـ 1999م، ج2: 750.

2 شرح المفصل لابن يعيش، ج9، 67.

3 ينظر المصدر السابق وكذلك الصفحة.

4 التبصرة، ص:107.

5 ينظر: شرح الكافية الشافية لابن مالك،تحقيق علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالصبور، دار الكتب العلمية ، بيروت ط الأولى 1420هـ 2000م، ج2: 327 فما بعدها.

علة الإشمام:

الوقف بالسكون المحض هو الأكثر، وبعض العرب آثر أن يرمز لحركات الإعراب زيادة في البيان والإفصاح[1] فالإشمام فصيح وإن كان قليلاً[2].

وقد علل العلماء لكلا الفريقين فالذين التزموا الإشمام أرادوا ((أن يفرقوا بين ما يلزمه التحريك في الوصل وبين ما يلزمه الإسكان على كل حال، وأما الذين لم يشموا فقد علموا أنهم لا يقفون أبدا إلا عند حرف ساكن، فلما سكن في الوقف جعلوه بمنزلة ما يسكن على كل حال، لآنه وافقه في هذا الموضع))[3].

ولم يكتف العلماء بالتعليل، بل جعلوا لهذه الوقفات رموزا دالة على نوع الوقف، فوضعوا (خاء) على المجزوم، والساكن إشارة للخفة أو خفيف ووضعوا (شينا) للتضعيف إشارة لشديد، كما وضعه خطاً بين يدي الحرف إشارة للروم، ونقطة للإشمام؛ لأن الروم أثقل من الإشمام، فكما أن الإشمام أخف جعلوا له نقطة والروم أثقل مدوا النقطة جعلوها خطاً[4].

نخلص إلى أن الإشمام هو حركة شفهية تعبر عن دلالة رمزية لا صوتية حيث لا صوت يسمع، ولا حركة تختلس، فهو إشارة بصرية مرئية، وليست سماعية رصدتها كتب المتقدمين فوصفوا رسمها وفصلوا عللها وبينوا موضعها في الكلمة ووضعوا الهاء رمزاً تتماز به عن غيرها.

المطلب الثاني:

- الإشمام عند القراء.

عُني القراء بالقراءات القرآنية أيما عناية فدرسوها أصولاً وفرشاً تطبيقاً وأداءً وبينوا التنوع اللهجي الذي جسدته القراءات القرآنية من خلال رخصه الأحرف السبعة؛ بل ونقلوه كابراً عن كابر مكتوباً ومحفوظاً فكل يقرأ كما سمع ويقرئ كما عُلم، فحفظت القراءات القرآنية التنوع اللهجي وحافظت عليه فضلاً من إسبال ثوب الفصاحة على كل ما ورد في المتواتر؛ لأنه يكون بين فصيح أو أفصح من لغات العرب.

---

1 ينظر شرح الرضي علي الكافية: تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر، جامعة قاريونس ط الثانية،2006م، ج4:132.

2 ينظر: المتبع في شرح اللمع للعكبري دراسة عبد الحميد محمد، منشورات جامعة قاريونس، ط الأولى، 1994م، ج1: 251.

3 الكتاب ج4: 168.

4 ينظر الكتاب لسيبويه، ج4: 168؛ ينظر شرح المفصل ج9: 68.

والإشمام من الموضوعات التي لاقت اهتماماً ودراسة وتمحيصاً من قبل القراء والمؤلفين في هذا العلم المبارك المتعلق بكلام الله فعرفوا وفصلوا على ما سيتضح:

يعرف الإمام مكي بن أبي طالب(ت:437هـ) الإشمام بقوله: ((ضمك شفتيك من غير صوت وهو إنما يكون في المرفوع خاصة))[1].

ويأتي من بعده الإمام الداني(ت:444هـ) ويعرفه بقوله: ((ضمك شفتيك بعد سكون الحرف أصلا، ولا يدرك ذلك الأعمى؛ لأنه رؤية بالعين لا غير))[2].

وأختم بتعريف الشاطبي (ت:590هـ) من خلال نظمه بقوله:

((والإشمام إطباق الشفاه بعيد ما يُسكن لا صوت هناك فيصحلاً)) [3].

ويلاحظ على تعريف الإمام مكي أنه جمع بين التعريف وشرط الإشمام وهو الرفع أو الضم، وتعريف الإمام الداني قريب من تعريف سيبويه في وصفه له بأنه رؤية بالعين.

أما الإمام الشاطبي فمع كون تعريفه نظماً غير أنه كان في منتهى الدقة حيث أشار إلى أن الضم يكون عقب التسكين مباشرة معبراً عنه بلفظ التصغير(بُعيد) إذ المقصود أنه لو تراخى القارئ عن الضم بعد التسكين لصار إسكاناً محضاً لا إشمام معه، فأفهم التعبير شدة اتصال الضم بالتسكين، وهي إشارة تفتقدها التعريفات السابقة، بل إن تعريف سيبويه أتى بحرف العطف (ثم) وهو ما يعطي سمة التراخي بين التسكين وضم الشفتين، والقراء على شدة اتصال التسكين بالضم من غير تراخٍ.

ضوابط الإشمام:

عند ما سردت أحوال الوقف عند اللغويين ذكرت أن الوقف بالسكون المحض هو الأكثر ثم الإشمام، والروم، ولعل هذه الاستفاضة في الوقف بالسكون وبعدها الوقف بالإشمام قد ترجمتها

---

1 التبصرة في القراءات السبع، تحقيق جمال الدين محمد شرف، دار الصحابة طنطا، ط الأولى 1427هـ 2006م :106.

2 التيسير في القراءات السبع، تحقيق جمال الدين محمد شرف، دار الصحابة طنطا، ط الأولى 1427هـ 2006م :106.

3 إبراز المعاني من حرز الأماني لابن شامة المقدسي، تحقيق إبراهيم عطوة عوض، دار الكتب العلمية بيروت ليبان، (دون تاريخ):268.

القراءات القرآنية فالوقف بالإشمام ورد عن أبي عمرو البصري والكوفيين وعاصم وحمزة الكسائي وخلف العاشر ولم ينقل عن أبي جعفر، ونافع وابن كثير ويعقوب وابن عامر إلا التسكين[1].

وقد أجاز علماء القراءات وجه الإشمام لجميع القراءات لما رأوه من بيان في الإعراب بهذا الوجه[2]؛ فـ ((المختار عند أئمة القراءة الأخذ بهما **[الروم والإشمام]** لجميع القراء حتى صار الأخذ بهما شائعاً لكلهم مجمعاً عليه لجميعهم مسندًا إذا وإن لم يرد نصاً))[3].

وقد اتفق اللغويون والقراء في شرط الإشمام وهو كون الحرف الموقوف عليه مرفوعا أو مضموماً فلا إشمام عند كليهما في المنصوب والمفتوح وكذا في المجرور والمكسور، غير أن علماء القراءات استفاضوا في الشرح والتفصيل والتمثيل؛ لأن الأمر يتعلق بكتاب الله تعالى ولم يتواتر عند جميع القراء كما ذكرت فذكروا القراء الذين ورد عنهم، والمخالفين لهم، كما أفردوا مباحث لموضوعات أخرى كان منها مواطن اتفاق وأخرى اختلاف فعقدوا مبحثاً لميم الجميع كما في قوله تعالى ﴿ أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾[4]، وعقدوا آخراً لهاء التأنيث التي يوقف عليها بالهاء، كما في قوله تعالي ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾[5]، وخرجوا بحصيلة مفادها أن ((الروم والإشمام غير جائزين في الحركة العارضة... وفي هاء التأنيث المبدلة من التاء عند الوقف وفي ميم الجمع إذا وصلت بواو على الأصل))[6]، وقد عللوا لذلك تركته اختصارا[7].

أما التاء المرسومة في المصحف بالتاء المفتوحة أي: ((ما وقف عليه بالتاء من هذا الباب لأجل رسمه، فيدخله الروم والإشمام)) [8].

---

1 ينظر: شرح طيبة النشر لابن الناظم تحقيق جمال الدين محمد شرف، دار الصحابة طنطا، ط 2005م،:170.

2 ينظر: التبصرة لمكي،:106، والتيسير للداني،:46، وشرح طبقتين النشر: 170.

3 شرح طيبة، النشر لابن الناظم،:170.

4 الفاتحة آية (7).

5 النحل آية (18).

6 جامع البيان للإمام الداني، تحيقق محمد صدوق الجزائري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط الأولى، 2001م: 385.

7 ينظر: إبراز المعاني للمقدسي: 270، وشرح طيبة، النشر لابن الناظم:171.

8 ينظر: إبراز المعاني للمقدسي: 270.

وهذا ما ذهب إليه علماء القراءات باستثناء إجارة مكي بن أبي طالب دخول الإشمام على ميم الجمع وهاء التأنيث المبدلة هاء عند الوقف، وقد ردّ عليه الإمام الداني بالحجة[1]، والأئمة على ما ذهب إليه الداني جميعهم.

خلاصة القول أرى أن اللغويين قد عرفوا وعللوا وشرحوا غير أن علماء القراءات قد أسهبوا وفصلوا في بعض الموضوعات التي تتعلق بكتاب إليه فلا عجب من التفصيل وذكر القراء ومن سار من رواتهم معهم ومن خالفهم في القراءة، وقد كان استدلال علماء القراءات بعلماء اللغة في التعليل والضوابط واضحاً قوياً في كتب القراءات القرآنية، كما يحسب لعلماء القراءات أنهم نقلوا هذه الظواهر مكتوبة و منطوقة فمن المعلوم أن علم القراءات ومنذ العصور الأولى وحتى وقتنا الحاضر ينقل عن طريق المشافهة والأخذ والسماع مما جعل هذه الظواهر وغيرها محفوظة مسطورة وملفوظة، وبالتالي يعد الإشمام من اللغات العربية الفصيحة الواردة في المتواتر من القراءات العشر.

المبحث الثاني

إشمام الحروف

من الظواهر اللهجية التي رصدها علماء اللغة المزج بين بعض الأصوات بحيث ينتج جهاز النطق صوتاً بين الأصوات المتمازجة، وهو إشمام الزاي لصوتي الصاد والسين.

المطلب الأول:

- **إشمام الزاي لصوتي الصاد والسين عند اللغويين.**

عقد علماء اللغة لمخارج الأصوات باباً بينوا فيه الأحياز العامة والمخارج الخاصة للأصوات، ثم ذكروا بعض الحروف التي تعد بمنزلة فروع عن الأصوات الأصلية، وفي هذا يقول سيبويه (ت:180هـ) ((وتكون خمسة وثلاثين حرفاً بحروف هن فروع، وأصلها من التسعة والعشرين، وهي كثيرة يؤخذ بها وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار وهي: النون الخفية، والهمزة التي بين بين، والألف التي تمال إمالة شديدة، والشين التي كالجيم، والصاد التي تكون كالزاي، وألف التفخيم))[2].

---

1 ينظر التبصرة لمكي:109؛ وينظر: إبراز المعاني:270.

2 الكتاب لسيبويه، ج4: 432.

فالإشمام مقصد البحث ورد في لغة العرب واعتمدته القراءة المتواتر وهو إشمام الزاي لصوت الصاد وقد عرفه الرضي (ت: 686هـ) بقوله: ((وقد ضورع بالصاد الزاي دونها، وضورع بها متحركة أيضا، نحو صدر وصدق، والبيان أكثر فيها...))[1].

ويقصد الرضي بالمضارعة هنا أن تنحو بالصاد نحو الزاي فتنطق بصوت بين الصاد والزاي، ويعرف بالمشافهة والجامع بين صوتي الصاد والزاي المخرج وبعض الصفات فهما يجتمعان في صفة الصفير، والرخاوة والاستفال، والإصمات[2]، والاتفاق بينهما في المخرج والارتباط في مجموعة من الصفات يقوي التمازج ويسهله ((وإنما دعاهم إلى أن يقربوها ويبدلوها أن يكون عملهم من وجه واحد))[3].

ولعل من الشواهد التي تثبت هذه الظاهرة عند بعض العرب ما حكاه أبو القاسم الزجاجي (ت:337هـ) بقوله: ((أخبرني أبو زكريا بن أبي الحريفيش الباردي أن أعرابيين تشاجرا فقال أحدهما: سقر وقال الآخر صقر، فاحتكما إلى أعرابي شيخ لهما كبير فقال هو زقر))[4].

وقد أكد هذا الشاهد بالمثل العربي الذي جاء على لسان العرب وهو (لم يحرم من فصد له) بالصاد والزاي أي: بإشمام الصاد زاياً أو كما يقول ابن سيده (ت458هـ) ((إشمامها رائحة الزاي))[5].

أما السين فإن كانت ((في موضع الصاد وكانت ساكنة لم يجز إلا الإبدال إذا أردت التقريب، وذلك قولك في التسدير التزدير، وفي يَسْدُلُ ثوبه: يزدل ثوبه؛ لأنها من موضع الزاي وليست بمطبقة فيبقى لها الإطباق، والبيان فيها أحسن))[6].

وقد دلل سيبويه (ت:180هـ) على أن البيان فيها أحسن؛ لأن الأصل هو إخراج كل حرف من مخرجه، وهذه – كما ذكرت سابقاً – ظواهر فرعية تبلورت من المزج بين صوتيين لبعض العرب، والأكثر على عدم الإشمام، ومراد المتحدثين التخفيف والجامع بين السين والزاي كونهما من مخرج واحد، وقد اشتركا في بعض الصفات هي (الصفير والانفتاح، والاستفال

---

1 شرح الشافية، ج3: 232.

2 ينظر: الكتاب ج4: 434 فما بعدها، والتمهيد في علم التجويد، لابن الجزري، تحقيق غانم قدوري حمد، مؤسسة الرسالة، بيروت ط الأولي،1421هـ/2001م: 98 فما بعدها.

3 المصدر السابق، ج4: 478.

4 الإبدال والمعاقبة والنظائر، حققه عزالدين التنوخي، دار صادر، بيروت، ط الأول، 1381هـ/1962م:64.

5 المحكم والمحيط الأعظم مادة (فصد) حققه عبد الحميد هنداوي، منشورات دار مكتبة العلمية بيروت، ط الأولى،1421هـ/ 2000م، ج8: 292.

6 الكتاب ج4: 478 فيما بعدها.

والإصمات)[1]، فبالإشمام يكتسب الصوت المتولد بينها صفة الجهر؛ لأن الزاي مجهورة والسين مهموسة.

وإشمام الصاد والسين صوت الزاي قديم متجدد، فالزجاجي عقد باباً لمن يمزج بين الزاي والصاد، والزاي والسين، واستدل بـ (بسق، بصق، بزق) و(الصقر، السقر، الزقر)[2].

وفي بلادنا الآن من يقول (لصقة، لسقة، لزقة) وهو ضرب من التخفيف وفرع من الفروع المستحسنة.

المطلب الثاني:

- إشمام الزاي صوت الصاد عند القراء.

عُني علماء القراءت بإشمام الحروف؛ لأنه متعلق بالقراءة فتحدثوا عن التعريف به، وعن القراء الذين نقلوه عن أئمتهم، فضلا عن النقل بالمشافهة الذي توارثه الأجيال جيلاً بعد جيل حتى وصل إلينا غضاً طرياً.

ولما كان الإشمام من أصول بعض الأئمة كان لزاماً أن يتناوله المؤلفون بالتعريف فقالوا في تعريفه هو ((أن تخلط لفظ الصاد، بالزاي وتمزج أحد الحرفين بالآخر بحيث يتولد منها حرف ليس بصاد ولا بزاي ولكن يكون صوت الصاد متغلباً على صوت الزاي[3].

وبإنعام النظر في التعريف نجد أنه دقيق في الوصف فحقيقة الإشمام هنا خلط وتمازج، وليس مضارعة، كما وصفه الرضي في التعريف السابق وليس غريباً على علماء القراءات التدقيق في الوصف بل هو مطلوب منهم؛ لأن الأمر يتعلق بالنص القرآني وقراءاته المتواترة.

أما عن القراء الذين قرأوا بالإشمام فقد روى خلف (ت: 229هـ) عن حمزة (ت:156هـ) بإشمام الصاد صوت الزاي في لفظ (صراط، الصراط) أينما أتى في القرآن الكريم، واختلف عن خلاد (ت: 220هـ) في إشمام الأول فقط من سورة الفاتحة[4]، وهو قوله تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ (الفاتحة 6)، كما قرأ الإمام حمزة بإشمام كل صاد وقعت بعدها دال نحو قوله تعالى

---

1 ينظر: التمهيد في علم التجويد، لابن الجزري: 98 فما بعدها.

2 ينظر: الإبدال والمعاقبة والنظائر:64.

3 البدور الزاهرة في القراءت العشر، عبد الفتاح القاضي، شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي، (د.ت)، ص:13، ينظر مصطلحات علم القراءت القرآنية للأستاذ عبد العلي المسؤول، دار السلام، ط الأولى، 1428هـ/ 2007م: 76.

4 ينظر: النشر في القرءات في العشر لابن الجزري، تحقيق محمد جمال الدين، دار التراث، طنطا،2003م، ج1: 217.

:﴿ومن أصدق من الله حديثا﴾(النساء: 87) وقوله تعالى: ﴿فاصدع بما تؤمر﴾ (الحجر 94)، وأينما وقع صاد قبل دال في كلمة[1].

وخلاصة القول في هذا المطلب أن الإشمام – وإن كان قليلاً – فهو فصيح وورده في القراءات في المتواترة هو تتويج لفصاحة هذه الظاهرة وأهلها، وقد تواكبت القلة في اللغة مع القراءة به، فلم ينقل إلا عن رواة حمزة – رحمة الله عليهم جميعاً–، كما يحسب للقراء فضل المشافهة فالقراءة يسلمها الأول للثاني حتى وصلت إلينا فصيحة خالية من شوائب اللحن ولله الحمد والمنة.

المبحث الثالث

إشمام الحركات

يقصد بالحركات هنا الحركات الأصلية (الفتحة، الضمة، الكسرة) وتسمى عند المحدثين بالحركات القصيرة [2]، وقد رصدت كتب التراث المزج بين الكسرة والضمة عند بعض العرب، كما جاء في القراءات المتواترة عند بعض القراء، وسأتناول في هذا المبحث المزج بين الحركات عند اللغويين ثم ألحقه بالقراء.

المطلب الأول:

- **إشمام الحركات عند اللغويين.**

الإشمام عند الرضي (ت:686هـ) هو ((أن تنحو بكسرة فاء الفعل نحو الضمة فتحيل الياء الساكنة بعدها نحو الواو قليلاً إذ هي تابعة لما قبلها))[3].

وقد ورد إشمام الحركات في جُلّ كتب النحو عند حديثهم عن بناء الفعل لما لم يسم فاعله نثراً ونظماً [4]، فابن مالك (ت: 672هـ) يقول في الكافية الشافية.

((واكسر أو اشمم فا ثلاثي أعل .... عينا وضم ما كـ (بوع) فاحتمل))[5].

ومقصود العلماء أن الفعل إذا كان معتل العين وأرت بناءه على ما لم يُسم فاعله فإن في ماضيه ثلاثة أوجه (خاف) الواوى و(باع) اليائي فعند بنائه للمجهول جاز فيه إخلاص الكسر

---

1 ينظر: التيسير: 80، وإبراز المعاني :419.

2 ينظر: الأصوات ووظائفها، محمد منصف القماطي، منشورات جامعة الفاتح،1986م، ص 69 فما بعدها

3 شرح الرضي على الكافية، ج 4، ص:131.

4 ينظر: شرح ابن عقيل، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، مكتبة دار التراث القاهرة، ص 249، وينظر: شرح جمل الزجاجي، ج 1، ص: 542، وغيرها.

5 الكافية الشافية، ج1، ص: 269.

فتقول: (بيع) و(خيف) وإخلاص الضم فتقول: (بوع) و(خوف)، وإشمام الضم للكسر ولا يضبط إلا بالمشافهة[1].

وكل هذا مرتبط بأمن اللبس ((فإن قامت قرينة جاز لك إخلاص الضم في الواوي، وإخلاص الكسر في اليائي نحو (عُدتَ يا مريض) و(بِعتَ يا عبد) وإن لم تضم نحو بعتُ وعدتُ فالأولى أنه لابدّ لك في الواوي من إخلاص الكسر أو الإشمام وفي اليائي من إخلاص الضم أو الإشمام؛ لئلا يلتبس بالمبني للفاعل))[2].

والغرض من الإشمام الإعلام بأن الأصل في هذه الأفعال ضم أوائلها وقد علل ابن جني للإشمام بقوله: ((وأما من أشم فإنه أراد البيان، وقد كان في الفاء ضمة فأراد أن ينقل إليها كسرة العين فلم يمكنه أن يجمع في الفاء الكسرة والضمة فأشم الكسرة فضارعت الحركة في الفاء بين الضمة والكسرة))[3].

وخلاصة القول: إن إشمام الحركات ظاهرة لهجية رصدتها كتب التراث وحفظتها الأذهان، ولهجت بها الألسنة جاءت منبهة على الأصل وهي لهجة فصيحة وإن كانت قليلة؛ بل وقرئ بها في المتواتر كما سيتضح في المطلب القادم.

المطلب الثاني:

- **إشمام الحركات عند القراء.**

من خلال الاطلاع على الكتب القراءات وتعريفهم للإشمام في الحركات وجدث التقارب الشديد بين تعريفاتهم وتعريفات اللغويين[4]، غير أن من المتأخرين من علماء القراءات من دقق في التعريف بحيث أشار إلى الجمع بين الحركتين وبين الجزء الأكبر منهما وفي هذا يقول الشيخ

---

1 ينظر: شرح جمل الزجاجي لابن عصفور الإشبيلي، ج1: 542.

2 شرح الرضي على الكافية، ج4: 131.

3 المنصف لابن جني، تحقيق إبراهيم مصطفي، وعبد الله أمين، دار إحياء التراث القديم، ط الأولي، 1373هـ/ 1954م، ج1: 249.

4 ينظر: فتح الوصيد في شرح القصيد، تحقيق مولاي محمد الإدريسي، مكتبة الرشد، ط الثانية،1426 هـ /2005م، ج3: 624، وينظر شرح الفابسي على الشاطبية الأبي عبد لله محمد الفاسي، حقيقة عبد الرزاق على إبراهيم، منشورات مكتبة الرشد، الرياض، ط الأولي، 1426هـ/2005م،ج2: 10، وينظر: الوافي في شرح الشاطبية عبد الفتاح القاضي، منشورات مكتبة عبد الرحمن لنشر القرأت والكتب الإسلامية، (د. ت):201.

عبد الفتاح القاضي في تعريف الإشمام هو ((أن تحرك الحرف الأول منهما بحركة مركبة من حركتين ضمة وكسرة وجزء الضمة مقدم وهو الأقل، ويليه جزء الكسرة وهو الأكثر))[1].

وقد اتفق اللغويون وعلماء القراءات على أن هذه الظواهر لا تتفن إلا بمشافهة القراء والمختصين، وهو ما يتناقله علماء القراءات عند دراستهم **لقرش** الحروف في القراءات السبعية أو العشرية.

يقول الإمام الشاطبي (ت: 590هـ) في لاميته.

وقيل وغيض ثم جيىءَ يُشِمُها لدى كسرها ضماً رجال لتكملا
وَحيل بإشمامٍ وسيق كما رسا وسيئ وسيئت كان راويه أنبلا[2]

فلفظ (سيئ) و(سيق) و(حيل) أصلها واوي من (سُوي) و(سُوِق) و(حُوِل)، أما (غيض) و(جيئ) فأصلها يأئي استثقلت الحركة فيهما على الياء فنقلت إلا ما قبلها والأصل؛ (غُيِضَ) و(جُيِئ).

ولا خلاف بين علماء اللغة والقراءات في التعليل الصرفي لهذه الكلمات وكونها أفعال ماضية مبنية لما لم يسم فاعله فإعادته هنا يكون من باب التكرار تركته اختصاراً.

بقي أن أنبه على أن إشمام الحركات ظاهرة لهجية نطق بها بعض أهل البيان من العرب وقد توجت بالفصاحة والحفظ لاعتماد القراءات المتواترة لها فقد ورد الإشمام في قراءة وابن عامر(ت:118هـ)، نافع (ت:169هـ)، والكسائي (ت:189هـ)، من السبعة، مع الاختلاف في مواضع الإشمام بينهم[3]، ووافقهم من الثلاثة أبو جعفر (ت: 128هـ)، ورويس (238هـ) ويعقوب (ت:205هـ)، عن مع الاختلاف في مواضع الإشمام.

الخاتمة

بعد هذه الدراسة في الإشمام وتنوع مدلوله وصل بنا البحث إلى ختام المسك وقد رصد النتائج الآتية:

1- قارب التعريف اللغوي بين أنواع الإشمام، بينما تباينت التعريفات في الاصطلاح لاختلاف المدلول.

---

1 ينظر: الوافي في شرح الشاطبية،:201.

2 ينظر: فتح الوصيد في شرح القصيد للسخاوي، ج 3: 622 626.

3 ينظر: فتح الوصيد للسخاوي، ج3: 626 فيما بعدها.

2- رصدت كتب المتقدمين من اللغويين والقراء ظاهرة الإشمام بأنواعها، ولم يختلف المدلول في عمومه بينهما إلا ما ذهب إليه ابن يعيش في مدلول الروم والإشمام.

3- خلص البحث من الإشمام المنوط بضم الشفتين والذي لا صوت معه إلى أن علماء القراءات كانت عبارتهم أضبط في الوصف، وأدق في التعبير.

4- آثرت أن أطلق على الإشمام الذي لا صوت معه (الإشمام الإشاري)؛ لأنه إيماء دون تصويت، وهو يفرق عن بقية أنواع الإشمام.

5- استدل علماء القراءات بالتعليلات والضوابط التي وُجدت في كتب اللغة، كما اجتح علماء اللغة لرصد الظواهر بالقراءات المتواترة وبخاصة المتأخرين منهم.

6- إشمام الحروف ظاهرة لغوية تحدث عنها اللغويون، وقُرئ ببعضها في المتواتر فحفظت مكتوبة وملفوظة.

7- إشمام الزاي لصوت الصاد قرئ به في المتواتر، أما إشمام الزاي لصوت السين فقد أثبته اللغويون ولم أجد له قراءة تدعمه أو تعضده في المتواتر.

8- أثبت اللغويون أن الإشمام فصيح والبيان أحسن، وقد تواكب مع القراءة فالقراء الذين ورد عنهم الإشمام هم أقل عددا من الذين قرأوا من دونه.

9- إشمام الزاي لصوت الصاد من الظواهر المنطوقة قديماً وحديثاً وهو ما تبين من خلال نطق العامة به في وقتنا الحاضر.

10- إشمام الحركات ظاهرة أشارت إلى أصل حركة فاء الفعل، وقد وردت عند اللغويين وعلماء القراءات في نظمهم ونثرهم تحدثوا عن تعريفه وغرضه، وتحوله الصرفي.

11- يلاحظ على تعريف علماء القراءات الدقة في الوصف في تركيب الحركتين ومقدار كل منهما، في حين ركز اللغويون على التعليل والتحليل الصرفي لهذه الظاهرة.

12- تُوجت ظاهرة إشمام الحركات بثوب الفصاحة، وحفظ النطق، لتناقل أئمة القراءة لها جيلاً بعد جيل.

13- يحسب لعلماء القراءات المحافظة على كثير من الظواهر اللهجية التي وردت في قراءات الأئمة بحيث وصلت إلينا خالية من شوائب اللحن، وسوء النطق.

والله أعلم.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

1- الإبدال والمعاقبة والنظائر، لأبي القاسم الزجاجي، حققه عزالدين التنوخي، منشورات دار صادر، بيروت، ط الأولى،1381هـ/1962م.

2- إبراز المعاني من حرز الأماني لأبي شامة المقدسي، تحقيق إبراهيم عطوة، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت).

3- الأصوات وظائفها، محمد منصف القماطي، منشورات جامعة الفاتح، ط الأولى، 1986م.

4- البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة، عبد الفتاح القاضي، مكتبة البابي الحلبي، (د. ت).

5- التبصرة في القراءات السبع لمكي بن أبي طالب، تحقيق جمال الدين محمد شرف، دار الصحابة، طنط، ط الأولى،1427هـ/2006م.

6- التمهيد في علم التجويد، لابن الجزري، تحقيق غانم القدوري، منشورات مؤسسة الرسالة، ط الأولى، 1421هـ/ 2001م.

7- تهذيب اللغة للأزهري، تحقيق د. رياض زكي قاسم، دار المعرفة، بيروت، ط الأولى،1422هـ/ 2001م.

8- التيسير في القراءات السبع الإمام الداني، تحقيق جمال الدين محمود شرف، دار الصحابة، طنط، ط الأولى،1427هـ/2006م.

9- جامع البيان للإمام الداني، تحقيق محمد صدرق الجزائري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، 2005م.

10-شرح ابن عقيل، على ألفية ابن مالك، شرح وتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، منشورات دار التراث، القاهرة،1420هـ/ 1999م.

11-شرح جمل الزجاجي لابن عصفور الإشبيلي، تحقيق: صاحب أبو جباح، عالم الكتاب، بيروت، ليبان، ط الأولى 1419هـ/ 1999م.

12-شرح الرضي على الكافية، تصحيح يوسف حسن عمر، جامعة قار يونس، ط الثالثة، 1996م.

13-شرح طيبة النشر لابن الناظم، تحقيق جمال الدين محمد شرف، دار الصحابة طنط، ط 2005م.

14-شرح الفاسي على الشاطبية، لأبي عبد الله محمد الفاسي، حققه عبد الرازق علي إبراهيم، منشورات مكتبة الرشد، الرياض، ط الأولى 1426هـ/2005م.

15-شرح الكافية الشافية، لابن مالك، تحقيق علي محمد معوض، عادل أحمد، دار الكتب لعلمية، بيروت، لبنان، ط الأولى، 1420هـ/2000م.

16-شرح المفصل لابن يعيش، منشورات مكتبة المتنبي، القاهرة، (د. ت).

17-فتح الوصيد في شرح القصيد للسخاوي، تحقيق مولاي محمد الإدريسي، مكتبة الرشد، ط الثانية، 1426هـ/2005م.

18-الكتاب لسيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، منشورات الخانجي، القاهرة، ط الخامسة، 1430هـ/ 2009م.

19-لسان العرب لابن منظور، صححه نخبة من الأساتذة، منشورات دار الحديث، القاهرة، ط 1423هـ/2003م.
20-المتبع في شرح اللمع للعكبري، دراسة وتحقيق عبد الحميد حمد محمد، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ط الأولى، 1428هـ 2007م.
21-المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده، حققه عبد الحميد هنداوي، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى 1421هـ/ 2000م.
22-مصطلحات في علم القراءات القرآنية، عبد العلي المسؤول، دار السلام، ط الأولى 1428هـ/ 2007م.
23-المنصف لابن جني، تحقيق إبراهيم مصطفي، وعبد الله أمين، دار إحياء التراث القديم، ط الأولى،1373هـ/ 1954م.
24-النشر في القراءات العشر لابن الجزري، تحقيق محمد جمال الدين، منشورات دار التراث طنطا، 2003م.
25-الوافي في شرح الشاطبية، عبد الفتاح القاضي، منشورات مكتبة عبد الرحمن لنشر القرآن الكتب الإسلامي، (د.ت).

المسئولية الموضوعية

د. على رمضان المخزوم

المسئولية الموضوعية

د. على رمضان المخزوم

المقدمة:

ان مصطلح المسؤولية يستخدم للدلالة على معنى التزام شخص بتحمل النتائج التي تترتب على سلوكه الذي ارتكبه مخالفا به أصول أو قواعد قانونية، ومفهوم المسؤولية بشكل عام ينطبق مع مفهوم المحاسبة وتحمل الشخص لتبعة تصرفاته وافعاله، فيمكن ان يكون السلوك إيجابيا أم سلبيا ويتحمل في هذه الحالة فرض جزاء قانوني تحدده السلطة العامة للدولة، وتعرف المسؤولية بأنها التزام الانسان بتحمل الآثار القانونية المترتبة على قيام فعل يعتبر جريمة من وجهة نظر القانون ونتيجة مخالفة هذا الالتزام هي العقوبة أو التدابير الاحترازية وبالتالي لابد من تحقق جريمة بالشروط التي يفرضها الفقه الجنائي المعاصر على أنها نشاط مادي ونفسي مخالف لأهداف الجماعة، وتكشف صفتها غير المشروعة من تناقضها مع قاعدة قانونية تجرم هذا النشاط، وبناء على ذلك يستلزم لقيام الجريمة توافر ركنين إحداهما مادي وآخر معنوي، كما أنه لا يكفى لقيام الركن المعنوي وهو ركن المسئولية الجنائية كما يقال عنه عادة[1] أن يكون الجاني أهلا جنائيا، ولكن يشترط أيضا أن تقوم بينه وبين الواقعة المرتكبة رابطة تأخذ شكل العمد أو الخطأ، ومع ذلك نجد أن المشرع الليبي قد اكتفى في بعض الجرائم بعلاقة السببية المادية بين السلوك والنتيجة دون أن يشترط رابطة نفسية بين الجاني والواقعة المجرمة أي دون أن يتطلب الركن المعنوي وهذه هي المسئولية الموضوعية أو كما يطلق عليها البعض المسئولية دون خطأ وهذه المسئولية تعتبر خروجا عن القاعدة العامة في المسئولية الجنائية وهى لا تتقرر إلا بنص قانوني صريح[2].

ويجب علينا أن نلاحظ أن المسئولية الموضوعية أو المادية تستلزم تحقق السلوك بعنصره النفسي المتمثل في الإرادة الواعية حيث يلزم إن يكون سلوك الجاني صادرا عن إرادة وإدراك حتى يمكن الاعتداد به قانونا وبالتالي فإذا كانت الحركة العضوية التي أتاها الجاني غير خاضعة لسيطرة الإرادة فإنها لأتشكل سلوكا في المعنى القانوني وبذلك ينتفي الركن المادي فلا تقوم الجريمة ولا يمكن بالتالي أن يسأل الجاني تبعا للمسئولية الموضوعية.

كذلك فان انعدام الأهلية الجنائية تحول دون امكان مساءلة الجاني على أساس المسئولية الموضوعية.

لم يتحدث قانون العقوبات الليبي صراحة عن المسئولية الموضوعية وإنما تستفاد تلك المسئولية من بعض فروض التجريم المنصوص عليها وتتمثل تلك الفروض في الاتي:

ونتناول تلك الفروض الأربعة في مباحث أربعة على التفصيل والبيان التالي:

المبحث الأول: المسئولية عن الجرائم المشددة بالنتيجة.

المبحث الثاني: المسئولية عن الجرائم متجاوزة القصد.

المبحث الثالث: مسئولية الشريك عن النتيجة

المبحث الرابع: المسئولية عن فعل الغير.

المبحث الأول

المسئولية عن الجرائم المشددة بالنتيجة

قد يرتكب الفاعل جريمة أشد جسامة من تلك التي قصدها، فيثار التساؤل عن مدى مسؤولية الفاعل عن الجريمة التي وقعت فعلا، فقد ذهب بعض الفقهاء الى القول بأن الفاعل لا تفض عليه إلا عقوبة الجريمة التي قصد القيام بها. في حين أن البعض الآخر فرق بين حالتين هما:

الحالة الأولى: إذا كان الفاعل قد ارتكب الجريمة التي عقد النية على ارتكابها ابتداء ولكن مقترنة بظروف مشددة، وفي هذه الحالة يعاقب الفاعل عن الجريمة كما وقعت إذا كان عليه أن يتوقع ارتكاب الجريمة بالشكل الذي ارتكبت به مقترنة بما يحتمل أن تقترن به من ظروف مشددة.

الحالة الثانية: في حالة ان الجاني قد ارتكب جريمة اخرى، وفي هذه الحالة يكون الفاعل غير مسؤولا عن الجريمة التي وقعت، كون الجريمة التي قصدها لم تقع.

اما **الطائفة الثالثة** من الفقهاء ذهبت الى ان الفاعل يسأل عن الجريمة الأشد التي وقعت ولو كانت غير تلك التي قصد القيام بها، متى كانت النتيجة محتملة لفعله [3].

وتعتبر الجرائم مشددة بالنتيجة في الأحوال التي يشدد فيها المشرع العقوبة المقررة للجريمة حينما تتحقق نتيجة أخرى بالإضافة إلى النتيجة المتطلبة للتكوين القانوني للجريمة وتلك النتيجة الثانية يسأل عنها الجاني استنادا إلى رابطة السببية دون تطلب توافر العمد أو الخطأ غير العمدي بالنسبة لها، وهذا النوع من الجرائم هو النموذج التقليدي والقديم للمسئولية الموضوعية.

وتنقسم الجرائم المشددة بالنتيجة إلى نوعين [4]:

النوع الأول: يكتفي فيه برابطة السببية بين السلوك والنتيجة المشددة دون تطلب أي موقف نفسي حيالها مثال ذلك جريمة شهادة الزور في جناية المادة " 266 "ع ل إذا ترتب عليها الحكم على المتهم بالسجن مدة تزيد على خمس سنوات فالعقوبة السجن مدة لا تزيد على سبع سنوات، أما إذا ترتب على الشهادة حكم بالسجن المؤبد فالعقوبة السجن، وتكون العقوبة السجن المؤبد إذا ترتب على الشهادة حكم بالإعدام. كذلك أيضا جريمة القيام بعمل عدائي ضد دولة أجنبية وبغير إذن من الحكومة من شأنه تعريض الدولة لخطر الحرب، تكون العقوبة السجن. وتكون العقوبة السجن المؤبد إذا نجم عن الفعل قطع العلاقات الدبلوماسية أو ترتب على الأعمال العدوانية انتقام من ليبيا أو من مواطنيها أينما كانوا. أما إذا قامت الحرب فيعاقب الجاني بالإعدام بدلا من السجن.

النوع الثاني: يشترط فيه المشرع أن تكون النتيجة المشددة غير إرادية بمعنى ألا تكون إرادة الجاني قد اتجهت أيضا إلى تحقيق النتيجة الثانية والعلة من اشتراط ذلك أن تجاوز الإرادة إلى النتيجة الثانية يشكل جريمة أخرى قائمة بذاتها، مثال ذلك جرائم الإجهاض إذا ترتب عليها وفاة المجني عليها وهذا هو الشأن بالنسبة للجرائم متعدية القصد والتي هي جرائم مشددة بالنتيجة مع اشتراط عدم اتجاه الإرادة إليها والا لكنا بصدد قتل عمد وليس ضرب أو جرح مفضي إلى الوفاة. والجرائم المشددة بالنتيجة والتي يستلزم القانون فيها عدم اتجاه الإرادة على النتيجة الثانية قد تكون عمدية كما قد تكون غير عمدية ومثال الجرائم العمدية المشددة بالنتيجة غير الإرادية جريمة إضرام النار في ملكه لمجرد الإضرار بملك الغير أو أتلاف إحدى المنشآت المعدة لجمع المياه أو تصريفها... إذا نشأ عنها حريق أو كارثة أخرى، المادة " 299 "ع ل، وكذلك إذا أضرم الجاني النار في ملكه وترتب على هذا الفعل حرق ملك الغير أو تعريض السلامة العامة للخطر، المادة " 297 " ع ل أما الجرائم غير العمدية المشددة بالنتيجة غير الإرادية فمثالها التسبب غير العمدى في حصول حادث لأحدى وسائل النقل العامة من شأنه تعريض الأشخاص الذين بها للخطر إذا نشأ عنه موت شخص أو إصابته بدنيا المادة " 2/301 "ع ل ففي جميع الصور السابقة للمسئولية عن النتيجة الأخرى خلاف تلك الداخلة في التكوين القانوني للجريمة تؤسس المسئولية على مجرد رابطة السببية وتنتفي المسئولية فقط بإثبات انقطاع رابطة السببية وفقا لما سبق بيانه.

ونؤيد ما ذهبت اليه الطائفة الثالثة من الفقهاء لأنه ليس من الضروري أن تطابق جريمة الفاعل الصورة التي ارتسمت في ذهنه عن الجريمة التي أراد ارتكابها طالما ان القانون لا يعلق على هذا الاختلاف أهمية قانونية.

المبحث الثاني

المسئولية عن الجرائم متجاوزة القصد

يعبر الفقه الحديث عن الجرائم التي تفترض نتيجتين إجراميتين: أحداهما قليلة الجسامة اتجه إليها قصد الجاني والثانية أشد جسامة لم يتجه إليها قصده بتعبير الجرائم التي تجاوز قصد الجاني [5].

فقد يتعمد الجاني تحقيق نتيجة قليلة الجسامة فتحدث نتيجة أشد جسامة وهذه النتيجة الأخيرة لم يتوقعها الجاني ولم يقبلها غير أن القانون يلقى عليه تبعتها نظرا لخطورتها ولأنه كان من المتعين عليه أن يتوقعها عند قيامه بسلوكه الإجرام نظرا لأنه من الجائز حصولها وفقا للمجرى العادي للأمور ولقد وضع قانون العقوبات الليبي تعريفا لها وذلك في المادة " 2/63 التي جاء نصها كالتالي: وترتكب الجناية أو الجنحة مع تجاوز القصد إذا نجم عن الفعل أو الامتناع ضررا أو خطر أكثر جسامة مما كان يقصده الفاعل "[6].

أما قانون العقوبات المصري فانه لم يتعرض لتعريف هذه النتيجة ولا يعاقب على النتائج التي تجاوز القصد إلا إذا ورد بشأنها نص، وقد يعاقب القانون على هذه النتائج بذات العقوبة كما لو كان الجاني قد تعمد ارتكابها كما جاء في نص المادة " 393 "ع ل الذي يعاقب على موت امرأة أو إصابتها بأذى شخصي جسيم أو خطير نتيجة الإجهاض بعقوبة مساوية لعقوبة الإجهاض، كما أوردت المادة " 385 "ع ل نصا عاما يشمل جميع الحالات التي يقع فيها أثرا غير مقصود لفعل مقصود، حيث نصت على: " إذا ترتب على فعل يعد جريمة عمدية موت شخص أو أكثر أو إيذاؤه كنتيجة لم يتعمدها الجاني ولم يكن من شأن الفعل إحداثها، تطبق على الجاني أحكام المادتين 377 و384ع ل المتعلقتين بجريمة القتل و الإيذاء الخطأ " كما في حالة ارتكاب جناية حريق إذا ترتب عليه موت شخص أو أكثر.

وقد يعاقب القانون على النتائج المتجاوزة القصد بعقوبة أحف مما يقرره لها في أحوال القصد المباشر كما هو الشأن فيما تقرره المادة " 374 "ع ل التي تنص على أن " كل من جرح أو ضرب أحد عمدا أو أعطاه مواد ضارة ولم يقصد من ذلك قتلا ولكنه أفضى إلى الموت، يعاقب بالسجن مدة لا تزيد على عشر سنوات وأما إذا سبق ذلك أصرا أو ترصد، كانت العقوبة السجن [7].

ولا يثور شك في أن المسئولية عن النتيجة الأقل جسامة تقوم على أساس القصد الجنائي إذ أن الجاني توقعها وأرادها.

ونتناول هذا المبحث من خلال مطلبين هما:

المطلب الأول: الاختلاف حول أساس المسئولية عن النتيجة متعدية القصد.

المطلب الثاني: الاختلاف بين الجريمة المتعدية القصد وما يشابهها من جرائم.

المطلب الأول

الاختلاف حول أساس المسئولية عن النتيجة متعدية القصد

من المعروف أن النتيجة المتعدية القصد هي نتيجة لم تتجه إليها إرادة الجاني وقد ذهب الرأي السائد أن المسئولية تستند إلى القصد الاحتمالي باعتبار أن الشخص الذي يرتكب جريمة ضرب أو جرحا يجب عليه توقع جميع النتائج المحتملة بسبب المساس بسلامة الجسم ولكن هذا الرأي محل نظر فالمسئولية عن النتيجة المتجاوزة القصد يستحيل تأسيسها على القصد الاحتمالي الذي يتطلب التوقع الفعلي للنتيجة وهنا لا يشترط توقع الجاني للعاهة أو الوفاة كما أن الجاني يسأل عن النتيجة المتجاوزة للقصد حتى لو توقعها بغض النظر عن قبوله أو عدم قبوله لها، كما أن القصد الاحتمال هو نوع من القصد الجنائي وبالتالي فالجريمة على أساسه عمدية على حين أن المسئولية عن النتيجة المتجاوزة للقصد ليست عمدية في كل الأحوال حيث لم ينص المشرع فيها على عقوبة الجريمة العمدية في كل الحالات ولكنه يخفف من العقوبة [8].

ولذلك فقد ذهب بعض الفقهاء[9] إلى اعتناق الرأي الذي يؤسس المسئولية عن النتيجة الجسيمة على أساس الخطاء غير العمدى ويؤيد ذلك الرأي أن المشرع يطلب لقيام هذه المسئولية أنه كان في استطاعة الجاني ومن واجبه توقع هذه النتيجة وهذا هو جوهر فكرة الخطأ ولكن هذا الرأي هو الأخر محل نظر فمكنة التوقع ليست هي جوهر الخطأ وإنما دليل لإثباته ولذلك فليس من المقبول اعتبار النتيجة المتعدية القصد غير عمدية حتى في صورة مخالفة القوانين واللوائح لأن تلك المخالفة لا تشكل خطأ غير عمدي إلا بالنسبة للقوانين واللوائح التي تفرض احتياطات معينة منعا لتحقق النتيجة الضارة، ومن ناحية أخرى فان الجاني يسأل عن النتيجة المتعدية القصد حتى لو أثبت عدم وجود إهمال أو عدم وجود أية صورة أخرى للخطأ، وإنما تنتفي مسئوليته عن تلك النتيجة فقط اذا أثبت انقطاع رابطة السببية بينها وبين سلوكه [10].

والرأي الراجح يرى أن أساس المسئولية في الجرائم المتعدية القصد هو الارتباط السببي بين السلوك والنتيجة وتنتفي المسئولية بانتفاء رابطة السببية متى كانت النتيجة لا يمكن توقعها وفقا للمجرى العادي للأمور.

المطلب الثاني

الاختلاف بين الجريمة المتعدية وما يشابهها

الجريمة المتعدية تتميز أكثر ما تتميز بركن الخطأ فيها أي ركن " القصد المتعدي " هذا الركن المعنوي لأنه مبنى على تجاوز النتيجة للقصد يفترض بالضرورة تعدد الأحداث في الجريمة المتعدية فالعمد ينصب على الحدث البسيط ولهذا يسمى " بالحدث المقصود " ولا ينصرف إلى الحدث الجسيم ولهذا يسمى " الحدث المتعدي " وعلى هذا فالجريمة المتعدية تتميز من ناجيتين (11):

1- من ناحية الركن المادي حيث ينشأ عن الفعل الإجرامي الواحد نتيجتان الثانية فيها أشد من الأولى جسامة ويتصلان برابطة السببية.

2- من ناحية الركن المعنوي حيث ينصب قصد الجاني على حدث معين " الحدث المقصود " بيد أن النتيجة تتجاوز قصد الجان " الحدث المتعدي " والركن المادي هو الذي يميز الجريمة المتعدية عن غيرها من الجرائم المتشابهة معها إذ لا تكتسب هذا الوصف ما لم يكن الحدث الثاني أشد جسامة من الحدث الأول أي يختلف عنه في الكم لا في الكيف ولكن نرى أن الجريمة المشددة بالحدث مازالت تزاحم الجريمة المتعدية في هذا النطاق الضيق لأنه في هذه الحالة أيضا يقع حدث آخر مختلف عن الحدث المقصود أشد منه جسامة.

ويلاحظ أن الحدث الجسيم في الجريمة المتعدية كما يزعم الفقه المصري إنما يمس بمصلحة من نفس نوع المصلحة التي أهدرها الحدث البسيط بينما يعدو الحدث الجسيم في الجريمة المشددة على مصلحة مغايرة ولهذا فبينما يعتبر الحدث الجسيم عنصرا في الجريمة المشددة لأنه انحراف بالحدث البسيط، ولكن هذا الزعم غير صحيح فالحدث الجسيم في الجريمة المتعدية ليس حدثا أشد جسامة وحسب ولكنه حدثا مغاير أيضا بمعنى أنه يهدر مصلحة قانونية أخرى فهي غير المصلحة التي أهدرها الحدث البسيط وليس معنى أن الحدث الجسيم استمرار لسير الحدث البسيط أن يعدو على مصلحة من نفس النوع فالواقع أن الجريمة المتعدية تحتوى على حدثين كل منهما يهدر مصلحة معتبرة في النظام القانوني ومن أجل هذا فهي مصلحة أخرى في سلم الحماية القانونية بالرغم من أنها تكون أحيانا استمرارا لها.

والأهم من ذلك تلك التفرقة بين الجريمة المتعدية والجريمة المشددة بالنتيجة إذ تتركز أساسا في الركن المادي فليس من السائغ أن يقال إنه إذا كانت المصلحة من نفس النوع فإننا نكون في نطاق القصد المتعدي وإذا كانت المصلحة مغايرة فإننا نخرج عن نطاق هذا القصد المتعدي.

فالقصد المتعدي نظام في الخطأ ثابت وأصيل ينهض لتوافر عناصر نفسية وينتفي بانتفاء هذه العناصر فالمصلحة القانونية سواء كانت مغايرة أو من نفس النوع تدخل نطاق القصد المتعدي أو تخرج عنه بحسب موقف الارادة منها فان كانت تطاولها خرجنا من نطاق القصد المتعدي وان كانت الارادة لا تطاولها إلا في شق منها كنا في نطاق القصد المتعدي وعلى هذا النحو لا يجدر بنا أن نواجه تعبير الجريمة المتعدية بتعبير الجريمة المشددة بالحدث لأنه وكما يقول الأستاذ الدكتور جلال ثروت؛ يشير الأول إلى نطاق معين في نظرية الخطأ ويقوم ركنا معنويا في الجريمة بينما يشير الثاني إلى وقائع مادية متعلقة بالركن المادي فيها.

ويلاحظ بالنسبة للنتائج التي تجاوز القصد ما يأتي [12]:

1- لا يسأل الجاني عن النتيجة المتجاوزة القصد إلا إذا كان قد تعمد تحقيق نتيجة مجرمة قبلها.

2- يشترط توافر علاقة السببية بين سلوك الجاني وبين النتيجة ولكن لا يشترط أن يكون قد توقع بالفعل هذه النتيجة مادامت متوقعة وفقا للمجرى العدى للأمور.

3- لا يعاقب على النتائج المتجاوز للقصد إلا إذا ورد بشأنها نص. أما إذا كان الجاني قد توقع النتيجة وقبلها فانه يسأ ل عنها كما لو كان قد تعمد تحقيقها لتوافر القصد الاحتمالي فمن يضرب شخصا ضربا مبرحا وهو يعلم بأنه مريض بالقلب وقد يؤدى الضرب إلى موته فيمضي في ضربه غير عابئ، يعاقب عن جريمة قتل عمد.

المبحث الثالث

مسئولية الشريك عن النتيجة المحتملة

الأصل في المسؤولية الجنائية أنها شخصية، أي لا تقوم إلا بالنسبة لمن ساهم في الجريمة، والعقوبة بالتالي لا تنال إلا من يسأل عن الجريمة، لذلك تقضي القواعد العامة في المسؤولية الجنائية ألا يسأل عن الفعل الاجرامي إلا من ساهم فيه مساهمة أصلية باعتباره فاعلا أو مساهمة تبعية باعتباره شريكا. لكن قد تقع جريمة غير تلك التي كان الشريك قصد الإسهام فيها بوصفها جريمة محتملا وقوعها بالتبعية لسلوكه، فيحق التساؤل عما إذا كانت مسؤوليته تمتد كذلك لتشمل تلك الجريمة على الرغم من أنها ليست الجريمة التي كان يقصدها؟ وبالتالي اختلفت الآراء في تحديد الأساس الذي تبنى عليه معاملة الشريك، وانقسمت إلى قسمين هم [13].

القسم الأول:

يأخذ بمبدأ تعدد الجريمة بتعدد المساهمين، وتطبيقا لذلك فانه يؤدى إلى عدم مسألة الشخص عن نتيجة تختلف عن النتيجة التي قصد تحقيقها بإتيانه الأفعال المساهمة، ومعنى ذلك أن النتيجة المختلفة التي يحققها أحد الفاعلين لا يسأل عنها إلا الفاعل أو الشريك التي انصرفت

إرادته غلى إحداثها وساهم فدى ذلك بسلوك له فاعلية سببيه بحيث يرتبط بها برابطة السبب بالمسبب، أي أن الشريك يعتبر انه قد ارتكب جريمة قائمة بذاتها حيث أنه قد توافر لها الركنين المادي والمعنوي. فكل مساهم في الجريمة ينفصل بنشاطه عن باقي المساهمين من فاعلين أو شركاء، ويستقل بظروفه الخاصة من حيث التشديد والتخفيف [14].

القسم الثاني:

يأخذ بمبدأ وحدة الجريمة التي تقع مساهمة أكثر من شخص في إحداثها، وذلك يؤدى إلى مسألة بقية المساهمين عن النتيجة المحتملة التي يحدثها أحد الفاعلين حتى لو كانت غير التي قصدها المساهم، ولقد ساير المشرع الليبي هذا الاتجاه حيث نص في المادة " 103 " عقوبات على أن: " من اشترك في جريمة فعليه عقوبتها، ولو كانت غير التي تعمد ارتكابها متى كانت الجريمة التي وقعت بالفعل يحتمل وقوعها عادة نتيجة للتحريض أو الاتفاق أو المساعدة التي حصلت " وإذا كان من المتفق عليه أن تنطبق هذه المادة في حالة ما إذا ارتكب الفاعل جريمة واحدة خلاف الجريمة التي اتجه إليها قصد المساهمين الآخرين كما لو اتفق ا مع ب على ارتكاب جريمة السرقة فارتكب ب جريمة قتل فقط فهنا يتحمل الشريك مسئولية الجريمة التي وقعت مغايرة لقصده متى كانت محتملة ولكن تثور المشكلة في حالة ما إذا ارتكب الفاعل الجريمة التي انصرف إليها قصد المساهمين الآخرين وزاد عليها جريمة أخرى لم تكن محل قصد باقي المساهمين كما لو اتفق ا مع ب على ارتكاب سرقة فارتكب ب جريمة السرقة وصادفه صاحب المنزل فقتله، فهل يسأل الشريك عن الجريمة الأخيرة أيضا؟ ربما يبدو لنا أن ظاهر النص يدعوا إلى الاعتقاد بأن المشرع قد قصد الصورة التي ترتكب فيها جريمة واحدة تكون غير التي قصدها المساهمون الآخرون ولذلك اكتفى بتوافر رابطة سببيه بين فعل المساهمة لكي يمكن مساءلة الشخص عن تلك النتيجة التي لم ينصرف إليها قصده والتي اشترك مع الفاعل لا لتحقيقها وإنما لتحقيق الجريمة التي كان يجب على الفاعل ارتكابها ولم يرتكبها بالفعل هذا بالإضافة إلى أن ارتكاب الفاعل للجريمة محل الاتفاق أو المساهمة أو التحريض ثم ارتكابه زيادة عليها جريمة أخرى هو من قبيل استغلال الفرص التي أتاحها له ارتكاب الجريمة محل المساهمة ومن ثم يتعين مسائلته عنها هو وحده دون باقي المساهمين الذين لم ينصرف قصدهم إليها ويؤيد ذلك اعتبار مساءلة الشريك عن النتيجة المحتملة هو من قبيل الاستثناء على القواعد العامة وبالتالي يجب تفسيره في أضيق نطاق دون توسع أو قياس. ولكن وعلى الرغم من قوة الاعتبارات السابقة إلا أن التعبير الذي استخدمه الشارع في المادة " 103 " يشمل في مفهومه ومدلوله كلا الحالتين سواء حالة ما إذا أرتكب جريمة أخرى جديدة لم ينصرف إليها قصد الشريك بجانب ارتكاب الجريمة محل الاشتراك أو في حالة ارتكاب جريمة واحدة غير التي قصد الشريك ارتكابها ويؤيد هذا الاتجاه أن هدف المشرع لا يقتصر فقط على الحفاظ على وحدة الجريمة التي تقع

بالمساهمة من أكثر من شخص بل هدفه أيضا إلى عدم إفلات الشريك من المسئولية عن فعل الاشتراك الذي تسبب في وقوع الجريمة التي ارتكبها الفاعل حتى لو كان الشريك لم يشملها بقصده مكتفيا في ذلك بتوافر علاقة السببية بين وسيلة الاشتراك والنتيجة التي وقعت، ولسنا هنا بصدد توسع في تفسير نص يقرر استثناءً على القواعد العامة وبالتالي فيحظر التوسع في التفسير فإذا كانت النصوص التي تحدد حالات المسئولية الاستثنائية يتعين عدم التوسع في تفسيرها إلا أنه لابد أن نراعى من ناحية أخرى أن كون النص استثنائي ليس معناه تضييق تفسيره إلى الحد الذي يبتعد به عن مضمونه، فمضمون النص هنا يشمل الحالتين المشار اليهما دون حاجة للقول بأننا بصدد توسع في التفسير فسواء كانت الجريمة المحتملة أشد جسامة أم أقل جسامة فيسأل عنها الشريك متى توافرت الشروط التي استلزمتها المادة السابقة[15].

وسوف نتناول هذا المبحث من خلال ثلاث مطالب هي:

المطلب الأول: شروط مسألة الشريك عن النتيجة المحتملة.

المطلب الثاني: القصد الاحتمالي.

المطلب الثالث: القصد الاحتمالي والقصد المباشر.

المطلب الرابع: القصد الاحتمالي والخطأ غير العمدي.

المطلب الأول

شروط مسألة الشريك عن النتيجة المحتملة.

حتى يمكن مسألة الشريك عن النتيجة المحتملة التي وقعت من الفاعل فان الفقه والقضاء قد اشترط ضرورة توافر شرطين هما [16]:

الأول: توافر صفة الشريك أي توافر علاقة السببية بين فعل الاشتراك وبين النتيجة التي وقعت وهي النتيجة المحتملة وتوافر علاقة السببية هذه مستخلصة من صفة الشريك.

والثاني: توافر صفة الاحتمال في النتيجة ونتناول كل منهما على التفصيل التالي:

1 / مفهوم الاحتمال وعلاقته بأركان الجريمة

تكون النتيجة محتملة إذا كان من الممكن توقع حصولها فالمادة" 103" عقوبات ليبي تفرض على الشريك أن يتوقع كافة النتائج التي يحتمل عقلا وبحكم المجرى العادي للأمور أن تنتج عن مساهمته سواء توقع هو هذه النتيجة أو لم يتوقعها مادامت هي متوقعه في ذاتها فالمعيار إذا ليس معيارا شخصيا يرجع في تحديده إلى ذات الشريك وإنما هو معيار موضوعي يرجع فيه إلى الشخص المعتاد لبيان ما إذا كان يمكنه في الظروف التي تصرف فيها الجاني أن يتوقع ارتكاب حدوث النتيجة التي حققها الفاعل من عدمه [17]، وهو أمر موضوعي تستقل به محكمة الموضوع دون رقابة عليها في ذلك من المحكمة العليا [18]، ويتعين لمساءلة الشريك عن

النتيجة المحتملة أن يكون الفعل الذي قصد أصلا المساهمة فيه جريمة فإذا لم يكن كذلك فلا يسأل عن النتيجة التي تحدث إلا من يقوم بها فعلا، لذلك يجب أن يبين الحكم الجريمة التي قصد المساهمون ارتكابه[19].

ومفهوم الاحتمال السابق لا يمكن إدراجه في الركن المعنوي للجريمة فلو كان الأمر كذلك لما كان هناك داع للنص على تلك الحالة صراحة ولتركها المشرع للقضاء ويطبق عليها القواعد العامة الخاصة بالقصد الاحتمالي والخطأ غير العمدي كما لو كان الأمر كذلك لقامت مسئولية الشريك عن النتيجة المحتملة في بعض الأحيان على الخطأ وهذا لم يقل به القانون ولم ينادى به أحد فالجميع مسلم بأن مساءلة الشريك عن النتيجة المحتملة هي عن جريمة عمديه وليس عن الخطأ كما أن العقوبة التي تطبق عليه هي العقوبة المقررة للجريمة العمدية [20].

ولذلك فان مفهوم الاحتمال مكانه هو الركن المادي للجريمة وعلى وجه التحديد في ذلك العنصر الذي يحدد توافر علاقة السببية من عدمها فشرط الاحتمال الذي تطلبه المشرع في النتيجة التي يحدثها الفاعل لإمكان مساءلة الشريك هذا الشرط قد وضعه للحد من تسلسل الأسباب منظما بذلك حالة انقطاع رابطة السببية بسبب تدخل سبب لاحق غير متوقع وشاذا وغير محتمل وكاف لوحده إحداث النتيجة ولذلك فإذا انتفى الاحتمال بالنسبة للنتيجة التي حققها الفاعل فلا يسأل الشريك عنها باعتبار أن تدخل الفاعل من جانبه وارتكابه الجريمة التي لم تكن محل الاشتراك يعتبر سببا لاحقا شاذا وغير متوقع وغير محتمل وكاف لوحده لإحداث النتيجة ولذا يسأل عنه الفاعل وحده أما إذا كانت النتيجة التي ارتكبها الفاعل متوقعة وقت أن حقق الشريك فعل الاشتراك فان تدخل الفاعل فيما بعد يعتبر سببا عاديا يتفاعل مع السبب السابق في إحداث النتيجة ويسأل الشريك عنها فالاحتمال وحده شرط لمسئولية الشريك [21].

2/ أساس مسئولية الشريك عن النتيجة المحتملة:

من التحليل السابق يتضح لنا عدم لمكان القول بأن مسئولية الشريك عن الجريمة المحتملة تبنى على فكرة القصد الاحتمالي وألا لما كان هناك ثمة داع للنص صراحة على حكم هذه الحالة كما أن القصد الاحتمالي يفترض التوقع الفعلي لا مجرد لمكان التوقع كما في حالتنا هذه، كما أن القصد الاحتمالي يفترض أيضا قبول النتائج المتوقعة وهذه كلها عناصر زائدة وغير متطلبة من قبل الشريك لبناء مسئوليته عن النتيجة المحتملة [22].

كما لا يمكن لنا تأسيس مسئولية الشريك عن النتيجة المحتملة على الخطأ لسبب بسيط وهو أن مسئولية الشريك عن النتيجة المحتملة هي مسئولية عمديه ولا تقوم على الخطأ [23].

كما أنه لا يمكن لنا اعتبار النتيجة المحتملة ظرفا ماديا للجريمة الأصلية ومن ثم فهو يسرى على جميع المساهمين في الجريمة كما هو الحكم بالنسبة للظروف المادية وذلك لسبب أن الشريك يسأل عن النتيجة المحتملة حتى لو لم ترتكب الجريمة الأصلية، كما أن الظروف المادية

ليست وقائع مستقلة عن الجريمة ذات الظروف بينما نجد أن النتيجة المحتملة جريمة قائمة بذاتها مستقلة في عناصرها وأركانها وأسمها القانوني كما أن الظروف المادية تسرى على كافة المساهمين تطبيقا للقواعد العامة ولم يكن هناك ثمة حاجة للنص على مسئولية الشريك دون غيره من المساهمين. ولكن المشرع في إسناد النتيجة المحتملة إلى الشريك لا يعتد بالقصد الجنائي كما لا يعتد بتوافر الخطأ غير العمدي لدى الشريك ولكنه اكتفى فقط بتوافر علاقة السببية بين فعل الاشتراك والنتيجة التي وقعت وان تلك العلاقة لم تكن قد قطعت بسبب تدخل فعل ثالث شاذ وغير مألوف فالمسئولية إذا مسئولية موضوعية مفترضة مادية حيث يكتفي المشرع بتوافر الركن المعنوي للفعل المادي " وليس للجريمة " والذي يتكون من الإرادة والإدراك ويبنى عليه مسئولية الشخص عن النتيجة التي تنشأ عن إتيان هذا السلوك الإرادي الواعي.

3/ مسئولية الفاعل عن النتيجة المحتملة لمساهمته:

بالرغم من أن المادة " 43 " عقوبات مصري والمقابلة للمادة 103 عقوبات ليبي جاءت بصدد مسئولية الشريك عن النتيجة المحتملة وهي مسئولية موضوعية مغايرة لما تقضى به القواعد العامة ولذلك يستحيل التوسع في تفسيرها وامتدادها إلى حالات لم ينص عليها المشرع صراحة فمبدأ الشرعية يأبى التفسير الواسع كما يأبى أعمال القياس في نصوص التجريم عامة ومن باب أولى في النصوص التي تقرر مسئولية جنائية استثنائية مخالفة للقواعد العامة، وإلا لوقعنا في مخالفة صريحة وصارمة لمبدأ شرعية الجرائم والعقوبات الذي أكده صراحة المشرع الجنائي [24].

ولكن يرى بعض الفقهاء أن نص المادة السابقة يسرى أيضا على الفاعل فإذا ساهم فاعلان في ارتكاب جريمة وقعت نتيجة أشد من تلك التي كانا يقصدان إتيانها فإنهما يسألان عنها إذا كان من المحتمل وفقا للمجرى العادي للأمور أن تحدث نتيجة لسلوك أي منهما وتبرير ذلك أن الفاعل يتقدم في طريق تنفيذ الجريمة خطوات أكثر من تلك التي يقطعها الشريك ولا يقبل عدلا ولا منطقا أن يسأل الشريك عن النتيجة المحتملة وجريمته تابعة لجريمة الفاعل بينما لا يسأل عن هذه النتيجة الفاعل وهو أكثر منه انحدارا في طريق الجريمة، وقد ذهب البعض إلى القول بأن الفاعل يجمع بين صفة الفاعل والشريك مما يجعل الفاعل بالضرورة مسئولا عن النتيجة الاحتمالية، كما يؤيد هذا الرأي المثال الذي ساقته تعليقات الحقانية بشان تطبيق المادة " 43" عقوبات مصري وقد أوردت مثلا يستفاد منه هذا المعنى وهو " أن يذهب سارقان زيد وعمر ليلا ليسرقا مكانا مسكونا ومعهم سلاح فيقاومهم السكان، فيطلق عليهم زيد النار ويقتل أحدهم. فيجوز للقاضي ولو أن السرقة لا القتل هي المقصودة في هذه الحالة أن يعتبر القتل نتيجة محتملة لعملهما معا ويحكم على عمر من أجل القتل بمقتضى هذه المادة " وقد أخذت محكمة النقض المصرية بهذا الرأي الغالب.

ولكن هناك رأى آخر يرى أن المادة " 43" عقوبات جاءت صريحة النص على الشريك فقط دون الفاعل[25].

كما أن القول بأن الفاعل يجمع بين صفتي الفاعل والشريك وبالتالي إخضاع الفاعل للأحكام الخاصة بالشريك أمرا لا يتفق مع المنهج التشريعي الذي ميز بين صفة الفاعل والشريك ووضع أحكام خاصة لكل منهما فإذا أخص أحدهم بحكم كان معنى ذلك بمفهوم المخالفة عدم خضوع الآخر لهذا الحكم ويسلم هذا الرأي بأنه مما يجافى العدل والمنطق أن يسأل الشريك ودوره في الجريمة أقل من دور الفاعل عن النتيجة الاحتمالية بينما لا يسأل عنها الفاعل غير أن هذا الرأي يرى السبيل إلى تقرير مسئولية الفاعل عن هذه النتيجة هو إيجاد نص صريح يقضى بذلك[26].

مما تقدم يتضح أن الرأي الأول والقائل بمسؤولية الفاعل، وان نص المادة 103 عقوبات ليبي والمقابلة لنص المادة 43 عقوبات مصري، يسري عليه وبالتالي أرى انه أقرب الى المشروعية بسبب التبريرات التي ساقها.

المطلب الثاني

القصد الاحتمالي

وسوف نتناول هذا المطلب على النحو التالي:

اولا: المدلول الحقيقي للقصد الجنائي.

ثانيا: معيار القصد الجنائي.

اولا: المدلول الحقيقي للقصد الاحتمالي:

القصد الاحتمالي هو الذي تتجه فيه إرادة الجاني إلى نتيجة معينة فتقع نتيجة أحرى توقعها وقبلها[27]، وهو نوع من القصد الجنائي تعمد الجاني فيه ارتكاب جريمته بشكل مختلف عن صورة القصد المباشر[28]، ومن ثم كان المنطق يقتضى قيامه على نفس العناصر التي يقوم عليها القصد الجنائي وهذه العناصر اثنان هما[29]: العلم والإرادة والمقصود بالعلم هو العلم الفعلي وبالتالي يغنى عنه امكان العلم ولا يحل محله العلم المفترض والعلم إذا انصرف إلى النتيجة الإجرامية يعبر عنه "بالتوقع" ولذلك فان القصد الاحتمالي يقتضى توقعا فعليا للنتيجة الإجرامية فإذا ثبت أن الجاني لم يتوقع حين أتى فعله هذه النتيجة ولكن كان في استطاعته ومن واجبه فلا محل للقصد الاحتمالي لانتفاء أحد عنصريه وهو العلم فاستطاعة توقع النتيجة الإجرامية ووجوب ذلك عنصران في الخطأ غير العمدى وهما غير كافيين لقيام القصد الجنائي. كذلك فانه إذا ثبت أن الجاني قد توقع النتيجة الإجرامية فعلا فهذا وحده لا يكفى لقيام القصد الاحتمالي وإنما يتعين أن تتوافر لديه الإرادة المتجهة إليها، مثال ذلك الطبيب حين يجرى عملية

جراحية لمريض اشتد عليه مرضه متوقعا وفاته ولكن آملا في نجاح الجراحة وشفاء المريض، لا يتوافر لديه القصد الاحتمالي إذا حدثت الوفاة ولو ثبت أنه أغفل بعض قواعد الحذر والاحتياط لأن أرادته لم تتجه إلى هذه النتيجة ولكن يسأل عنها بوصف الخطأ طالما أن سلوكه قد اتصف بالرعونة أو الإهمال أو عدم الاحتياط.

ثانيا: معيار القصد الجنائي

لا يكفي لتحديد مدلول القصد الاحتمالي توافر العلم والإرادة بل يجب أن نحدد نوع هذا العلم وصورة هذه الإرادة ويقتضي ذلك أن نفرق بين القصد الاحتمالي وبين القصد المباشر من ناحية وبين الخطأ غير العمدي من ناحية أخرى.

أ/ القصد الاحتمالي والقصد المباشر:

فكلما اتجهت إرادة الجاني إلى إحداث النتيجة التي ابتغاها من سلوكه كنا بصدد القصد المباشر وهو الصورة العادية للقصد الجنائي. ولكن قد يعرض للشخص قبل أو عند ممارسته للسلوك الإجرامي أن هناك نتيجة أخرى قد تحدث إلى جانب النتيجة التي ابتغى تحقيقها أصلا فيقبل حدوث هذه النتيجة الأخرى في سبيل تحقيق غرضه الأصلي فهنا يسمى القصد الجنائي قصدا غير مباشرا أو القصد الاحتمالي الذي يقوم على توقع " العلم " النتيجة وقبول حدوثها [30]، مثال ذلك ا الذي يريد قتل ب فيضع له مادة سامة في طعامه وهو يعلم أن ج يتناول الطعام مع ب وأنه قد يموت هو الآخر فلا يثنيه ذلك من أجل تحقيق غرضه الأصلي، أما إذا كان الجاني قد توقع النتيجة ولكنه لا يريد ولا يقبل وقوعها فان القصد الجنائي مباشرا كان أو احتماليا لا يتوافر لديه غير انه يسأل عنه بوصف الخطأ إذا شاب سلوكه إهمال كما لو قاد ا سيارة بسرعة تزيد عن السرعة المقررة أو المسموح بها قانونا وتوقع أنه قد يصيب أحد المارة غير أنه أعتمد على مهارته في القيادة لتلافى ذلك فإذا حدث وصدم شخصا فقتله فانه لا يسأل عن جريمة قتل عمد ولكنه يسأل عن قتل خطأ وهذه الصورة تعرف باسم " الخطأ مع التوقع " وقد يسأل عنها باعتبارها من النتائج التي تتجاوز القصد إذا كان القانون يعاقب عليها على هذا الأساس كمن يقصد ضرب شخص فيترتب عليه موته أو إصابته بعاهة مستديمة [31].

وبالتالي فان القصد الاحتمالي لا يتحقق به ركن العمد كما هو الشأن في القصد المباشر إلا إذا كان الجاني قد توقع النتيجة وقبل حدوثها وفى ذلك تقول محكمة النقض المصرية " إن الضابط العملي الذي يعرف به وجود القصد الاحتمالي أو ارتفاعه هو وضع السؤال التالي والإجابة عليه: هل كان الجاني عند ارتكاب الجريمة المقصودة بالذات مريدا تنفيذها ولو تعدى فعله غرضه على الأمر الإجرامي الآخر الذي وقع فعلا ولم يكن مقصودا له في الأصل أم لا؟ فإذا كان الجواب نعم فهناك يتحقق وجود القصد الاحتمالي إنما إن كان لا فهناك لا يكون في الأمر سوى خطأ يعاقب عليه أو لا بحسب توافر شروط جرائم الخطأ أو عدم توافرها.

ولذلك فحيث يكون اليقين ولا يدور في الذهن غير احتمال واحد يكون القصد مباشرا وحيث يحل الإمكان محل اليقين وتتعدد الاحتمالات في الذهن يكون القصد احتماليا.

وإذا لم يتوافر القصد الاحتمالي بهذه الصورة أي توقع النتيجة وقبولها فان الجاني لا يسأل عن النتيجة المحتملة لسلوكه إلا إذا كان هناك نص صريح في القانون يقرر مسألته عنها ومن قبيل ذلك مسئولية الشريك عن النتيجة المحتملة لمساهمته " المادة " 103" عقوبات ليبي. ومسئولية تسبيب القصر أو العجزة فانه يعاقب بالسجن مدة لا تزيد على خمس سنوات إذا ترتب عليه الموت " المادة " 387 " عقوبات ليبي.

ومسئولية سوء استعمال وسائل الإصلاح أو التربية فانه يعاقب بالسجن مدة لا تجاوز ثماني سنوات، إذا ترتب على ذلك الموت المادة " 397 " عقوبات ليبي. ففي تلك الحالات يعاقب الجاني سواء توقع النتيجة أم لم يتوقعها طالما كان من الجائز حصولها وفقا للمجرى العادي للأمور.

ب/ القصد الاحتمالي والخطأ غير العمدي:

إذا كان الخطأ غير العمدى غير مصحوب بالتوقع فلا يثير ذلك صعوبة التمييز بينه وبين القصد الاحتمالي فالأول يكون الجاني فيه غير متوقع للنتيجة الإجرامية ولم يحل دون حدوثها على الرغم أن ذلك كان في استطاعته ومن واجبه[32]، ولكن في حالة الخطأ مع التوقع أي كان وضع الجاني أنه توقع النتيجة الإجرامية ثم لم تتجه إليها إرادته معتمدا على احتياط غير كاف للحيلولة دونها فان صعوبة التمييز في تلك الحالة تثار بين هذا الخطأ المصحوب بالتوقع وبين القصد الاحتمالي إذ لا فارق بينهما من حيث توقع النتيجة الإجرامية أي من حيث " العلم "[33]، ومن ثم يتعين البحث عن ضابط التمييز في " الإرادة " وهذا التمييز ذو أهمية كبيرة فحيث يتوافر القصد الاحتمالي تكون المسئولية عمديه وحيث لا يتوافر سوى الخطأ مع التوقع تكون المسئولية غير عمديه وتحديد ضابط هذا التمييز محل للخلاف في الرأي وأرجح هذه النظريات والآراء هي نظرية القبول[34]، فالقصد الاحتمالي نوع من القصد الجنائي ويقضى المنطق أن تتوافر له عين العناصر التي يقوم عليها القصد الجنائي في فكرته العامة وعناصر القصد الجنائي هي: العلم والإرادة ويتوافر العلم للقصد الاحتمالي إذا توقع الجاني النتيجة كأثر ممكن لفعله كما تتوافر الإرادة للقصد الاحتمالي في قبول النتيجة الإجرامية أي الإرادة المتجهة إلى النتيجة وهذا ما اعترفت به نظرية القبول فمن أرتكب الفعل الإجرامي قاصدا تحقيق نتيجة بعينها ولكنه توقع إمكان حدوث نتيجة أخرى فقبلها فان القصد الجنائي يعد متوافرا لديه بالنسبة لكل منهما، مثال: ذلك من يشوه جسد آخر كي يعد لاحتراف التسول فيتوقع وفاته ثم يمضى في فعله راضيا بهذا الاحتمال فهنا يتوافر القصد الاحتمالي أما إذا توقع الوفاة ولكنه لم يقبلها ولم يردها وحدثت بالرغم من ذلك لأنه لم يتخذ كافة الاحتياطيات ففي تلك الحالة تكون بصدد جريمة

غير عمديه أي الخطأ مع التوقع فالفارق بينهما إذا هو قبول حدوث النتيجة أم لا ويمكن لنا تعريف القصد الاحتمالي من التحليل السابق بأنه توقع حدوث النتيجة الإجرامية كأثر ممكن للفعل ثم قبولها.

المبحث الرابع

المسئولية عن فعل الغير

يقتضي أن نحدد في إطار هذا المبحث النقاط التالية:

أولا: المسئولية عن فعل الغير في القانون المدني.

ثانيا: المسئولية الجنائية عن فعل الغير في قانون العقوبات.

ثالثا: المسئولية الجنائية عن فعل الغير في القوانين الخاصة.

رابعا: مبدأ شخصية المسئولية الجنائية والعوبة.

أولا: المسئولية عن فعل الغير في التقنين المدني

القاعدة أن الإنسان لا يسأل إلا عما يقع منه شخصيا من أفعال لضارة بالغير وهذه القاعدة مقررة في المادة 1382 من القانون المدني الفرنسي فالخطأ هو الأساس الذي ترتكز عليه المسئولية المدنية ويتكون من عنصرين أحدهما نفسي وهو التمييز أو الإدراك والآخر مادي يتمثل في الإخلال بواجب قانوني ولابد أن يكون الخطأ هو الأساس أي هو السبب المباشر في حدوث حالات المسئولية المدنية حيث نص القانون المدني الليبي على حالات المسئولية المدنية عن فعل الغير في المواد من 173: 175 حيث أقر مبدأ مسئولية الشخص عمن يخضعون لرقابته كمسئولية الأب أو الزوج أو الجد أو الوصي وكذلك أقر مسئولية المتبوع عن أفعال تابعه كمسئولية السيد أو المخدوم [35].

ثانيا: النصوص المقررة للمسئولية الجنائية

عن فعل الغير في قانون العقوبات بداهة هذه النصوص تقرر استثناءات من الأصل العام ولذلك لا يجوز التوسع فيها أو القياس عليها وهي[36].

1- المسئولية الجنائية عن جرائم النشر المادة 64، 65 "مع مراعاة مسئولية المؤلف وباستثناء حالات الاشتراك، إذا ارتكبت إحدى الجرائم عن طريق الصحافة عدم الإخلال بالمسئولية الجنائية بالنسبة لمؤلف الكتاب أو واضع الرسم أو غير ذلك من طرق التمثيل يعاقب رئيس التحرير بصفته فاعلا أصليا للجرائم التي ترتكب بواسطة صحيفته ومع ذلك يعفى من المسئولية الجنائية في الحالات التالية:

أ- إذا ثبت أن النشر حصل بدون علمه وقدم للتحقيق كل ما لديه من المعلومات والأوراق للمساعدة على معرفة المسئول عما نشر.

ب- أو أرشد في أثناء التحقيق عن مرتكب الجريمة وقدم كل ما لديه من المعلومات والأوراق لإثبات مسئوليته وأثبت فوق ذلك أنه لو لم يقم بالنشر لعرض نفسه لخسارة وظيفته في الجريدة أو لضرر جسيم آخر.

2- مسئولية متسلم الصغير إذا ارتكب هذا الأخير جريمة المادة151 ب مكرر عقوبات " اذا أمر بتسليم الصغير لوالديه أو غيرهم من الملزمين بتربيته أو العناية به وفقا للمادة 151 وأرتكب الصغير جريمة خلال سنة من تاريخ الأمر بالتسليم يحكم على من تسلمه بغرامة لا تزيد على الخمسين جنيها إذا كانت الجريمة الثانية جناية وغرامة لا تزيد على عشرين جنيها اذا كانت جنحة " هذه المادة تذكرنا بمسئولية المتبوع عن الضرر الذي يلحقه تابعه، متى كانت له سلطة فعلية في رقابته وفى توجيهه المقررة في القانون المدني "المادة 176، 177، 178، 179، 180، 181" وكذلك مسئولية المربى أو معلم الحرفة عن أعمال تلامذته، والتي تقوم على افتراض خطأ الراعي وافتراض السببية بين الخطأ وارتكاب المرعى الفعل غير المشروع الذي أحدث ضررا بالغير، إلا أن الراعي يملك دفع مسئوليته المفترضة بإثبات العكس.

ثالثا: النصوص المقررة للمسئولية الجنائية عن فعل الغير في القوانين الخاصة

بعد ان تمت الإشارة الى النصوص المقررة للمسؤولية الجنائية عن فعل الغير في قانون العقوبات أصبح من الضروري أن نستعرض النصوص المقررة للمسؤولية الجنائية عن فعل الغير في القوانين الخاصة، استكمالا لمتطلبات هذا المبحث ومن أهم هذه النصوص المادة " 11 " من قانون الأحداث المشردين والتي تنص على مسئولية الوالدان أو من له حق الولاية على الحدث المشرد إذا ما عاد إلى ارتكاب أي حالة من حالات التشرد المذكورة بالمادة الأولى من القانون المشار إليه أعلاه [37]، وكذلك المادة "15" من قانون الرقابة على الأسعار، والتي تنص على:

1- يكون صاحب المحل مسئولا مع القائم على إدارته عن كل ما يقع في المحل من مخالفات لأحكام القانون، ويعاقب بالعقوبات المقررة لها، فإذا ثبت أنه لم يكن في استطاعته منع وقوع المخالفة بسبب الغياب أو استحالة المراقبة اقتصرت العقوبة على الغرامة.

2- وإذا كان صاحب المحل شخصا معنويا كان مسئولا بالتضامن مع المحكوم عليه عن قيمة الغرامات والمصاريف القضائية " [38]، وكذلك المادة "18" من القانون رقم 93 لسنة 1976م بشان الأمن الصناعي والسلامة العمالية والتي نصت على الاتي: " يكون صاحب العمل مسئولا مع مدير المنشأة أو المسئولين عن إدارتها والمسئولين المختصين

عن الأمن الصناعي عن أية جريمة تقع بالمخالفة لأحكام هذا القانون ويعاقب بالعقوبات المقررة لها فإذا ثبت أنه لم يكن في استطاعته منع وقوع المخالفة بسبب الغياب أو استحالة المراقبة اقتصرت العقوبة على الغرامة وتكون المسؤولية بينهم تضامنية في أداء الغرامات والمصاريف القضائية التي يقضى بها " [39].

رابعا: مبدأ شخصية المسئولية الجنائية والعقوبة

نشأت العقوبة منذ أن وجد الانسان على وجه الأرض، ولازمته وسارت معه جنبا الى جنب عبر التاريخ. ومرجع ذلك أن العقوبة نوع من الدفاع الغريزي التلقائي عن النفس، وبقيام الدولة وبروز السلطة المركزية فيها تطور نظام العقوبة من القسوة البالغة الى الاعتدال، كما انها تميزت بعدة خصائص منها شخصية أي أنها لا توقع إلا على من تثبت مسؤوليته عن ارتكاب الجريمة أو المساهمة فيها. ولا يجوز أن تنال أحدا غير هؤلاء أيا كانت صلته بالجاني، ومن المسلم به في التشريعات الحديثة ان كل من المسؤولية الجنائية والعقوبة شخصية فهذان مبدآن جوهريان فلا ترفع الدعوى العمومية عن الجريمة ولا يسأ ل عنها ولا توقع العقوبة إلا على من ساهم فيها " فلا الإجرام يحتمل الاستنابة في المحاكمة ولا العقاب يحتمل الاستنابة في التنفيذ ".
ومقتضى القواعد العامة في المسئولية الجنائية أن يتوافر لدى من ساهم في سلوك المجرم إما القصد الجنائي أو الخطأ غير العمدي ويتعين بحسب الأصل أن يثبت توافر أيهما فعلا لدى الجاني ويقع على سلطة الاتهام عبء إثبات ذلك.

فقد نص على هذا المبدأ في سائر الوثائق الحقوقية الدولية منها والمحلية كما تم تضمينه في كافة الدساتير والتشريعات الجنائية. إلا ان الشريعة الاسلامية كان لها فضل السبق في النص عليه وذلك تطبيقا لقوله تعالى: " ولا تزر وازرة وزر أخرى "[40]. وكذلك في قوله تعالى: "ولا تكسب كل نفس إلا عليها "[41].

ورغم ذلك لا يمنع في أحوال كثيرة وعلى صعيد التنفيذ أن تلحق أثار العقوبة آخرين غير المحكوم عليه من اقاربه ودائنيه الذين قد يتضررون من إنزال العقوبة بذلك الشخص فيحرمون من رعايته وكذا من دخله، إلا ان هذه الآثار لا تخل بمبدأ شخصية العقوبة لأنها أثار ليست مقصودة كما أنها غير مباشرة.

وقد يخرج المشرع على هذا الأصل العام ولم يرد في قانون العقوبات المتضمن للأحكام العامة نص يشير إلى امكان الخروج على هذا الأصل [42].

خاتمة البحث

بينا فيما سبق الفروض المجرمة المنصوص عليها في قانون العقوبات والتي يستفاد منها المسئولية الموضوعية موضوع بحثنا هذا، ولقد استخلصنا النتائج التي أمكن استخلاصها والتي تتلخص اجمالا في الاتي التالية:

1- قيام المشرع الليبي بالاكتفاء في بعض الجرائم بعلاقة السببية المادية بين السلوك والنتيجة دون ان يشترط رابطة نفسية بين الجاني والواقعة المجرمة.

2- عدم قيام المشرع الليبي بإصدار نص صريح في مسؤولية الفاعل عن النتيجة المحتملة لمساهمته، رغم أنه نص صراحة على مسؤولية الشريك عن النتيجة المحتملة في المادة 103 من قانون العقوبات.

3- ضرورة اعتبار الرابطة النفسية التي تقوم بين الجاني والواقعة المرتكبة (المسؤولية الموضوعية) جزء لا يتجزأ من الركن المعنوي.

4- ضرورة الاهتمام بالقاضي ورفع كفاءته بالشكل الذي يجعله قادرا على استنباط الأحكام التي تحقق العدالة.

وبالله التوفيق

قائمة الهوامش

(1) د. أحمد عبدا لعزيز الألفي، شرح قانون العقوبات، القسم العام، الناشر مكتبة النصر، الزقازيق، 1989ف، ص371.

(2) د. سلوى بكير، شرح قانون العقوبات، القسم العام، 1988ف، ص332،331.

(3) ابو الفتوح محمد هشام، شرح قانون العقوبات في الأحكام العامة للجريمة والعقاب والمسؤولية الجنائية، دار الحرية للطباعة، بغداد، ص318،350.

(4) د. محمد سامي النبراوي، شرح الأحكام العامة لقانون العقوبات الليبي، منشورات جامعة قاريونس، مطابع الشرق، بيروت، لبنان، ص267.

(5) نفس المرجع السابق، ص650 وما يليها.

(6) د. أحمد عبدا لعزيز الألفي، شرح قانون العقوبات، القسم العام، ص469 وما بعدها، المرجع السابق.

(7) نفس المرجع، ص470.

(8) د. سلوى توفيق بكير، شرح قانون العقوبات، القسم العام، ص333، المرجع السابق.

(9) الفقهاء ومنهم الاستاذ الدكتور/ رمسيس بهنام والاستاذ الدكتور / أحمد فتحي سرور.

(10) د. أحمد عبدا لعزيز الألفي، شرح قانون العقوبات، القسم العام، ص651، 652، المرجع السابق، د. سلوى توفيق بكير، ص334،333، المرجع السابق.

(11) د. جلال ثروت، نظرية الجريمة المتعدية القصد في القانون المصري المقارن، الناشر مكتبة المعارف، الإسكندرية، ص414 وما يليها.

(12) د. أحمد عبدا لعزيز الألفي، المرجع السابق، ص471،470.

(13) نفس المرجع، ص273.

(14) نفس المرجع، ص277.

(15) د. سلوى توفيق بكير، شرح قانون العقوبات المصري، القسم العام، ص468 وما بعدها. ويلاحظ أن هذا الجدل لم يثر لا في الفقه ولا في القضاء المصري إذ أنهما متفقين على مساءلة الشريك عن النتيجة المحتملة التي ترتكب من قبل الفاعل زيادة على الجريمة المتفق عليها.

(16) د. سلوى توفيق بكير، شرح قانون العقوبات المصري، القسم العام، المرجع السابق، ص469 وما بعدها.

(17) د. محمد رمضان بارة، شرح القانون الجنائي الليبي، الأحكام العامة للجريمة، الطبعة الثالثة، عام 2000ف، ص438.

(18) د. محمد سامي النبراوي،شرح الأحكام العامة لقانون العقوبات الليبي،المرجع السابق، ص320.

(19) د. أحمد عبدا لعزيز الألفي، المرجع السابق، ص348، 349.

(20) د. محمد سامي النبراوي، المرجع السابق، ص307.

(21) د. سلوى توفيق بكير، المرجع السابق، ص474 وما بعدها.

(22) نفس المرجع، ص476.

(23) د. محمد سامي النبراوي،شرح الأحكام العامة لقانون العقوبات الليبي،المرجع السابق، ص307.

(24) د. أحمد عبدا لعزيز الألفي، شرح قانون العقوبات المصري، القسم العام، المرجع السابق، 349 وما بعدها، د. سلوى توفيق بكير، شرح قانون العقوبات المصري، القسم العام، المرجع السابق، ص483.

(25) د. محمد سامي النبراوي،شرح الأحكام العامة لقانون العقوبات الليبي،المرجع السابق، ص318.

(26) د. أحمد عبدا لعزيز الألفي، شرح قانون العقوبات المصري، القسم العام، المرجع السابق، ص349.

(27) د. محمد سامي النبراوي، شرح الأحكام العامة لقانون العقوبات الليبي، ص186، المرجع السابق، د. عبدا لعزيز عامر، شرح الأحكام العامة للجريمة في القانون الجنائي الليبي " دراسة مقارنة بالشريعة الإسلامية "، منشورات جامعة قار يونس، 1974ف، ص342، د. محمود نجيب حسنى، النظرية العامة للقصد الجنائي "دراسة تأصليه مقارنة للركن المعنوي في الجرائم العمدية " دار النهضة العربية، الطبعة الثالثة، القاهرة، 1988ف، ص207.

(28) د. عمر الشريف، درجات القصد الجنائي، دار النهضة العربية، الطبعة الأولى، القاهرة، 2002ف، ص296.

(29) د. إبراهيم عيد نايل، أثر العلم في تكوين القصد الجنائي، دار الهانئ للطباعة،

القاهرة، 1992ف، ص11 وما بعدها، د. عمر الشريف، درجات القصد الجنائي، المرجع السابق، ص34.

(30) د. عمر الشريف، درجات القصد الجنائي، المرجع السابق، ص326.

(31) د. أحمد عبدا لعزيز الألفي، المرجع السابق، ص467 وما بعدها.

(32) د. محمد سامي النبراوي، شرح الأحكام العامة لقانون العقوبات الليبي، المرجع السابق، ص196، د. محمود نجيب حسنى، النظرية العامة للقصد الجنائي، المرجع السابق، ص208.

(33) نفس المرجع، ص207.

(34) نفس المرجع، وفى ذات الصفحة.

(35) د. محمود عثمان الهمشري، المسئولية عن فعل الغير، ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، القاهرة، 1969ف، ص27.

(36) د. محمود عثمان الهمشري، المسئولية عن فعل الغير، المرجع السابق، ص200 وما بعدها.

(37) المادة الأولى من قانون الأحداث المشردين تنص على الاتي:" يعتبر الحدث ذكرا أو أنثى الذي لم يبلغ ثمانية عشرة سنة ميلادية كاملة مشرد في الحالات التالية:

ا/ إذا وجد متسولا في الطريق العام أو في المحال أو الأماكن العامة أو إذا دخل منزلا أو أحد ملحقاته بقصد التسول. ويعتبر من أعمال التسول القيام بألعاب بهلوانية أو تصنع الإصابة بجروح أو عاهات أو استعمال أية وسيلة من وسائل الغش لاكتساب عطف الجمهور.

ب/ إذا مارس جمع أعقاب السجاير أو غيرها من الفضلات أو المهملات.

ج/ إذا قام بأعمال تتصل بالدعارة أو الفسق أو فساد الأخلاق أو القمار أو قام بخدمة من يقومون بهذه الأعمال.

د/ إذا خالط المتشردين أو المشتبه في أمرهم أو الذين أشتهر عنهم سوء السيرة أو المشردين.

هـ/ إذا كان سيء السلوك ومارق من سلطة أبيه أو من له الولاية على نفسه.

و/ إذا لم يكن له محل إقامة مستقر أو كان يبيت في الطرقات.

ز/ إذا لم يكن له وسيلة مشروعة للتعيش ولا عائل مؤتمن وكان أبواه متوفين أو مسجونين أو غائبين ".

(38) منشور القانون بالجريدة الرسمية العدد 13 لسنة 1965ف، أنظر القانون رقم 13 لسنة 1989ف المنشور بالجريدة الرسمية العدد 18 السنة السابعة والعشرين بتاريخ: 1989/9/18ف.

(39) القوانين واللوائح والقرارات ذات العلاقة بالوظيفة العامة والموظف، المؤتمر الشعبي المهني العام للموظفين، مطابع أنتر غراف، ايطاليا، ج4، ص368.

(40) سورة فاطر، الآية 18.

(41) سورة الأنعام، الآية 164.

(42) د. أحمد عبدا لعزيز الألفي، شرح قانون العقوبات المصري، القسم العام، المرجع السابق، ص490.

قائمة المراجع

1-د. محمود عثمان الهمشري، المسئولية عن فعل الغير، ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، القاهرة، 1969ف.

2-د. أحمد عبدا لعزيز الألفي، شرح قانون العقوبات المصري، القسم العام، الناشر مكتبة النصر بالزقازيق، 1989ف.

3-د. محمد رمضان بارة، شرح القانون الجنائي الليبي، الأحكام العامة،الطبعة الثالثة، عام 2000ف.

4-د. محمد سامي النبراوي، شرح الأحكام العامة للجريمة، لقانون العقوبات الليبي، منشورات جامعة بنغازي، مطابع الشرق، بيروت.

5-د. محمد رمضان بارة، شرح قانون العقوبات الليبي، القسم الخاص، جرائم الاعتداء على الأشخاص، منشورات جامعة ناصر، مطابع عصر الجماهير، الطبعة الثانية، الخمس، ليبيا، 1992ف.

6-د. فائزة يونس الباشا، شرح القانون الجنائي الخاص الليبي، جرائم الاعتداء على الأشخاص، دار النهضة العربية، القاهرة، 2002ف.

7-د. محمود نجيب حسنى، النظرية العامة للقصد الجنائي " دراسة تأصيلية مقارنة للركن المعنوي في الجرائم العمدية "، دار النهضة العربية، الطبعة الثالثة، القاهرة، 1988ف.

8-د. حسن صادق المرصفاوى، المرصفاوى، قانون العقوبات تشريعا وقضاء في مائة عام، الناشر منشأة المعارف، الطبعة الثانية، الإسكندرية، 1994ف.

9-د. سلوى بكير، شرح قانون العقوبات المصري، القسم العام، 1988ف.

10- د. جلال ثروت، نظرية الجريمة المتعدية القصد في القانون المصري والمقارن، الناشر، منشأة المعارف، الإسكندرية.

11- د. إبراهيم عيد نايل، أثر العلم في تكوين القصد الجنائي، دار الهانئ للطباعة، القاهرة، 1992ف.

12- د. عمر الشريف ن درجات القصد الجنائي، دارا لنهضة العربية، الطبعة الأولى، القاهرة، 2002ف.

13- مجموعة التشريعات الجنائية، إعداد الإدارة العامة للقانون، مطبعة الهيئة العامة لشئون القضاء، 1986ف.

14- الجريدة الرسمية.

[24] Eugène Fromentin, Correspondance et fragments inédits, Editions Plon, Paris, 1912, p.232.

[25] Eugène Fromentin, Voyage en Egypte, Editions Ombres, Toulouse, 1998, p.15.

[26] Eugène Fromentin, Voyage en Egypte, Editions Ombres, Toulouse, 1998, p.15-16.

Notes

[1] Boussif Ouasti, L'image du pays des pharaons dans les récits de voyages égyptiens, Thèse de Doctorat d'Etat, T1, Fès, Maroc, 1991, p.179.

[2] Jean Gaulmier, «Introduction» dans Voyage en Egypte et en Syrie, Mouton et Co, Laheye, Paris, 1959, p.13.

[3] Boussif Ouasti, L'image du pays des pharaons dans les récits de voyages égyptiens, Thèse de Doctorat d'Etat, T1, Fès, Maroc, 1991. p.189-190.

[4] Volney Constantin-François, Voyage en Egypte et en Syrie, Librairie Parmentier et librairie Froment, T1, 1825, p. 2-4.

[5] Volney Constantin-François, Voyage en Egypte et en Syrie, Librairie Parmentier et librairie Froment, T1, 1825, p. 5-6.

[6] Mohamed Lehdahda, La conception de l'histoire selon Volney, Thèse de Doctorat, Tours, 1994, p.70.

[7] Denise Brahimi, Arabes des Lumières et Bédouins romantiques, Le Sycomore, Paris, 1982, p.82-83.

[8] Potocki Jean, Voyage en Turquie et en Egypte, Librairie Fayard, Paris, 1980, p.84.

[9] Potocki Jean, Voyage en Turquie et en Egypte, Librairie Fayard, Paris, 1980, p.83.

[10] François de Chateaubriand, Itinéraire de Paris à Jérusalem, Flammarion, Paris, 1968, p.374.

[11] François de Chateaubriand, Itinéraire de Paris à Jérusalem, Flammarion, Paris, 1968, p.373.

[12] François de Chateaubriand, Itinéraire de Paris à Jérusalem, Flammarion, Paris, 1968, p.389-390.

[13] François de Chateaubriand, Itinéraire de Paris à Jérusalem, Flammarion, Paris, 1968, p.375.

[14] Philipe Antoine, «Les voyages de Chateaubriand en Orient» Magazine littéraire, N366, juin 1998, p.43.

[15] Boussif Ouasti, L'image du pays des pharaons dans les récits de voyages égyptiens, Thèse de Doctorat d'Etat, T1, Fès, Maroc, 1991, p.283

[16] François de Chateaubriand, Itinéraire de Paris à Jérusalem, Flammarion, Paris, 1968, p.373.

[17] Pierre Moiny, Fromentin l'écrivain et le peintre, Bibliothèque municipale «Collection Éric Dahl», La Rochelle, 1970, p.5.

[18] Eugène Fromentin, Lettres de jeunesse, Edition Plon, Paris, 1909, p.91.

[19] Pierre Moiny, Fromentin l'écrivain et le peintre, Bibliothèque municipale «Collection Éric Dahl», La Rochelle, 1970, p.5.

[20] Eugène Fromentin, Correspondance et fragments inédits, Editions Plon, Paris, 1912, p.75.

[21] Eugène Fromentin, Un été dans le Sahara, (Préface), Le Sycomore, Paris, 1981, p.60.

[22] Eugène Fromentin, Un été dans le Sahara, (Préface), Le Sycomore, Paris, 1981, p.60.

[23] Eugène Fromentin, Correspondance et fragments inédits, Editions Plon, Paris, 1912, p.228.

part dans ses écrits à partir des réalités vécues, celles qu'il a sous yeux. Pour lui l'Orient est porteur de fraîcheur, de nouveautés, l'Egypte parait à cette époque, comme un lieu magique où les inspirations artistiques sont les plus enrichissantes et les plus salvatrices.

Notre troisième voyageur, Chateaubriand, fait partie des voyageurs pressés. Il avait ouvert la voie royale aux artistes romantiques. On peut observer que Chateaubriand a préféré peindre ce qu'il voit à travers le prisme de sa propre personnalité. Une des méthodes descriptives de Chateaubriand reste l'observation à distance. Il est bien évidant que la tristesse de la ville d'Alexandrie affecte notre voyageur lequel semble très sensible au contraste qui s'offre à son regard désolé: l'agitation de la mer et le silence navrant des constructions. La grandeur du lieu au temps des Croisades où les Chrétiens, selon lui, s'étaient illustrés. Aussi les bienfaits de la civilisation française sont-ils évoqués avec fierté.

Chateaubriand dénonce, en effet, la tyrannie orientale comme une arme d'assassin qui finit par tuer la civilisation et fait triomphé la barbarie. En effet, la ville et le peuple paraissent au voyageur comme un monde médusé. Une condition de soumission qui condamne les habitants à un silence accablant.

Le dernier voyageur de notre corpus était Fromentin qui avait deux instruments expressifs, le pinceau et la plume, pour lui, les deux sont complémentaires. On remarque que la ville dans son analyse est saisie à travers de couleurs éclatantes. Le voyageur a imaginé la ville comme un lieu où il y a une existence massive de couleurs. Contrairement à ses précédents, Fromentin ne cherche pas à définir le présent d'Alexandrie en fonction d'un passé glorieux, mais à en rendre les atmosphères colorées et naturelles. Le voyageur a manifesté néanmoins son regret de ne pas pouvoir faire des tableaux de peintures, puisque l'écriture reste pour lui, un moyen de compensation qui ne traduit complètement ce que sa nature et sa formation lui dictent face à un paysage, une situation, en somme un contexte.

En somme, les quatre voyageurs-écrivains sont partis à l'Alexandrie pour des raisons variantes, nous donnent des récits qui reflètent des visions différentes, influencés par des événements historiques de cette ville égyptienne et la tyrannie orientale jugée comme une sérieuse menace pour la région.

voyageur: «Entrée dans le port. C'est très beau de mouvement, de vie, de couleur, d'éclat de lumière…»[25]

Fromentin évoque son entrée dans la ville orientale et semble séduit pour le cadre qu'elle lui tend pour son imagination débordante. Il l'aborde non pas comme un historien qui serait tenté d'énumérer les civilisations qui se sont succédé et qui ont contribué à enrichir ses cultures, mais comme un artiste dont la passion incontestable reste la peinture. Fromentin laisse volontiers les autres aspects que pourrait faire naître cette ville, à d'autres voyageurs. Ceci n'empêche pas l'auteur de *Voyage en Egypte* de raconter ce fait divers dans un lieu si commun, le souk:

«Dispute au marché aux fruits. Une femme, vraie lionne en colère: rien de plus fauve, de plus rauque, de plus terrible (…) Sa compagne, longue, mince, muette, coiffée de noir, et le crâne tout enveloppé de chaînettes d'argent qui moulaient sa jolie tête: était-elle jolie? Un geste de son bras nu, orné d'argent et de sa main à paume orangée…»[26]

En effet, il est aisé de remarquer que la principale préoccupation de Fromentin est la restitution des couleurs et des contrastes qui semblent attirer son regard d'artiste peintre. Il ne peut éluder sa vocation originelle même quand il utilise l'écriture. Celle-ci cache difficilement le domaine de la peinture où notre voyageur entretien ses vraies ressources. Par conséquent, l'Alexandrie est perçue par un peintre qui connaît aussi les secrets de l'écriture et de son apport scientifique à l'expression en général.

Fromentin manifeste, néanmoins, son regret de ne pas pouvoir faire des tableaux de peinture; puisque l'écriture reste pour lui un moyen de compensation qui ne traduit complètement ce que sa nature et sa formation lui dictent face à un paysage, une situation, en somme un contexte.

Conscient des libertés artistiques qu'offrent différemment l'écriture et la peinture, Fromentin tenta de les marier et d'en provoquer une fécondation originale. Il est vrai que cette ville pouvait favoriser un tel désir. Cependant, les apories relatives aux deux arts laissent toujours un écrivain-peintre comme Fromentin insatisfait et inévitablement frustré.

Conclusion:

Ce modeste travail nous a montré que la description de cette ville égyptienne "Alexandrie" a lié d'une façon ou autre à des raisons spécifiques de chaque voyageur-écrivain, par exemple, la méthode descriptive volnéenne sert toujours à opposer le présent néfaste à son passé glorieux. Ce voyageur voudrait nous dire que l'esprit turcs constitue une sérieuse menace qui compromet l'avenir du pays en général et d'Alexandrie plus particulièrement. On remarque aussi que Volney pour donner une autorité à son analyse, prend en compte l'Histoire. Le deuxième voyageur de notre corpus, Jean Potocki,

Dans ce passage, on imagine la colère justifiée d'un artiste incapable de s'exprimer et de donner corps à ce qu'il ressent, à ce qu'il voit. On voit bien que la peinture reste la véritable passion de Fromentin. En effet, ce dernier n'a recours à l'écriture qu'accessoirement. Le manque de moment favorable à l'expression picturale met Fromentin en colère. Son humeur est communiquée à sa femme en ces termes:

«Chère bien-aimée, nous voici à Thèbes, mouillés jusqu'aux pieds même des Temples de Louxor. Nous y passons la journée du 30 et celle du 31; c'est, tu le sais le point culminant de notre voyage. Les débris historiques y sont immenses répandus sur les deux rives du fleuve, nous aurons donc tout juste le temps de les visiter. Les distances son longues, la chaleur est très forte(…) Je te l'ai dit au départ, si je pouvais en rapporter quoi que ce soit d'utile. Mais pas un de nous jusqu'à présent, pu faire un croquis. Il faut dorénavant en faire un deuil.»[24]

Il est vrai que la peinture demeure une priorité chez Fromentin. Mais n'oublions pas que c'est l'écriture qui nous révèle son état d'esprit au moment où un croquis ou une aquarelle fait défaut. On serait tenté de dire que l'écriture de Fromentin se superpose à une peinture sous-jacente. Cette écriture impressionniste qui voile à peine le fond pictural. C'est une écriture que traverse comme une lame de fond une série d'images qui la sous-tendent et consolident son assise. Par conséquent, le recours à l'écrit demeure un moyen compensatoire où la force des mots est nourrie par les couches picturales qui la couvrent et la fortifient.

En ce qui concerne le voyage de Fromentin à Alexandrie, la ville est saisie à travers de couleurs éclatantes. C'est l'une des constantes des tableaux descriptifs relatifs à la ville visitée. La richesse de ses tableaux littéraires et le flamboiement des couleurs prouvent que la peinture ne peut pas tout rendre malgré la diversité de ses possibilités. Fromentin imagine la ville comme un lieu où il y a une existence massive de couleurs et de nuances, des tableaux qui font penser automatiquement à un travail de peintre.

Contrairement à Volney, Fromentin ne cherche pas à définir le présent d'Alexandrie en fonction d'un passé glorieux, mais à en rendre les atmosphères colorées et naturelles. Cette dernière est silencieuse, observée par un narrateur unique qui saisit l'instant tel qu'il le voit et tel qu'il le vit.

Cet écrivain-peintre se rend en Egypte à l'occasion de l'ouverture du Canal de Suez. A l'instar de Chateaubriand, Fromentin fait un voyage éclair. Il consigne ce qu'il voit, ce qu'il ressent dans un carnet de voyage. Les datations et les précisions de temps donnent à ses écrits un caractère documentaire. Le premier contact avec Alexandrie enthousiasme le

l'outil de communication qu'il pourrait utiliser pour transmettre ce qu'il voit, ce qu'il vit. Le choix se révèle délicat entre le pinceau et sa plume. La peinture lui semble, de prime abord, la plus indiquée. Mais, celle-ci sait-elle rendre fidèlement toutes les réalités foisonnantes qui s'imposent à son regard?

«Tout cela ne peut passer dans ma peinture, je serai heureux, très heureux d'en tirer, par un double moyen tout le parti possible.»[20]

Il est convaincu que l'écriture reste indispensable à la réalisation d'un tel vœu. L'alliance de la plume et du pinceau est primordiale même si formellement le mariage est problématique. Fromentin ne peut nier que chaque art à ses propres règles et comprend ses propres limites esthétiques.

«Il est hors de doute, avouait-il, que la plastique a ses lois, ses limites, ses conditions d'existence, ce qu'on appelle en un mot son domaine. J'apercevais d'aussi fortes raisons pour que la littérature réservât et préservât le sien, une idée peut à la fois s'exprimer de deux manières pourvu qu'elle se prête ou qu'on l'adopte à ces deux manières. Mais sa forme choisie, et j'entends sa forme littéraire, je ne voyais pas qu'elle exigeât ni mieux, ni plus que ne comporte le langage écrit. Il y a des formes pour l'esprit comme il y a des formes pour les yeux.»[21]

Ce passage confirme la volonté artistique de Fromentin. Ce dernier préfère l'utilisation alternée de deux moyens d'expression. Cette technique permet au voyageur de profiter des potentialités des deux arts. Les deux moyens sont complémentaires. Aucun usage n'est exclusif. Les deux instruments sont aussi différents que valable pour nourrir le même projet. Fromentin confirme que «La langue qui parle aux yeux n'est pas celle qui parle à l'esprit. Et le livre est là, non pas pour répéter l'œuvre de la peinture, mais pour exprimer ce qu'elle ne dit pas.»[22]

En vérité le moyen utilisé, qu'il soit scriptural ou pictural dépend à la fois de la situation dans laquelle se trouve l'artiste et de l'objet décrit. L'efficacité de ces moyens reste alors une question d'adéquation. Et bien que Fromentin penche parfois pour l'écriture et l'art verbal, la peinture lui semble parfois plus adaptée à ce qu'il veut transmettre. Voici ce qu'il nous confie au sujet de ses déplacements en pays exotiques:

«En somme, le voyage que nous faisons est stupide, et peut-être un jour, quand il me sera démontré qu'il ne m'en reste rien, regretterai-je amèrement de l'avoir fait pour si peu de profit, ou l'ayant fait, de ne l'avoir pas prolongé. Pas un croquis, pas une note d'aquarelle. Quand ce n'est pas une voiture qui nous emporte, c'est un baudet qui galope entre nos jambes; maintenant c'est un bateau qui tremble sous nos pieds et rend matériellement impossible la tenue d'un crayon…»[23]

Ici le pouvoir maléfique du despotisme opère comme un narcotique. Il ne connaît pas de limite et semble plonger le peuple d'Alexandrie dans une sorte de léthargie durable.
En effet, la ville et le peuple paraissent au voyageur comme un monde médusé. Une condition de soumission qui condamne les habitants à un silence accablant. Telle est l'image de la ville d'Alexandrie offerte au regard de Chateaubriand. Ce dernier ne cesse d'évoquer les souvenirs du passé pour mieux mesurer l'étendue du désastre qui lui est soumise lors de son voyage.
Un autre voyageur, chercheur de lumières et d'images quitte son pays natal pour s'aventurer dans les terres du Sud où il compte découvrir et capter des espaces inédits.

D) L'Alexandrie une ville en couleurs:

Lorsqu'on veut s'informer sur la vie de Fromentin, on découvre que l'homme avait deux dons et qu'il n'était pas un peintre ou un écrivain de hasard. En effet, il a toujours mené de front, et durant toute une vie, une double carrière littéraire et picturale. Pierre Moiny écrit à ce sujet:
«Dès son enfance, (Fromentin), crayonne sur ses cahiers d'écolier et ailleurs, mais il écrit beaucoup, en vers naturellement, suivant un penchant éternel que la jeunesse actuelle, si curieux que cela puisse paraître, n'a pas encore totalement abandonné.»[17]
En 1843, Fromentin obtient l'autorisation de sa famille d'abandonner les études de Droit pour se consacrer à la peinture. Cela ne l'empêcha pas de continuer à écrire notamment dans la Revue Organique du Département de l'Ouest, en 1845. Il ne faut pas oublier que l'écrivain-peintre était tenté par la poésie. Ses lettres de jeunesse le confirment. Malheureusement, Fromentin détruisit plus de six-mille vers composés entre 1835 et 1843. Le témoignage de son ami Bataillard reste à ce sujet très significatif et donne au geste du poète une raison assez personnelle:
«Comme des choses fausses ou puériles dans le froid, prétentieuses dans la forme, où il aurait craint de retrouver une image ridicule de lui-même.»[18]
En 1845, après avoir proclamé «je suis peintre, je le crois, je le sens, on me l'affirme»[19], il part pour l'Algérie. C'est une aventure fortuite en compagnie d'un autre peintre, Charles Labbé. Ce déplacement alimente une inspiration que des sujets locaux accentueront jusqu'à la mort du voyageur. Cela donne naissance à deux livres: *Un été dans le Sahara* écrit en 1857, et *Une année dans le Sahel* publié deux ans plus tard.
Ces deux livres font connaître Fromentin et assoient sa notoriété dans le monde littéraire. L'auteur rencontre un peuple, découvre une culture et des coutumes qui sont diamétralement opposées à ce qu'il a connu en France, sa terre natale. D'emblée un problème se pose à Fromentin qui s'interroge sur

voyais les restes d'une civilisation nouvelle apportée par le génie de France sur les bords du Nil.»[13]

Pour la première fois la description du Delta et de sa nature riante et inspiratrice de bonheur se trouve paradoxalement liée à un sentiment de regret. Chateaubriand regrette en effet, l'absence d'une autonomie réelle de l'Egypte et d'une présence plus importante de la civilisation française.

Philippe Antoine affirme que Chateaubriand poursuivait deux projets à la fois. Ce voyageur romantique fait la critique de la tyrannie orientale en digne héritier des Lumières; mais aussi livre ses sentiments comme un nouveau Croisé:

«En héritier du XVIIIème siècle, Chateaubriand s'inscrit dans le droit fil de la dénonciation du despotisme oriental. Comme chrétien, il passe nouveau croisé(…) Le voyageur est constamment contrarié dans sa quête par les Turcs dont le despotisme a rendu silencieuse une civilisation disparue.»[14]

Chateaubriand dénonce en effet, la tyrannie orientale comme une arme d'assassin qui finit par tuer la civilisation et fait triomphé la barbarie. Ce sentiment hostile ne manque pas d'embarrasser notre voyageur et lui causer des problèmes avec le gouvernement impérial. Boussif Ouasti souligne qu'à la suite de la publication des deux articles dans *Le Mercure de France* dans lesquels le despotisme turc est violemment critiqué, le Gouvernement impérial interdit la publication du journal en lequel il voit une menace par sa stabilité. Notons au passage que la presse en France était sous haute surveillance et que tous les écrits polémiques et par trop politiques étaient sévèrement rejetés. Boussif Ouasti ajoute que:

«Dès le retour du voyageur du Levant, Chateaubriand y rappelle la tradition chrétienne et chevaleresque de la France et y dénonce avec véhémence le despotisme du gouvernement militaire ottoman(…) Aussitôt le gouvernement de Napoléon supprime la revue, et Chateaubriand se retire dans la Vallée-aux-loups.»[15]

La dénonciation du despotisme des Ottomans est en même temps une dénonciation de tout type de tyrannie. Le lieu importe peu puisque les ravages et les désordres que suscite un tel gouvernement sont partout identiques en horreur.

Transformer le mouvement et la vie en silence et en immobilité comme l'enseigne la comparaison du passé et du présent.

«C'était là pourtant cette Alexandrie, rivale de Memphis et de Thèbes, qui compta trois millions d'habitants(…) qu'elle faisait retenir dans les ténèbres. Mais en vain, je prêtais l'oreille, un talisman fatal plongeait dans le silence le peuple de la nouvelle Alexandrie: ce talisman c'est le despotisme qui éteint toute joie, et qui ne permet pas même un cri à la douleur.»[16]

méditation et construire sa réflexion. Son voyage au bout du monde ressemble davantage à un voyage *au bout de soi* comme le dira un siècle plus tard Victor Ségalen; une tentative de découverte de soi par les contacts avec les êtres et les choses.

«Je ne voulus point descendre à terre, et j'attendis le jour sur le pont de notre Saïque. J'eus tout le temps de me livrer à mes réflexions. J'entrevoyais à ma droite des vaisseaux et le château qui remplace la tour de phare; à ma gauche l'horizon semblait barré par les collines, des ruines et des obélisques que je distinguais à peine à travers des ombres…»[11]

La position éloignée du voyageur, surtout la nuit, ne lui permet pas de repérer facilement les éléments de la ville. Mais, cela ne le gêne pas. Au contraire, il semble préférer décrire ce qu'il voit à travers un filtre et des ombres aux contours flou et qui autorisent les débordements de l'imagination. Quand Chateaubriand n'arrive pas à distinguer les monuments, cela ne le frustre pas. Il y trouve un certain plaisir esthétique. Ce plaisir est vite rompu car Chateaubriand marque sa désolation quand il observe le délabrement des édifices et les ruines des monuments laissés à l'abandon. Il pense, à l'instar de Volney, que l'indifférence des Turcs demeure condamnable. Alexandrie lui paraît comme une ville délaissée:

«Si j'avais été enchanté par l'Egypte, nous confie-t-il, Alexandrie me semble le lieu le plus triste et le plus désolé de la terre. Du haut de la terrasse de la maison du Consul, je n'aperçus qu'une mer nue qui se brisait sur des côtes basques encore plus nues, des ports presque vides et le désert libyque s'enfonçant à l'horizon du midi(…) On aurait cru voir une mer dont une moitié était agité et bruyante et dont l'autre moitié était immobile et silencieuse.»[12]

La tristesse de la ville d'Alexandrie affecte notre voyageur lequel semble très sensible au contraste qui s'offre à son regard désolé: l'agitation de la mer et le silence navrant des constructions. Cette désolation est d'autant plus choquante que le désert libyen fut dans un temps passé un espace célèbre et riche d'échanges et de commerces. La nostalgie gagne le voyageur et celui-ci commence à se rappeler avec une tendresse qu'accentue la désolation du présent, la grandeur du lieu au temps des Croisades où les Chrétiens, selon lui, s'étaient illustrés. Aussi les bienfaits de la civilisation française sont-ils évoqués avec fierté:

«Nous partîmes le soir d'Alexandrie et nous arrivâmes dans la nuit au Bogaz de Rosette(…) Le Nil était dans toute sa beauté; il coulait à plein bord, sans couvrir ses rives; il laissait voir le long de son cours, des plaines verdoyantes de riz(…) Ce fut alors que j'eus une première vue de ce magnifique Delta où il ne manque plus qu'un gouvernement libre et un peuple heureux(…) Je

de fraîcheur, de nouveautés et de découvertes. L'Orient et plus particulièrement l'Egypte paraît à cette époque comme un lieu magique où les inspirations artistiques sont les plus enrichissantes et les plus salvatrices.

C) L'Alexandrie une ville délaissé:

Bien avant tous ces voyageurs aux desseins divers, un illustre auteur romantique avait fait les mêmes déplacements et celui-là fut Chateaubriand. En effet, son *Itinéraire de Paris à Jérusalem* est considéré l'une des œuvres les plus importantes. Le voyage de l'auteur d'*Atala* et de *René* avait fait des périples qui étaient au fond des recherches introspectives. Toute l'œuvre relative aux voyages de Chateaubriand est marquée du sceau de la subjectivité et de la peinture de soi. Ce précurseur incontestable avait voyagé en Orient en 1806, mais ce voyage n'avait duré qu'une année dont un mois en Egypte.

Chateaubriand fait partie de ces voyageurs pressés, même s'il avait ouvert la voie royale aux artistes romantiques. Et, contrairement à Volney, homme de science et de rigueur scripturale, Chateaubriand, privilégie la fiction et l'envolée lyrique. En effet, l'un et l'autre sont subjugués par la même matière. Mais, ils l'abordent de manières différentes.

En ce qui concerne la description, Chateaubriand à l'instar de Potocki paraît embarrassé. Il pense qu'il ne pourrait révéler de nouvelles choses, ni faire œuvre originale. Voilà pourquoi Chateaubriand préfère peindre ce qu'il voit à travers le prisme de sa propre personnalité. Il privilégie le recours aux dates consignés dans son journal et donne quelques consignes concises mais percutantes sur les lieux visités:

«On n'attend point sans doute à me voir décrire l'Egypte: j'ai parlé avec quelque étendue des ruines d'Athènes (…) Mais que dirais-je de l'Egypte? Qui ne l'a point vue aujourd'hui? Le voyage de M. Volney est un véritable chef-d'œuvre (…) Je me bornerai donc à suivre, sans m'arrêter, les simples dates de mon journal.»[10]

Tout comme Potocki, Chateaubriand rejette d'emblée toute description de l'Egypte. Il préfère renvoyer ses lecteurs aux ouvrages des voyageurs qui l'avaient précédé en Egypte comme Volney, Shaw, Niebhur…etc. Le voyage en Orient de Chateaubriand s'apparente à un pèlerinage dont la destination est Jérusalem. L'Egypte n'était donc pas un lieu de visite principal dont le projet qu'il avait fait. Cependant l'Egypte demeure une escale inévitable.

Une des méthodes descriptive de Chateaubriand reste l'observation à distance. Les raison de cette démarche ne sont pas uniquement d'ordre esthétique, elles répondent aussi à un besoin de contemplation nourrie de réflexions profondes. En effet, quand Chateaubriand débarque à Alexandrie, il éprouve le besoin de rester loin de la ville pour mieux entretenir sa

Un autre aspect qui révèle le voyage réside dans la prise en compte de l'histoire. Celle-ci sert d'instrument de mesure et de référence pour l'établissement de jugements objectifs et justifiés. En effet, pour Volney, le passé de cette ville égyptienne contraste considérablement avec son présent. Cette remarque qui trouve sa source dans l'histoire permet de comprendre les réalités actuelles du pays visité. Alexandrie représente à cet égard *la ville-témoin* qui confirme les gloires passées et les déboires d'un présent où l'horizon semble bouché.

Volney est un digne héritier des Lumières qui participe à sa manière au réveil des consciences en stigmatisant la tyrannie là où elle s'exerce et en montrant les défauts d'une civilisation orientale engluée dans le désordre et la décadence.

B) Jean Potocki et la réalité vécue:

Un autre voyageur séduit par l'Orient se rend en Egypte et plus exactement à Alexandrie. En effet, Potocki quitte l'Europe au moment où l'objet de sa destination connaît les ravages de la peste. Il rédige son récit de voyage sous formes de lettres aux dates précises. D'emblée, Potocki rejette toute description et déclare que ses écrits n'ajouteront rien à ceux des voyageurs qui l'ont précédé: «Je ne vous parle ni de la colonne de Pompée, ni de l'aiguille de Cléopâtre, ni des catacombes ni de toutes les autres antiquités d'Alexandrie dont tous les voyageurs ont déjà parlé…»[8]

Dans ce passage, Potocki affirme qu'il ne veut pas s'encombrer de description relative à la ville visitée. Selon lui, cette entreprise serait inutile et stérile. Potocki part dans ses écrits des réalités vécues, celle qu'il a sous les yeux. Mais, il ne se sert pas de ce qu'il regarde pour le comparer à la réalité du passé. Il se contente de marquer les dates des récits de son voyage. On se demande si les affres causées par la peste n'obligent pas Potocki à faire preuve de retenue et orienter ses écrits dans le sens d'une description limitée dans le temps et l'espace. Par conséquent, l'investigation de Potocki reste le fruit d'une recherche partielle parcellaire qui ne s'apparente pas à celle pratiquée par Volney par exemple. Ceci n'enlève rien au caractère documentaire des écrits de Potocki ni aux saisies politique, économiques, et sociale qui se sont révélées très intéressantes.

Cependant, son voyage demeure un déplacement de confort qu'on attribue généralement aux hautes personnalités:

«J'ai quitté le vaisseau au bruit du canon qu'on tirait pour me faire honneur et qui m'a rompu la tête au point de me faire évanouir.»[9]

En effet, Potocki fait partie de ses nombreux artistes avides de nouvelles sensations et d'horizons prometteurs au moment où les sources nourricières de la vieille Europe semblent s'épuiser. Tout voyage pour l'Orient est porteur

«Dans son état moderne, Alexandrie est l'entrepôt d'un commerce assez considérable (…) où des facteurs traitent de nos marchandises par échange (…) le port vieux, où l'on jette depuis deux-cent ans les lests des bâtiments. L'esprit turc est de ruiner les travaux du passé et l'espoir de l'avenir; parce que dans la barbarie d'un despotisme ignorant, il n'y a point de lendemain.»[5]
Dans ce passage, le voyageur met l'accent sur la position géographique de la ville comme lieu de liaison commerciale entre l'Europe et l'Orient. L'importance des marchandises et des échanges était capitale. Volney nous informe que l'esprit turc constitue une sérieuse menace qui compromet l'avenir du pays en général et d'Alexandrie plus particulièrement. L'auteur n'oublie pas de souligner la responsabilité des Ottomans dans l'état actuel de l'Egypte. La description relative à la ville, objet d'étude et de réflexion; révèle le rapport insidieux qu'entretient le politique avec tous les autres domaines culturels liés à la cité. Volney promène son regard comme un objectif qui laisserait l'objet regardé parler et se révéler de lui-même. La recherche de la vérité oblige l'observateur scientifique à s'effacer devant les paysages. Ces derniers s'offrent au regard aiguisé du voyageur avec leurs fonds et leurs secrets sans méditation à déviation impressionnistes. Cette *retenue* est nécessaire pour Volney car selon lui, les choses regardées ne devraient jamais être déformées par l'observateur. Mohamed Lehdahda souligne que la méthode volnéenne est fondée sur une pratique personnelle.
«Pour Volney la connaissance de la vérité est liée à la pratique personnelle de la réalité. Cette conception accorde une place importante à la perception et plus exactement à la vue comme le seul moyen par lequel s'opère la connaissance exacte des faits.»[6]
Volney s'attaque au réel en mobilisant les disciplines et les savoirs les plus variés: politique, géographie, médecine…etc. En effet, ce qui l'intéresse, prioritairement, ce sont les informations scientifiques et non les impressions esthétiques. Pendant le voyage, Volney s'évertue à mettre la subjectivité et les impressions intimes en marge de ses observations objectives. Cette même objectivité écarte; au nom d'une rigoureuse méthode de travail et un objectif prédéterminé, toute considération littéraire. Denise Brahimi affirme que le voyageur se fixe un but bien précis et se prépare à tous les sacrifices pour l'atteindre et satisfaire sa curiosité scientifique:
«Volney ne semble pas concevoir que le voyageur puisse avoir un rapport personnel et intime au paysage, et en faire l'objet de description qui dépasse largement le souci d'apporter une information scientifique. Ses tentatives pour y trouver un soutien dans l'écriture littéraire ne sortent pas d'un Académisme assez figé où l'on sent d'ailleurs une retenue; et peut-être comme l'exigence d'une prochaine mutation.»[7]

riant ou plantureux (…) si bien que la description volnéenne précise est un peu sèche où la couleur naît du mouvement…»[2]

Pour comprendre ce parti pris de Volney, il faut ajouter en plus de l'influence des Philosophes des Lumières, l'attitude de Volney envers les autres voyageurs contemporains. En ce qui concerne la description de l'Egypte, on remarque que Volney n'abonde pas dans le même sens que Montesquieu lequel établit dans le célèbre livre *L'esprit des lois* les caractéristiques et les aspects du peuple avec le climat et l'environnement. Il y étudie, par ailleurs, les rapports entre les lois et le commerce, la monnaie, le nombre des habitants, la religion, l'histoire.

Volney suit un chemin différent et non moins original. Il s'engage dans une voie sensuelle, plus précisément qui prend source dans les sens. En appliquant cette méthode, le voyageur est sûr de ne pas recourir à la fiction. Il évite ainsi de déformer la réalité des choses. Ce qu'il rejette chez Savary reste justement cette déformation et ce dévoiement qui dénature selon lui le texte de voyage. Ceci confirme ce que Boussif Ouasti écrit à ce sujet:

«L'auteur le plus critiqué, assure-t-il, est évidemment Savary, le contemporain de Volney. (Ce dernier) dément les tableaux idylliques savariens (…) Son ironie voltairienne vise à démentir les tableaux bucoliques, les tableaux sur l'Egypte ou la théorie climatique de Montesquieu.»[3]

La description chez Volney n'est pas limitée au présent, elle est étroitement liée à une vision d'ensemble qui ne peut dissocier le présent désastreux et sombre du passé glorieux de la ville égyptienne. En effet, la description d'Alexandrie, à titre d'exemple; révèle d'emblée son passé riche et prospère. Ce qui contraste avec le désordre et l'atonie qui la caractérisent aujourd'hui.

«Le nom de cette ville, qui rappelle le génie d'un homme si étonnant, le nom du pays, qui tient à tout de faits et d'idées (…) Déjà l'air général de misère qu'il voit sur les hommes, et le mystère qui enveloppe les mains, lui font soupçonner la rapacité de la tyrannie et la défiance de l'esclavage.»[4]

On remarque dans ce passage que l'évocation de l'illustre fondateur d'Alexandrie, époque de gloire et de richesse culturelle, contraste terriblement avec la soumission du peuple et la misère dans laquelle il vit au moment où le voyageur visite le pays. La description sert à opposer ces deux périodes et à mettre en balance deux situations qui montrent le caractère imprévisible de l'Histoire et des hommes. Ce même constat est fait quand le voyageur évoque les deux ports de la ville. Volney insiste sur le rôle du port d'Alexandrie *d'hier*, lieu de transit et de rencontre entre l'Egypte et l'Europe, et celui soumis au regard de l'observateur scientifique: délabré et laissé à l'abandon par les Turcs. Volney confirme l'état navrant de ce qu'il voit:

imagé est très fréquente chez un auteur dont l'autorité scientifique est incontestable.
Comment expliquer un tel changement ?.
Ce changement de forme, comme nous allons le voir, s'explique dans ce cas par la volonté de Volney de peindre la première impression que laisse la ville sur le voyageur quand il se trouve face au "Divers" comme le disait Victor Segalen; non par la projection des fantasmes et des obsessions sur le lieu visité, mais l'effet de celui-ci sur le visiteur.
Le narrateur commence par évoquer le génie de son fondateur: Alexandre le Grand. Par cette évocation, il est aisé de comprendre que Volney veut donner une dimension historique à sa perception de la ville. Aussi l'inscrit-il dans l'Antiquité. Le projet de voyage de Volney n'était pas le fruit d'un hasard. Il avait fait l'objet d'une minutieuse préparation préalable. En effet, le voyageur avait suivi une formation intellectuelle encyclopédique très développée pour satisfaire une curiosité subjective certes, mais non dénuée d'objectivité scientifique. Une objectivité méthodique qui ne laisse aucune place à l'imagination ni aux détails romanesques qui pourraient nuire à la rigueur de son écrit. Cette méthode ne s'écarte pas de l'héritage des Lumières.
En effet, la conception du voyage au XVIIIème siècle se fonde sur deux choses, à savoir la méthode d'enquête et une liste complète des savoirs nécessaires au voyage. A ce sujet Boussif Ouasti a pu écrire: «…A la fin du XVIIIème siècle toute une théorie du voyage scientifique fut mise au point, tant au niveau de la méthode d'investigation, qu'au niveau du répertoire des Savoirs à établir, selon de nombreux questionnaires.»[1]
Cela explique la présence importante du thème du voyage scientifique qui se manifeste par des descriptions précises qui tendent à l'objectivité et un style dépouillé, sans images ni détails romanesques. Ceci reste la règle même quand l'auteur décrit des paysages ou parle de la nature ambiante. En effet, pour l'observateur scientifique, la nature ne représente que des réalités géographiques. La méthodologie adoptée n'accorde aucune place aux envolées lyriques. Volney décrit les choses d'une façon plus ou moins objective et garde ses distances en faisant des constats aussi froids que ceux d'un gendarme. Voilà pourquoi toute fioriture est bannie du texte du voyageur scientifique. La ville est saisie à travers une série de Savoirs rigoureux. Aussi, le récit du voyageur s'apparente-t-il davantage au document qu'à un écrit romanesque. Tout cela rend les descriptions concises et chargées d'informations géographique, historique et humaine. Jean Gaulmier nous confie à cet égard: «J'ajouterai que ni l'Egypte ni la Syrie ne sont des pays aux couleurs éclatantes; la nature n'y présente aucun aspect

Dans cette atmosphère de conquête et de stratégies géopolitiques, Potocki voyage en Egypte. Il en ramène des impressions sous forme de lettres envoyées par les jeux de pouvoirs et des systèmes gouvernementaux que par les paysages. Enfin, son intérêt pour la culture islamique lui facilite la recherche et la compréhension des pays visités. Au début du siècle, Chateaubriand incarna le type même du voyageur pressé. Son *Itinéraire de Paris à Jérusalem* écrit en 1811 est le récit d'un voyage en Orient datant de 1806. Etait-il allé « chercher des images, voilà tout » comme il aimait à le dire?

Quant à Eugène Fromentin, l'occasion de l'ouverture du canal de Suez percé par Ferdinand de Lesseps lui donne la chance de partir pour l'Egypte. En compagnie de hautes figures diplomatiques, scientifiques et littéraires, ce peintre passionné part à la recherche de couleurs inédites. *Voyage en Egypte* est un ouvrage qui révèle aux lecteurs un homme et un artiste fou de couleurs et de lumières.

Le travail qui suit nous engage à étudier les passages des récits de voyages des écrivains voyageurs cités auparavant. Nous essayons d'établir, par ailleurs, des comparaisons pour marquer la subjectivité ou l'objectivité de tel ou tel auteur en ce qui concerne leurs descriptions pour la ville de l'Alexandrie. Car cette dernière représente à travers les siècles, le lieu de rencontre avec l'Orient en général et l'Egypte en particulier. Alexandrie s'offre au regard désabusé du voyageur occidental comme une cité nouvelle où la culture arabo-musulmane s'accommode sans heurt de la présence de la culture européenne. En effet, elle joue le rôle de connecteur entre les deux rives méditerranéennes. Alexandrie devient alors une ville qui charme le voyageur avide de nouvelles sensations, en quête de nouveaux horizons. Elle matérialise, à elle seule, l'espace oriental par excellence.

Finalement on va essayer de répondre à ces deux questions principales:

Existe-t-il une coïncidence ou non entre ces voyageurs et la politique dominante des gouvernements de l'époque?.

La course à la colonisation des terres lointaines par les puissances européenne ne masque-t-elle pas une réelle crise des mentalités dans un Occident à l'horizon bouché et sans espoir de nouveau?.

A) La description de la ville ou le présent et le passé en contraste:

Il est clair que les écrits des voyageurs reflètent, pour une large part, les acquis culturels et sentimentaux qui orientent peu ou prou leurs manières de saisir un élément exotique.

En effet, chez Volney, par exemple, la description sert toujours à un but précis. Toute forme utilisée nourrit un projet particulier. L'utilisation du style

La description de la ville égyptienne, une façon de dénoncer la tyrannie orientale: l'Alexandrie

Dr. Soliman Shagaf
Faculté des lettres, Bani Walid

Introduction:

A la suite du déchiffrement des hiéroglyphes par Champollion en 1822, l'Egypte est à la mode. Des chercheurs et des voyageurs découvrent, stupéfaits, une civilisation très ancienne dont les fonds, humains, économiques et politique attisent leurs curiosités scientifiques et littéraires.

Mais il est important de souligner que cette période coïncide avec le déclin de l'empire Ottoman dans la région. Certains voyageurs, aventuriers de la première heure sont attirés par ce que Victor Segalen avait appelé "Le Divers"; l'altérité et ce qui fait la différence avec le monde occidental, l'autre semblait chargé d'une "mission officielle" émanant du gouvernement français.

Si les voyageurs de notre corpus sont motivés par des projets divers, confusément artistiques et personnels, les intérêts gouvernementaux sont d'une tout autre nature. En effet, le déclin de l'Empire Ottoman et le désordre politiques des provinces, naguère soumises à ce régime, poussent les puissances occidentales à intervenir dans la région.

Parmi les voyageurs écrivains qui font partit de notre travail, Volney fait partie de ces artistes qui cherchent à s'immerger dans une culture étrangère. C'est un homme des Lumières qui s'intéresse aux sources des idées et des dogmes. Son voyage en Orient vers la fin de 1782, de l'Egypte à la Syrie, l'amène à écrire un livre en 1787, qui eut un grand succès littéraire: *Voyage en Egypte et en Syrie pendant les années 1783-1784 et 1785*.

Un autre voyageur non moins original est doté d'une grande culture nous viens de Pologne; Potocki.

La « Question de l'Orient », la recherche d'une participation européenne à l'affaire ottomane, une volonté de dégager sa politique extérieure de l'Empire russe pousse le roi Stanislas-Auguste à l'intéresser à la Turquie et à l'Egypte.

La description de la ville égyptienne, une façon de dénoncer la tyrannie orientale: l'Alexandrie

Dr. Soliman Shagaf
Faculté des lettres, Bani Walid

The university forum magazine

Faculty of arts Bani Waleed

مجلة المنتدى الجامعي

The university forum magazine
The 11th isseu

Autumn 2014

Faculty of arts Bani Waleed

التوثيق في دار الكتب الوطنية 2012 / 446

العدد الحادي عشر الخريف 2014

المراسلات

مجلة المنتدى الجامعي - كلية الآداب بني وليد

طريق الظهرة - بني وليد

البريد الإلكتروني

Email: almuntada2012@yahoo.com

Http://www.facebook.com/almuntada.bw

سعر النسخة ثلاثة دنانير